
ثروت الخرباوي
إخفاء
تركة الرسول
منشورات
إبيـدي

إخفاء تركة الرسول

ثروت الخرباوي



عنوان الكتاب: **إخفاء تركة الرسول**

تأليف: **ثروت الخرباوي**

الترقيم الدولي للكتاب **9789776892552** **ISBN**

التصنيف الموضوعي (ثيما): أدب Thema Codes: F

الطبعة : **الأولى - 2023** رقم الإيداع : 2023/1729

التحرير والتدقيق اللغوي: **إبييدي بوك داتا** **ibiidi BookData**

لوحة الغلاف:



تصميمات إبييدي

ماري سمير لمعي

خدمات إبييدي بوك داتا للنشر

ibiidi BookData Publishing Services



www.ibiidibookdata.com

Windsor, UK & Alexandria, Egypt

منشورات  **إبييدي**

www.ibiidipublishing.com

الناشر : **منشورات إبييدي - إبييدي مصر**

سموحة - الإسكندرية info@ibiidipublishing.com

 /ibiidiPubAR

 /ibiidipublishing

 /ibiidipublishing

اطلب جميع الإصدارات من www.ibiidi.com

رسالة شكر وعرفان

تعوَّد الكُتَّاب على أن يكتبوا في مقدمة كتبهم إهداءً، وقد فعلت هذا في كتبي السابقة، وأنا هنا لا أريد أن أهدي كتابي هذا لأحد بعينه، ولكنني أهديه لكل من عرفني فأحبني، ولكل من عرفته وأحببته، ولأن الإهداء لا يكفي لذلك فإنني من خلال تلك السطور أوجه رسالة شكر وعرفان لأساتذتي الذين تعلمت على أيديهم ونهلت من معارفهم، وأول من أوجه إليه شكري هو أول ناظر لمدرستي الابتدائية رأته عيناي في طفولتي الباكرة، الأستاذ حمدي شملول عليه رحمة الله، فقد كان تربويًا فريدًا ونموذجًا مبدعًا في التعليم، وعارفًا للآداب والفنون، كان أول من أحببني في القراءة ووجهني لقراءة الكتب رغم أنني كنت وقتئذ في الصف الأول الابتدائي، ومن بعده أوجه شكري للناظر الذي جاء بعده، الأستاذ محمد فرحان عليه رحمة الله، وقد كان قيمة كبيرة تعليمية وتربوية كبيرة فضلاً عن أنه كان صاحب مهابة، كنا نهابه ونحبه في الوقت ذاته، وهو الذي أحيا في مدرستي الابتدائية دور المسرح المدرسي الذي أسهم في تشكيل شخصياتنا، والشكر أيضًا موصول لأستاذي الحبيب عبد القادر اليماني عليه رحمة الله، مدرسي الرائع في المرحلة الابتدائية، وقد كان هو المشرف على مكتبة المدرسة وباقي الأنشطة وقتئذ، رحمة الله عليه كان يحيل السكون حركة وحيوية، جعلني وأنا طفل صغير مسئولاً عن أنشطة مكتبة المدرسة، وحينما رأيته بعد سنين طويلة وقد تجاوزتُ الخمسين بعدة سنوات، كان هو رجلاً عجوزًا هرمًا انحنى ظهره قليلاً إذ كان له ولد من ضباط جيشنا قد استشهد في سيناء، ويبدو أن قلبه تفتت لاستشهاد ابنه فانحنى ظهره ولكن وجهه كان مشرقًا، لم يعرفني أستاذي حينما قابلته، وقد تعجب إذ أقبلت عليه وقبلت يده، فسألني من أنت؟ فعرَّفته شخصيتي، فإذا به يحتضنني بقوة ويبكي، فقد عاد معي وبي إلى شبابه الأول حينما كان مدرسًا ينشر العلم بين تلاميذه، لك يا أستاذي كل الشكر والمحبة والدعاء بالرحمة.

أما أستاذي محمد حسنين مدرس اللغة العربية في مدرستي الإعدادية عليه رحمة الله، فقد كان يؤثرني بالاهتمام والرعاية، وقد حفظتُ على يديه بعض الشعر، ومن خلاله أحببت الأدب العربي، وهو من شجعني على أن أكتب، فله شكري ودعواتي بالرحمة.

والشكر والحب والتقدير للأستاذ أحمد إبراهيم أبو غالي مدرس اللغة العربية في المرحلة الثانوية عليه رحمة الله، وقد كان له دور كبير في صياغة أفكاري من جديد، وقد كتبت عنه في كتابي «سر المعبد».

لم يكن الأستاذ أبو غالي وحده صاحب الفضل عليَّ وعلى جيل مدرستي الثانوية فقط، ولكنني لا يمكن أن أنسى الأستاذ «أديب» عليه رحمة الله، الذي علَّمنا النحو والبلاغة، كان اسمه «أديب» وكان هو من أعظم الأدباء، ولكن ماذا تقول في عباقرة في الأدب والشعر عاشوا في الخفاء فلم يعرفهم أحد.

أما العملاق الأكبر الأستاذ عبد العزيز المصري مدرسي في الصف الثالث الثانوي، فقد كان يعشق شعر أحمد شوقي ويراه الأعلى، وكنت أحب شعر أبي القاسم الشابي، وعن هذين الشاعرين دارت حوارات بيننا، هي حوارات الأستاذ الأديب المتمكن العارف الفاهم، والتلميذ الذي يريد أن يرسم طريقه في الحياة، وكم تعلمت من تلك الحوارات، وإن كتب الله لي عمرًا سأكتب كتابًا عن حوارات أدبية مع الأستاذ المصري، عليه رحمة الله.

وفي مجال الفكر أوجه شكري لأستاذي عبد المتعال الجبري عليه رحمة الله، الذي كتب عن فكرة النسخ في القرآن، والشكر الأكبر للمهندس المفكر محمد شحرور عليه رحمة الله، بدأ باحثًا ثم أصبح صاحب مدرسة فريدة في الفقه والفهم والدراية، قدَّم لنا مفاتيح لفهم القرآن، ومن ثم فهم الإسلام، ومنه تعلمت الكثير، فعليه رحمة الله.

ولا أنسى أن أشكر أستاذي المفكر القدير الفقيه الخطيب الفلسطيني الدكتور عدنان إبراهيم، ومعه أوجه الشكر لأستاذي المفكر القدير عدنان الرفاعي، وكذلك الشكر الجزيل والعرفان والحب لأستاذي الدكتور الفيلسوف عمرو شريف صاحب الإصدارات العلمية المنهجية في مواجهة الإلحاد، وقد وهبه الله قلبًا رقيقًا وروحًا شفيفة ملهمة، وقد تعلمت منه وعلى يديه الكثير، والشكر أيضًا لأستاذي وصديقي الحبيب الفيلسوف الدكتور محمد عثمان الخشت، ولأستاذي وصديقي الفقيه الكبير سعد الدين هلالي.

كل هؤلاء وغيرهم أصحاب فضلٍ عليَّ، منهم تعلمت، وعلى أياديهم نهلت، كبيرهم وصغيرهم في السن، ولكنهم جميعًا أصحاب قامات شامخة على اختلاف معارفهم ومدارسهم، ولكن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أولى بها، وقد وجدت في كل واحد من هؤلاء حكمة فأخذتها، وستجد آثارهم في هذا الكتاب، فلهم جميعًا مني الشكر والعرفان وكل الحب والتقدير، رحمة الله على من مات منهم، والدعاء بالخير لمن يسعى في حياتنا ونسعى معه.

وَمَا انْتِفَاعُ أخي الدّنْيَا بِنَاظِرِهِ إذا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأنْوارُ وَالظُّلَمُ

المتنبي

منهج الكتاب

انتظر، لا تقلب تلك الصفحة سريعًا، فما سيأتي فيها هو قلب هذا الكتاب، والقلب الذي أقصده هو المنهج، فأنا في هذا الكتاب أبحث عن تركة الرسول المخفية! لا تتعجب فللرسول تركة مخفية! والعجيب أننا نبصرها ولكننا لا نراها، نقترب منها ونحن أبعد ما نكون عنها، نبكي من أجلها ثم ننصرف عنها، وهذا من أعجب ما كان وما يكون من بني المسلمين، ولذلك قررت أن أخوض معكم غمار تلك المغامرة الغريبة، مغامرة البحث عن تركة الرسول الحقيقية وإظهارها للدنيا رأي العين والفؤاد، ولا يغرك الشيطان ويقول لك مالنا وتركة الرسول، إنما هي لآله فقط، لا والله، تركة محمد بن عبد الله لآله، أما تركة الرسول فهي للبشرية جمعاء، وما كانت التركة تركة إلا لأنها متروكة، وما تركها لنا إلا لأن الله أمره بذلك، ولكن الشيطان كان قاعدًا لنا بالمرصاد، يترقبنا، خطوة خطوة، وما أن رآنا نسير على تركة الرسول ونتلمسها، حتى أخذ يسبك الخطط ويدبر الألاعيب، كيف له أن يُبعدنا عن تلك التركة؟! فليكن الإبعاد عن طريق الإخفاء، ولكن كيف يُخفي ما أصبح منظورًا؟ حدث الإخفاء عن طريق اللغة! إي وربي لقد اختفت التركة عن طريق لغة العرب، هذه التركة العالمية تم تعريبها في معامل الشيطان اللغوية، ثم كتب عليها الشيطان «تم التعريب عن طريق معاملنا وبمساعدة كل من فلان وفلان من شياطين الإنس، وتمت الموافقة على التعريب من هيئة الرقابة العليا المشكلة من الملوك وفقهاء السلاطين، ومعامل الشيطان توجه الشكر لكل من ساعد جهلاً أو غفلة أو علمًا في نشر تلك الترجمة».

تلك الترجمة اللغوية العربية المغلوطة هي التي سنتعقبها في هذا الكتاب ونفكك تراكيبها، ليس على منهج الفلسفة التفكيكية، ولكن على نهج تفكيكي خاص، كل مقصده هو التفكيك من أجل إعادة الشيء إلى أصله لتظهر التركة على حقيقتها أمام الناس.

«هناك أمم تضع تراثها في المتاحف وهناك تراث يضع أمته في المتاحف»

الكاتب الروائي نادر حلاوة

قصة الكتاب

ما الدنيا إلا قِصةٌ طويلة، ولكل شيء في هذه الدنيا قصة، كل الخلائق لهم قصة، حتى الحجر المرمي في الطريق له قصة، والنظرة الأولى من الأم إلى وليدها لها قصة، وحمل الأب المكلوم لنعش ابنه له قصة، الشيء الوحيد في الكون الذي نتوه في دروب قصته هو حب الإنسان لله، فحب الإنسان لله هو حالة شعورية تطغى عليه وتتملكه، فإذا اجتاحت قلبَه أمواجُه، فاض منه الحبُ.

وقتئذ سيحاول التعبير عن تباريح أشواقه، ولكنه سيعجز عن ذلك، حتى ولو كان أبلغ البلغاء وأشعر الشعراء، فما كانت اللغات إلا محدودة تُعبِّر عن محدود، فإذ ما استخدمها المحدود ليُعبِّر عن حبه للامحدود عجز عن البيان.. أما الإنسان فله قصة، وللشيطان أيضًا قصة، ولا تظن أن قصة الإنسان تبدأ منذ مولده وتنتهي عند مماته، فقصة الإنسان تبدأ من عالم الغيب ثم تمتد إلى الدنيا، ولا تنتهي أبدًا في غيب الآخرة، قصة الإنسان هي القصة الفريدة التي ليست لها نهاية، بل تمتد إلى اللامنتهى، نحن بلا نهاية، بل نذوب في سرمدية الآخرة، وآهٍ من جهالة الإنسان «إن الإنسان لربه لكنود»، ويا للهوى الذي يعشش في نفس الإنسان فيستوطن فيها، ومع ذلك فإن مِنَّا من يصرع هواه، ومِنَّا من يصرعه هواه، «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» وكما يقولون: الهوى إله يُعبد من دون الله، وداخل كل إنسان صنم يُسمى الهوى، ذلك الهوى يتحرك داخل نفس الإنسان - الذي أضله الله على علم - مثل الحية الرقطاء، حركة ناعمة هادئة بطيئة، الخطوة تلو الأخرى، حتى يستحوذ على نفسه ويهيمن عليها، فيفتي الناسَ من هواه، ويُضل الناسَ وهو يعلم، ولكنه يبرر لنفسه أنه إنما يفعل ذلك ليُقَرِّب الناس إلى الله، ألا ويلٌ لهذا التقريب إلى الله، وويل لهم حين يفعلون، أما كانت عبادة الناس للأصنام إلا لتقربهم إلى الله زلفى؟! أما كانت النوايا الطيبة أحد أسلحة إبليس التي يخدع بها أصحاب العلم الديني؟!.

وإذا كان الحب نورًا، فإن الكراهية ظلام، والظلام ليس شيئًا قائمًا بذاته، ولكنه يتكون ويغشى ويسود عندما يغيب النور، فإذا غاب الحب جاءت الكراهية، ومن طمر نفسه في الطين عمي قلبُه، فالقلوب التي في الطين لا يمكن أن ترى النور، أو تدرك الحقيقة، أو تعرف الحق، وإبليس هو صاحب قصة الظلام، وهو المنتج الأول في الكون للكراهية، هو النار التي طمرت قلبَها في الطين فعميت، ونحن إنما نروي قصته لتساعدنا على هزيمته في معركتنا الأبدية معه، أما قصته فترتبط بقصة بني آدم، إذ هما خطان دراميان في قصة واحدة، وقصته أيضًا ترتبط بقصة هذا الكتاب.

كان إبليس يرى نفسه ملاكًا وهو ليس كذلك، ظن ناره نورًا، خدعته نفسه، فاختل قلبه، ألم يعش وسط الملائكة؟! ألم يظل عُمرًا يتلقى أوامر الله كما تتلقاها الملائكة؟! معية الملائكة خدعته فجهل نفسه، نسي إبليس ساعة أنه نارٌ تنزوي فصال تَيْها وحرَّق، نقم إبليس على آدم، أبى واستكبر وتمرد على أمر الله، ورفض أن يسجد لآدم تعظيمًا وخضوعًا لعظمة الله، سجدت الملائكة وهي تعلم طبيعة الأمر، إلا أن إبليس من فرط غروره ظن أن السجود تعظيم لآدم، لا لله، فتحدانا نحن ولم يتحد الله، طلب من الله أن يعطيه فرصة ليُضل فيها الإنسان، رحلة الإضلال هذه أراد منها أن يؤكد لغروره أن الإنسان لا يستحق أن يسجد له، كان هذا هو عين الجهل من إبليس، أفلا ينظر أحدُنا إلى تحفةٍ فنية صنعها إنسانٌ فيقول من شدة إعجابه:

«الله» يقول الإنسان: الله، الله، على صنع إنسانٍ، أفلا يسجد إبليس لصُنع الله وقدرته؟!

قال إبليس المغرور الغضوب لله رب العالمين: «فبعزتك لأغوينهم أجمعين»، رفض أمر الله ورد الأمر على الآمر فتوعدنا، كان التحدي لنا نحن أبناء آدم، وعندما نزل الإنسان إلى الأرض ليعيش فيها ويعمرها أصبح إبليس شيطانًا، فهو عندما كان في الملأ الأعلى خاطبه الله باسم «إبليس»، وعندما نزل إلى الأرض مطرودًا من رحمة الله أصبح شيطانًا، فوصفه الله في القرآن بـ «الشيطان» إذ كان قد شطَّ شطوطًا، أي ابتعد عن الحق وأصبح عدوًا لنا، ولكن لنعلم جميعًا أن الله لم يصف الشيطان بأنه عدو لله، ولكنه قال لنا إنه عدوٌ للإنسان، «وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ»، فالشيطان أذكى من أن يكون

عدوًا لله، الأغبياء فقط هم الذين يعادون الله، كان أبو إبراهيم عدوًا لله «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ" وفرعون موسى كان عدوا لله «فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ»، إبليس لم يُشهر عداوته لله، ولكنه عندما تشيطن أصبح عدوًا للإنسان، «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا»، ولم يرد في القرآن آية واحدة تقول إن الشيطان جعل نفسه عدوًا لله، إذ لو فعل ذلك لقصمه الله كما قصم فرعونَ وأغرقه، فكل من أشهر عداوته لله حقت عليه التهلكة، وإبليس كان يريد من الله أن ينظره. أي يتركه عائشًا. إلى يوم يبعثون، فقال له الله: «فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوم».

إبليس التعيس عندما أراد أن يقسم أقسم بعزة الله فقال: «فبعزتك لأغوينهم أجمعين»، كان إبليس يعلم قدر الله، ولكنه كان يجهل قدر نفسه، كان مغرورًا معجبًا بذاته، نسي أنه مخلوق من مخلوقات الله، لا يرتفع قدره إلا بطاعة الله، حبه لذاته أنساه نفسه، فصال في متاهات الإفساد وعربد لا يدري رأسه من قدمه، هذا هو الضلال بعينه، لذلك كانت خطة الشيطان لإفساد علاقة الإنسان بالله تقوم أولاً على طرده من جنة الخلق، تلك الجنة التي خلق الله فيها آدم، وهي غير جنة الخلد، فزين لآدم وزوجه شهوة المُلك، وفكرة الخلد، ووقع آدم في فخ إبليس، فنزل إلى الأرض هو وزوجه، ولكن الله تاب عليه، ونزل إبليس مطرودًا من رحمة الله، فكان أن أخبرنا الله أننا وإبليس أصبحنا أعداءً، «قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ»، ظلت العداوة مستعرة في نفس الشيطان، ونسي الإنسان تلك العداوة.

****

"زخرف القول غرورًا» هي الخطة الثانية للشيطان، وهي مستمرة حتى الآن، وتقوم على تحريف الكلم عن مواضعه، وهذا التحريف يقتضي أن يقعد لنا الشيطان على الصراط المستقيم، لا يغادره أبدًا، ومن أجل أن يُحْبِك خطته ينبغي أن يظهر لنا بصورة التقي الورع القديس حتى يقبل الناس منه تحريفه «لأقعدن لهم صراطك المستقيم»، لذلك أمسى الناس لا يقبلون الدين إلا ممن ارتدوا زي الدين، وحينما قعد الشيطان على الصراط المستقيم لم يكن قعوده من أجل أن يدعونا إلى ذلك الصراط، ولكن لكي يجعلنا ننحرف

عنه، نتركه، نبتعد عن طريقه، والذي سيقوم بمهمة التحريف هنا هو هذا الرجل الذي سيرتدي ثياب القديسين الأتقياء، هو الذي سيتخذ إلهه هواه، ولكن القديسين والأنبياء لم تكن لهم أزياء تميزهم من باقي الناس، كان الأنبياء يرتدون نفس ثياب أقوامهم، فلم تكن هناك ثياب بعينها يرتديها إبراهيم أو موسى أو عيسى عليهم السلام جميعًا، ولم تكن هناك ثياب مختلفة عن ثياب العرب يرتديها نبينا محمد بن عبد الله سلام الله عليه، ولم يكن صحابة النبي يرتدون ثيابًا تدل على أنهم صحابة، وعاش الفقهاء عبر العصور يرتدون ثياب الناس نفسها، ولكن ظهرت بين بني آدم طائفة أطلقت على نفسها لقب رجال الدين، هم وحدهم يمتلكون الحل الديني، هم الذين يزعمون أنهم يوقعون باسم الله، ولكي يتميز رجال الدين عن باقي بني آدم أوحى لهم إبليس أن يرتدوا ثيابًا مختلفة تدل على أن لهم صلة مباشرة بالله، ومن هنا ظهرت الكهانة بين أبناء آدم.

كل كاهن أو راهب أو حَبْر أو حاخام، أو رجل دين من هؤلاء كان يزعم أنه يملك علمًا لا يملكه باقي الناس، وحده الذي يعلم الحلال والحرام، وفي كل الحضارات القديمة كان كل من يقف ضد الكاهن أو يرفض طاعته يضحى منبوذًا كأنه رفض طاعة الله، وكل من يرفض ما حرَّمه الراهب فكأنما هو يقف ضد الدين، لا ضد الكاهن أو الراهب. ومِن عجبٍ أن إبليس كان هو الكاهن الأول بين الخلائق، نعم كان هو أول كاهن فرد جناحيه فوق رأس آدم وزوجه، فحينما وقف آدم في جنة الخلق أمام سر «الشجرة المحرمة» لم يجد للسر جوابًا، فالله سبحانه حرَّم عليه الأكل من هذه الشجرة إلا أنه لم يعطه. لحكمة عنده. سر هذه الشجرة وسبب هذا التحريم، لذلك جهل آدم طبيعة الشجرة وسبب النهي عن الأكل منها، ولكن الرغبة في المعرفة تتحرق شوقًا في كيانه كله، والشجرة أمامه، والنهي عالقٌ في ضميره، أيتقدم من الشجرة ليأكل منها فيأثم ويعرف؟ أم يقتل هذه الرغبة في داخله فيثاب ويجهل؟ ظلت الرغبة في المعرفة تتلمظ أمامه وكأنها تقوده رغمًا عنه إلى الشجرة، هنا ظهر إبليس الكاهن، ارتدى ثوب الورع، وأبدى النصح لآدم، زعم أنه يملك المعرفة الغيبية التي يجهلها آدم:

إذا كنت يا آدم لا تعرف سر تحريم الله لك من أن تأكل من هذه الشجرة فأنا وحدي الذي أعلم هذا السبب، أوقع إبليس في خلد آدم الأب الأول للإنسان أن هذه هي شجرة الخلد والمُلك الذي لا يبلى، ولم يفطن إلى أنه في الجنة خالد، وهو ملك في مملكته!!

لم يكن آدم عليه السلام عارفًا أنه إذا أكل من هذه الشجرة فسيفقد الحالة النورانية التي تؤهله للبقاء في تلك الجنة، فهذه هي شجرة الدنيا، فإذا أكلها حق عليه الهبوط إلى معترك الحياة الدنيا، حجب الله عنه معرفة سر هذه الشجرة، فجهل بها وبأثر الأكل منها، وأضله الشيطان الكاهن الأول على علم، لذلك كانت معصية آدم الحقيقية ليست لأنه أكل من الشجرة المحرمة، ولكنها كانت لإذعانه لمنطق الكهانة والوساطة من إبليس «فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى».

«هل أدلك؟»: تلك هي كلمة الكاهن الذي زعم أنه دليل آدم، يَعلم ما لا يعلمه، فأذعن له آدم، فكانت هذه هي المعصية، فالوساطة والكهانة والاتباع هنا توجب غضب الله على العبد، ولم يعف الله عن آدم ويرض عنه إلا بعد أن علَّمه كلمات صدرت منه مباشرة إليه، بغير وسيط دال أو شارح أو مفسر، فقبلها آدم ورددها فتاب عليه «فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه"، وما فتئ الناس من بعد آدم يسيرون على الخط ذاته، ويبحثون عمَّن يصلهم بمعرفة الغيب، برغم أن النور في قلوبهم وبين جوانحهم ولكنهم لا يبصرون، وكلمات الله وصلت إليهم مباشرة لا غموض فيها ولا ألغاز «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»، ولكن ليس هناك من يدكر، جَهَلَ الإنسانُ أن الصلة بالله لا تحتاج إلى وسيط، ولكنها فقط تحتاج إلى إيمانٍ بالله واليوم الآخر، ثم العمل الصالح.

وهكذا أصبح الإنسان عبدًا لطائفة الكهنة والأحبار والرهبان والحاخامات ورجال الدين وعلماء الدين، وما يزال الإنسان إلى وقتنا هذا عبدًا لهم، وما جاءت الأديان التي أنزلها الله على رسله إلا لكي تحرر الإنسان من عبوديته للإنسان، ولكي تصله مباشرة بالله رب العالمين، بحيث لا يكون هناك من يزعم أنه الذي يملك حق التوقيع نيابة عن الله، هذه عبادة للعباد لا لرب العباد، وما زالت كلمات ربعي بن عامر عندما ذهب إلى رستم قائد الفرس تتردد في كتب التاريخ حينما قال: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عباده من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد».

وكيف يبحث المسلم عن وسيط يفهم منه كيف يكون مؤمنًا وهو يقرأ من آيات القرآن «وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»؟! ادعوني مباشرة بلا وسيط، وحينما سألوا الرسول عن الله، قال لهم الله مباشرة في القرآن الكريم «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ»، والقريب

لا يحتاج إلى وسيط لتصل إليه، ولكن «ما كل ما يتمناه المرء يدركه، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن»، تعلَّم آدم من تجربته أنه لا ينبغي أن يكون بينه وبين رب العزة وسطاء، إلا أن أبناء آدم نسوا تجربة الأب الأول، ولم يفهموا دروسها، فظهرت بين العالمين سلطة رجل الدين، وهي سلطة طاغية على الجماهير، أولئك الذين يعيشون حياتهم في كبد، ويعيشون المعاناة وكأنهم خلقوا لها، ويتحصلون على أرزاقهم بشق الأنفس. هؤلاء الضعفاء تصبح لهم قوة هائلة وهم يهتفون باسم رجل الدين الذي سيدخلون الجنة من خلاله، فقدوا الدنيا ولم يبق لهم إلا الآخرة وجنتها.

هؤلاء ضحايا، مساكين، ضعفاء، ولكنهم في الوقت ذاته أقوياء بضعفهم ومسكنتهم، وحينما يؤمنون بواحد من هؤلاء، يصبحون جيشه الذي يدافع عنه وعن سوءاته وخرافاته التي يبثها في روعهم، خرافاته وأساطيره هي في قلوبهم دين، وجنة، ونار، معظم هؤلاء إلا من رحم ربي يقدمون صورة مزيفة للدين، تلك الصورة المزيفة سيحبها الناس، وويل للذي يخالف ترهاتهم، وبخاصة لو ظل هذا الفهم يتوارث بين الأجيال عبر أكثر من ألف عام، فالقديم له عبقه، وله تأثيره، والذي سيخالف هذا الفهم القديم سيكون في زعمهم في النار وبئس المصير، وستظل تلك الصورة ساكنة في وجداننا، لا نصدق من ينتقدها أبدًا، وقد نصل في سبيل الدفاع عن تلك الصورة التي نحبها إلى درجة رجم كل من يضع الصورة الحقيقية صادمة بلا رتوش أمام عيوننا، وقد نتمادى فنكذب عيوننا وأسماعنا، فلن نستطيع أن نحكم على خطة تحريف الكلم عن مواضعه بحياد ونحن أسرى لرجال ظهروا أمامنا بمظهر «المخلص» الذي سيُسكننا جنات النعيم، والناس أعداء ما يجهلون، وآفة الرأي الهوى، وما عبد الناس الأصنام إلا لأن هواهم كان فيها، وما يزال الناس يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى.

ولو بحثت في قصص الأنبياء لوجدت أنهم كانوا يواجهون «سلطة الجماهير» وهي سلطة العقل الجمعي الذي تشكل عبر أجيال على فكرة منحرفة، شركية أو إلحادية، تلك الجماهير تدافع دائمًا عن الذي ورثوه فتعودوا عليه، لذلك هم يدافعون عن الميراث، وتلك سلطة كبرى، سلطة الميراث، وما رفعت الأقوام سيوفها ضد الأنبياء والرسل إلا للدفاع عن الميراث الذي اعتبروه مقدسًا.

تلك هي خطة الشيطان، وهذه هي قصته معنا، يجب أن يُبعد الناس عن الدين عن طريق الدين، فلو سرق الإنسان أو قتل أو زنى أو عق والديه أو أخذ مال اليتيم ظلمًا، لو

فعل كل هذا بدافع من شهوة نفسه، أو غرور عقله، سيأتي اليوم الذي يتوب فيه إلى الله من ذنبه فيكون عمل الشيطان حينئذ هباءً منثورًا، ولكن ماذا لو فعل كل تلك الجرائم تحت غطاء أنها دين، وأن هذا هو ما يطلبه الله من عباده، وأن كل ما سلف إنما هو لإرضاء الله، وأن ما فعله هو من الحسنات التي ينتظر أجره عليها من الحور العين وقصور الجنة وأنهارها؟! أتراه يتوب إلى الله من حسناته؟! وكيف يتوب وهو يظن أنه يُحسن صُنعًا؟!

وقد ترتب على هذه القصة الشيطانية إبعاد الدين الذي أنزله الله على رسله عن مراميه وغاياته ومقاصده، فاختفى الدين الحقيقي تحت ركام من الجهل والجهالة والتحريف، الكل في ذلك سواء. الآن يجب أن نصل إلى نهاية القصة، ولكن قصتنا لا نهاية لها، فسيظل الشيطان يوحي لنا لنحرف الكلم عن مواضعه، وسيظل قاعدًا لنا على الصراط المستقيم، وسيظل معظم الناس يأخذون دينهم ممن يظنون أنهم أعلم منهم بالدين، فقد أفهموهم أن الدين علم، وأن الله أنزل إليهم دينًا ملغزًا لا يفهمه إلا الخاصة من الناس، ولكنني لن أفعل مثل هؤلاء، فقد آليت على نفسي أن أسعى قدر جهدي وفهمي من أجل البحث عن الإسلام الذي أنزله الله على رسله ثم على سيدنا محمد، كل الرسل والأنبياء أصحاب رسالة واحدة، لا نفرق بين أحد من رسله، هذه هي مهمة المسلم الحق، أن يبحث لنفسه عن دينه بنفسه، لا يضره من ضل، كلنا يجب أن يبحث عن التركة الدينية التي تركها الرسول لنا، ولا أستطيع أن أجزم أن ما سيأتي في كتابي هذا هو الحق، ولكنه هو الحق الذي أعتقده، وهو يلزمني ولا يلزم غيري، ولكنني رأيت أن أشرككم في الذي اعتقدته، وما أشركتكم فيه إلا لكي يكون دعوة للتفكير. هذه هي قصة الكتاب، قصة البحث عن الإسلام المخفي تحت ركام التحريف والجهالة، وهي دعوة لكل إنسان على وجه الأرض أن يبحث بنفسه عن دينه، وأن يتصل مباشرة بالله، وأن يفهم دينه بنفسه كفى بنفسه عليه وكيلاً وحسيبًا، وأن يعمل لنفسه على تصويب ذلك التحريف الذي حدث للكلم عن مواضعه، فهذا ديننا ونحن أولى به وسيحاسبنا الله عليه «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه» وسنكون معًا في تلك الرحلة إن شاء الله ننظر كيف حرَّف شياطين الإنس الكلام عن مواضعه فجعلونا نفهم الإسلام فهمًا مختلفًا عن المحجة[1] البيضاء التي تركها لنا الرسول، سنواجه هذا التحريف في كل فصل وفي كل مقطع أو جزء من مقاطع وأجزاء هذا الكتاب.

---

١ المنهج أو الطريق المستقيم.

«أفهام الخلائق لا تتعلق بالحقيقة، فكيف إلى حقيقة الحقيقة؟!»

«الحسين بن منصور الحلاج»

باسم الله أبدأ

وباسم العليم أستعين

والحمد لله



الفصل الأول

بسم الله الرحمن الرحيم أم باسم مؤلف الكتاب؟

((لم يكن العرب الذين أرسل الله فيهم رسولنا لا دين لهم، ولكنهم كانوا أصحاب أديان، وكانوا يعتقدون في آلهة متعددة، فعبدوا اللات ومناة والعزى وأصنامًا أخرى، وتعصبوا لها كأشد ما يكون التعصب، وكان لكل قبيلة صنمها، وكاهنها الأكبر الذي يتحدث إليهم باسم إلههم، وكان من بينهم نصارى ويهود، وعَبَد بعضُ عرب اليمن الشمس والقمر، بل إن بعض عبادات المصريين كانت قد وصلت إلى الجزيرة العربية، فكان هناك معبدٌ للإله حورس في منطقة الفاو بشمال الجزيرة العربية، وعرفت قبيلة تميم العربية عبادة النار، وهكذا، كلهم تقريبًا كانوا أصحاب دين.

تلك العبادات استقرت وتوافقت في الجزيرة العربية، وقامت بينهم وشائج التجارة والمصالح حينًا، وحروب العصبية والقبلية البعيدة عن الدين حينًا آخرَ، ولكنهم كلهم تعصبوا لأديانهم، وكان لكل دين منهم الكاهن الأكبر الناطق الرسمي باسم الله، فجاء الإسلام يهدم دياناتهم الشركية، ويسفه أحلامهم كلهم جميعًا، ويسقط مصداقية كهنتهم «من أجل ذلك كادت قريش لأبنائها الذين اتبعوا الدين الجديد، وعذبوهم وأخرجوهم من ديارهم، ثم نصبت لهم الحرب، وضحت في سبيل ذلك بثروتها وقوتها وحياتها، كانت قريش متدينة قوية الإيمان بدينها، ولهذا الدين وللإيمان بهذا الدين جاهدت ما جاهدت، وضحت ما ضحت وقل مثل ذلك في اليهود؛ وقل مثله في غير أولئك وهؤلاء من العرب»[٢].

وكان ظنهم في محمد بن عبد الله صاحب الدين الجديد أنه تعلم الكهانة، والشعر، وأن هذا القرآن إنما هو درب من دروب الكهانة نطق به محمد باسمه هو أو باسم أحد الكهنة، فكان الرد أن هذا الكلام القرآني إنما هو بسم الله الرحمن الرحيم))

****

٢ في الشعر الجاهلي لطه حسين، طبعة دار المعارف للطباعة والنشر التونسية، ص ٢٥.

نبدأ في أول التحريف، ومن خلاله سنجد أننا أمام مشكلة هي، هل أبدأ هذا الكتاب بعد أن أكتب في نصف السطر الأول «بسم الله الرحمن الرحيم»؟ كالعادة التي تعودنا عليها؟ أم أكتفي بتسمية الله بأن أقول مثلاً «باسم الله أبدأ» أو سبحان الله، أو الحمد لله، أو «الله» فقط؟ انتظر معي ولا تنزعج من سؤالي، فـ «بسم الله الرحمن الرحيم» هي آية من القرآن وفقًا لرأي الأغلبية، فما علاقة أن أكتب آية قرآنية بشكل مستمر في كل مرة قبل أن أبدأ كتابة أي كتاب أو خطاب، أو قبل إلقائي لأي خطبة بما أكتبه؟ أنا أكتب ما فكرت فيه، وما فكرت فيه لم يكن ولن يكون وحيًا من الله سبحانه وتعالى، نعم، ما أكتبه هو إنتاجي الفكري والعقلي والعاطفي وغيرهم، ولن يكون الكتاب الذي أكتبه أو الخطاب الذي أرسله لصديقي أو لزوجتي أو لرئيس دولتي هو «بسم الله الرحمن الرحيم»، بل هو باسمي أنا كاتب الكتاب أو الخطاب؟ باسمي أنا فقط، وهو نتاج تعليمي وتربيتي وأخلاقي وثقافتي وقدراتي وإمكانياتي، القرآن فقط أيها الناس هو الذي «بسم الله الرحمن الرحيم»، وبسم الله الرحمن الرحيم تعني أن هذا القرآن وحده هو «المنطوق» الرسمي باسم الله، أما الناطق الرسمي لهذا المنطوق فهو الرسول سيدنا محمد بن عبد الله، لذلك قال الله سبحانه عنه «وما ينطق عن الهوى» أي أن هذا الناطق بهذا المنطوق لا يقوله من عندياته، ولا من هواه، «إن هو إلا وحيٌ يوحى»، هذا المنطوق لم يأت على خاطر سيدنا محمد فجأة، ولكن «علمه شديد القوى» وهو ملك الوحي جبريل.

لذلك فإن هذا الكتاب هو الذي يُعبِّر عن رسالة الله، وغير ذلك من الكتب إنما تُعبِّر عن الذي كتبها، هي باسم من خطها بيمينه، وأي خطبة ينطق بها أي شخص من آحاد الناس إنما هي المنطوق الذي يعبر عن علم وهوى هذا الشخص، لذلك فإن الله نفى عن النبي أنه كان يخط الكتب، فقال: «وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ»، أي أن محمد بن عبد الله لم يكن له إنتاج فكري وضعه في كتاب يُنسب إليه، لم يخط كتابًا من قبل يُقال عنه إنه من تأليف محمد بن عبد الله، أو أنه «باسم محمد» إذ لو حدث هذا لقال المبطلون إن هذا القرآن باسم محمد بن عبد الله، وقد أكَّدَ لنا الله هذا المعنى بقوله «إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ».

وإذا كان ملوك ورؤساء الأرض يرسلون كتبهم وخطاباتهم وأوامرهم فيكتبون في مقدمة الخطاب أو المنشور: من فلان ملك البلاد، أو من ملك بلاد العرب إلى ملك بلاد السند

والهند، أو باسمي أنا الرئيس قررت كذا، لذلك كان يجب أن يبدأ القرآن كتاب الله للإنسان بتسمية صاحبه، وصاحبه هو من؟! هو الله الرحمن الرحيم، باسمه لا باسم أحدٍ آخر، إذن عندما تقرأ القرآن يجب أن تستحضر معية الله، ولكننا ننسى، لذلك كانت كل سورة تبدأ بتسمية صاحب هذا القرآن، والتسمية هي ما تم الاصطلاح على تسميتها بالبسملة، ولكن كل ما نكتبه في حياتنا إنما هو باسم من كتب، وباسم من قال، وليس بسم الله الرحمن الرحيم. فهل عندي حق عندما أقول إنَّ ما تعودنا عليه هو في الحقيقة يخالف المنطق والفهم الصحيح للغة العربية، ويخالف المعنى اللغوي الواضح لآية «بسم الله الرحمن الرحيم»!

ولا أظن أن هناك ضرورة بيانية تدعوني لأن أدخل بكم في اختلاف الآراء حول هل البسملة بهذه الصيغة، هل هي آية من آيات القرآن نبدأ بها كل سورة ما عدا سورة التوبة، أم أنها آية نبدأ بها سورة الفاتحة فقط، أم أنها ليست آية أصلاً؟ فهذا الخلاف ظهر بعد وفاة النبي، وظل قائمًا حتى تاريخنا هذا، ولكنني في كلامي هنا أبحث عن المعنى العام، فهو الذي سيحدد طبيعة هذه الآية، ولذلك هو الذي أبحث عنه، وليس معنى كل حرف أو كلمة من حروف البسملة وكلماتها بمعزل عن الحرف أو الكلمة التي تليه، فقد استلفت نظري ما جاء في القرطبي وهو يغوص في المعنى العام للبسملة أن «بسم الله الرحمن الرحيم» هي «قسم من ربنا أنزله عند رأس كل سورة، يقسم لعباده إن هذا الذي وضعت لكم يا عبادي في هذه السورة من عندي وهو حق».

ورغم أن صيغة هذه الآية لا تدل على أنها قسم، إذ أن الله لا يحتاج قبل كل سورة أن يقسم لعباده، فإنني وقفت عند المعنى العام الذي استنبطه «القرطبي» وهو أن هذه الآية تدل على نسبة هذا القرآن لله، وأن الله هو الذي أنزل علينا هذا القرآن، وأنه حق، لذلك قال الله في القرآن في أول آية أنزلت على سيدنا محمد «إقرأ باسم ربك الذي خلق» **سورة العلق الآية ١.**

أي يا محمد، ويا أي مؤمن برسالة محمد على وجه الأرض، عندما تقرأ القرآن يجب أن تعرف أنك تقرأ كتابًا أرسله الله سبحانه وتعالى، هذا الكتاب هو «بسم الله»، لم يقل لنا الله أن نقرأ باسم محمد بن عبد الله، فهو موحى إليه بهذا القرآن، أو باسم جبريل ملك الوحي، فما هو «بقول شاعر»، « ولا هو بقول كاهن»، «بل هو تنزيلٌ من رب العالمين».

هذا القرآن من عند الله وحده، ورغم أن الجهلاء «يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ»، فإن الله ينفي هذا الزعم بقوله «لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ»، بل إن الله سبحانه تشدد في مواجهة النبي، وقال في سورة الأحقاف عن سيدنا محمد: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤)لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ» ثم يقول الله لنا جميعًا إنه يعلم أن هناك من يُكذب نسب القرآن لله فيقول: «وإنا لنعلم أن منكم مكذبين».

البسملة إذن هي تأكيد لأمر مؤكد، تأكيد بأن القرآن هو بسم الله، وحرف الباء في لسان العرب هو حرف ابتداء، وهو أيضًا من حروف الظهور، ما معنى هذا؟ دون الدخول في تفاصيل علم الحروف. وهو علم لا نستطيع فهم الكلمات إلا من خلاله. سأضرب بعض الأمثلة للتوضيح:

الباء بداية وظهور، لذلك تجد كلمات تُعبِّر عن البداية تبدأ بالباء، مثل بداية، وبدا أي ظهر، وباب لأنه أول ما يقابلك من البيت، وبدن لأنه الجسم الظاهر بسبب امتلائه، لذلك نقول فلان بدين، أي ممتلئ حتى أصبح ظاهرًا لا يخفى على أحد، وبرج لأنه مرتفع وظاهر، وببغاء لأنه الطائر الوحيد الذي يتكلم بكلمات ظاهرة لها معنى، وبيت وهو السكن الثابت للإنسان الذي يبدأ فيه حياته ويرتبط به، أما منزل فهو البيت الذي يتغير كل فترة، لذلك يُقال عن الفندق «نُزُل»، وبرز، وبروز من الظهور، وبِزَّة أي شارة وعلامة وتعني أيضًا ثوبًا ظاهرًا أو سترة يرتديها الإنسان فتغطي جسده وتكون هي الظاهرة، وبَزَّ أي تقدم وسبق وأصبح ظاهرًا في المقدمة، وبَشَرْ هو بداية خلق الإنسان «إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ»، وحرف الباء هو أول حرف ينطق به الإنسان وهو وليد، لذلك أول شيء يقوله الوليد هو بببابا «بابا» فالباء إذن في بسم تعني البداية والثبات والظهور، وهذه خصوصية لحرف الباء، حتى أن تلك الخصوصية ومن فرط طغيانها يبدو - والله أعلم - أن الإنجليزية قد تأثرت بها في بعض كلماتها كما سيبدو لنا في أمثلة سنضربها عن وظيفة الباء في الإنجليزية، التي تكاد تكون قريبة نوعًا ما في بعض الأحيان كما هي في لسان العرب، فكلمة «بداية» العربية التي تبدأ بالباء هي بالإنجليزية beginning، وكلمة بدن تعني بالإنجليزية body، وكلمة يصبح، أي يبتدئ في الصبح هي become، وباقة الزهر إنما هي باقة لأنها مجموعة مجتمعة على بعض فأصبحت ظاهرة وهي بالإنجليزية Bouquet، فإذا كانت

هذه الباقة تجمع شيئًا آخرَ فهي Package، وكلمة بِزَّة التي هي سترة تعني بالإنجليزية Parka، وببغاء تعني بالإنجليزية Parrot.

ولو استطردت في هذه الأمثلة فلن يتسع لنا المجال في الشرح، إلا أنني أضرب تلك الأمثلة من أجل أن يتضح لنا أن حرف الباء له خصوصيته، وخصوصية الباء في كلمة «بسم» بادية لنا، وما كان لها أن تختفي لولا عبث إبليس بقلوبنا وأفهامنا، فالباء بجلاء ظاهر في بسم ليس كما يقولون من حروف الالتصاق، وليس من جسم كلمة اسم، ثم اضطر النحاة إلى حذف الألف من اسم لكثرة الاستعمال، ولكن حرف الباء هنا هو جزء من جسم كلمة «بسم» أي أنها ليست مضافة أو ملحقة أو مبتدأ بها كما يقول النحاة، وليس هناك حذف لألف، ولكنها كلمة كاملة ليس فيها مضاف، ولا ينبغي أن يضاف إليها، وهي من الرسم القرآني الفريد، وليس لها سابقة في لغة العرب، ولذلك هي مختلفة عن كلمة باسم، التي فيها ألف، و«باسم» هنا هي التي تكون الباء فيها قد جاءت من باب الالتصاق، أو الاستعانة، وكلمة باسم في القرآن وردت كثيرًا دون حذف الألف، أما بسم فلم تأت إلا في صيغة البسملة فقط، سواء كانت البسملة التي في بداية السور وفي سورة الفاتحة، أو بسم التي في سورة النمل «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم»، ثم جاءت مرة ثالثة في آية «بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا» لذلك فإن بسم هي خاصة بتلك المواضع التي ذكرها الله في كتابه دون غيرها ويكون لها خصوصية في المعاني والدلالات تختلف عن باسم التي فيها الألف.

ومن هنا نقول إن بسم الله الرحمن الرحيم تعني أن هذا الكتاب الذي تقرأونه هو «بسم الله» من عنده هو، وليس باسم أي أحدٍ آخر، أما صحيح البخاري أو سيرة بن هشام، أو أي كتب أخرى فهي كتب تنسب لأسماء أصحابها المدونة على أغلفتها، هذا باسم البخاري، وذاك باسم مسلم، وآخر باسم القرطبي وهكذا.

الخلاصة هي أن تلك البسملة هي توقيع الله رب العالمين على القرآن الكريم، هل تتعجبون من كلمة «توقيع الله»؟ لقد طلب الكفار من النبي هذا التوقيع! طلبوا أن يُنزل النبي عليهم من السماء كتابًا من الله مباشرة، فقالوا: «وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ» أي كتابًا يُنسب إلى الله بشكل مباشر، هؤلاء الذين يُكَذِبون النبي لا يعقلون!!

ولم يفهموا أن «بسم الله الرحمن الرحيم» هي ما طلبوه، هي التي تقول للجميع إن هذا الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم.

ولكنني في هذا المفتتح سأنسى ما قلته، وسأعتبر أن الباء مضافة لاسم وليست من جسم الكلمة الأصلي، فلا يمكن أن أقطع أبدًا بأن ما أقوله هو الحق المطلق، ولذلك سأساير من يقولون إن كلمة «بسم» أصلها باسم، وسأخالف رأيي بأن «بسم» في البسملة هي من الرسم القرآني الفريد وأنها كلمة واحدة تبدأ بالباء وتنتهي بالميم دون أن تضاف الباء للالتصاق أو الاستعانة، وسأوافق على أن العرب يقولون: باسم، باء ثم ألف ثم سين ثم ميم، لأن الباء حرف جر، وهو حرف ابتداء، نبدأ به قبل كلمة « اسم» ثم يقولون إن بسم هنا تم حذف حرف الألف منها بسبب كثرة الاستعمال أو للتخفيف!! ولكنني لا أوافق على هذا التأويل أبدًا، بل إن ما قالوه يُعتبر من التفاسير اللغوية المستهجنة، ذلك أن الواضح على الأقل لي أنا شخصيًا. أن حذف الألف إنما حدث للالتصاق، أو قل لتأكيد الالتصاق، أي لتأكيد نسب هذا الكتاب لله دون أن تكون هناك واسطة تدخلت في صياغته أو كتابته، فيكون حذف الألف إشارة من الله رب العالمين لنا أنه لا واسطة تدخلت ولو بحرف واحد في القرآن الكريم، هو «تنزيلٌ من رب العالمين» من رب العالمين وسنظل نكررها كثيرًا.

إذ لو كان حذف الألف إنما هو لكثرة الاستعمال أو للتخفيف كما يقول النحويون فكان يجب وفقًا لهذا ألا يتم حذف الألف في كلمة «باسم» في الآية ٤١ من سورة هود «وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ»، فـ «بسم» هنا محذوفة الألف مع أن هذه الآية لم تتكرر وليس فيها كثرة استعمال، وليس هناك مبرر فيها للتخفيف، كما أن الألف محذوف أيضًا في كلمة «باسم» في الآية رقم ٣٠ من سورة النمل «إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، ولكن المعنى يستقيم عندما نقول إن حذف الألف إنما للصلة والاتصال والالتصاق دون واسطة بين الشيء وصاحبه، فإذا كان الشيء هو القرآن فصلته بالله مباشرة، وإذا كان الشيء هو جريان المركب في الماء فإن هذا الجريان صلته مباشرة بالله.

وفي عصرنا الحديث أصبح للملوك والرؤساء متحدثون بأسمائهم، وهذا المتحدث عندما يقرأ بيانًا رئاسيًا أو ملكيًا فإنه يبدأ بقوله «باسم السيد الرئيس» أو «باسم جلالة

الملك»، ثم يلقي بيان الملك أو الرئيس، فيعرف كل الناس أن ما قاله هذا الناطق إنما يُنسب للرئيس أو الملك ولا يُنسب لمن قرأه، ولكن هذا الشخص نفسه عندما يكتب خطابًا لزوجته لا يبدأ أبدًا بقوله «باسم السيد الرئيس» ثم يسترسل قائلاً: «زوجتي العزيزة لقد حدث كذا وكذا»، إذ ما شأن الرئيس هنا بما سيكتبه هو لزوجته؟.

كما أن هناك وظيفة في حياتنا الحالية اسمها وظيفة التشريع، أي إصدار القوانين، وعندما يجتمع رجال التشريع لإصدار القوانين فإنهم يبدأون القانون بعبارة «باسم الشعب»، وهي تعني أن صاحب هذا القانون هو الشعب نفسه مصدر السلطات وليس أعضاء البرلمان بذواتهم، فهل رأى أحدنا رئيس مجلس النواب، أو أعضاء هذا المجلس وهم يكتبون كتبهم الشخصية، وخطاباتهم الشخصية، ويكتبون قبلها في نصف السطر الأول عبارة:

«باسم الشعب»

صديقي العزيز فلان أكتب لك كذا وكذا وكذا........

لم يحدث هذا أبدًا، ولن يحدث، لأنه عندما يكتب لنفسه، أو يرسل لصديقه إنما يرسل باسمه الشخصي لا باسم الشعب.

ولكن هل معنى هذا أن لا نبدأ أي عمل لنا بذكر الله سبحانه وتعالى؟! كلا وألف كلا، كل عمل نقوم به ينبغي أن نبدأه بذكر اسم الله، ألم يرد في الحديث الشريف «يا غلام، سمِّ اللهَ، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك»، ها هي سمِّ الله واضحة؟ فلماذا كنا نجادل؟ الأمر ليس فيه جدل على الإطلاق، ولكن فقط تحرير المصطلحات وتحديد المعاني، فالتسمية غير البسملة، ولذلك إذا نظرت لبداية هذا الكتاب ستجدني كتبت «باسم الله أبدأ»، أي أنني ذكرت اسم الله قبل أن أبدأ عملي، وذكر اسم الله هنا للتبرك والاستعانة، وإذا رأيت شيئًا أعجبك فقل: «باسم الله ما شاء الله» وهكذا، وأظننا نحفظ جميعًا الأدعية التي نذكر فيها اسم الله.

ولكن متى دخلت آية «بسم الله الرحمن الرحيم» بوصفها مفتتحًا لكلامنا وكتاباتنا؟ يقول المؤرخون إن سيدنا النبي أرسل رسائل إلى الملوك يدعوهم للإسلام وإنه بدأها بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، وإنه قبل ذلك كان يكتب كما يكتب «المشركون في مكة

«باسمك اللهم»!! أي أن المشركين كانوا يبدأون كتبهم باسم الله «باسمك اللهم» وأن سيدنا محمد قلدهم في ذلك!! فكتب المشركون في مكة في بداية دعوة الإسلام وثيقة بدأوها بعبارة «باسمك اللهم» قرروا فيها مقاطعة المسلمين وحصارهم في «شِعب أبي طالب» وظل هذا الحصار قائمًا لمدة ثلاث سنوات إلى أن قرر بعض المشركين الاجتماع لإنهاء الحصار من باب المروءة، فذهبوا للوثيقة فوجدوها وقد تآكلت حروفها ولم يبق منها إلا «باسمك اللهم».

حدث هذا ولا نشكك فيه أبدًا، ولكن أن يكون النبي أخذ من الكفار «باسمك اللهم» ثم جعلها مفتتحًا لرسائله، ثم عندما نزلت آية سورة النمل «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم» جعل من بسم الله الرحمن الرحيم مفتتحًا لرسائله من باب التيمن والتبرك، فهذا ما لا يصح لدى أصحاب الفهم السليم، إذ أن ملكة سبأ كانت تقول لقومها كما هو واضح من الآية، إن هذا الكتاب الذي وصل لي جاء من سليمان، «إنه من سليمان» ولكنه ليس صاحب ما جاء في الخطاب، «وإنه بسم الله الرحمن الرحيم» أي إنه من إله اسمه «الله الرحمن الرحيم» ومحتوى الخطاب يدعوني فيه الله الرحمن الرحيم للإسلام «ألا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين»، مسلمين وليس مستسلمين، فالاستسلام يكون عند الهزيمة، والإسلام يكون عند الإيمان، ومعنى ذلك أن كتاب سليمان إنما كان وحيًا ولم يكن من عندياته ولكن من عند الله الرحمن الرحيم.

لذلك فإن وافقنا جدلاً على أن النبي كان يبدأ رسائله للملوك بآية «بسم الله الرحمن الرحيم» فإنه لم يكن يكتبها إلا بحكم وظيفته النبوية، فسيدنا محمد حصل على تصريح خاص، أو إذن حصري من الله سبحانه بالدعوة إلى الله، ودليل ذلك قول الله سبحانه وتعالى لسيدنا محمد في سورة الأحزاب في الآيتين ٤٥، ٤٦: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا»، هذا هو الإذن، داعيًا إلى الله بإذن الله، مهمته كنبي هي الدعوة إلى الله، ومن أجل تحقيق هذه الدعوة كان يجب أن يرسل رسائل دعوية للملوك، رسائل وليس جيوشًا، ولا سيوفًا، ولا خيلاً تحمل فرسانًا مدججين بالسلاح، إنما هي الدعوة لله فقط، ورغم أن هناك جدلاً ثار منذ زمن ولا يزال يثور إلى الآن حول صكوك هذه الرسائل، وهل الصكوك التي بين أيدينا هي الرسائل النبوية ذاتها؟ خاصة وأنه لا يوجد سند تأريخي ولا تحقيق علمي يوثق انتقال مثلاً رسالة النبي للمقوقس

من قصر المقوقس إلى فلان ثم فلان إلى أن وصلت إلى راهب مجهول الاسم في دير أخميم إلى أن عثر عليها مستشرق فرنسي فباعها للخليفة العثماني ببضعة دنانير ذهبية.

وكذلك رسالة النبي إلى هرقل عظيم الروم والمحفوظة في متحف مسجد الحسين بالأردن، وكذلك كل صكوك الرسائل على فرض صحة الصك نفسه، كيف وصلت وظلت محفوظةً إلى أن تم العثور عليها في القرن التاسع عشر، لا يوجد أي تحقيق علمي بخصوص هذه الصكوك، ولم يتم استخدام الوسائل العلمية الحديثة لمعرفة تاريخها الحقيقي، هي محفوظة فقط في فترينات زجاجية ولم يتم إخضاعها للبحث العلمي، وحتى رسالة النبي إلى كسرى، يقول كُتَّاب السيرة إن كسرى مزقها وألقاها، ثم إذا بالصك الذي تمزق التحم وتماسك.

ومع ذلك كما قلت فإنني مؤمن أشد الإيمان بأن النبي أرسل هذه الرسائل التي وصل إلينا خبرها، ولا يعني أنني أنكر صحة صكوك الرسائل الموجودة في المتاحف أنني أنكر وقائع هذه الرسائل، فكل ما يمكنني قوله هو أن صكوك هذه الرسائل منتحلة ومصطنعة في عصور متأخرة عن العصر النبوي لتطابق القصص التي رويت عنها، والأخبار التي جاءت إليهم بخصوصها، أما يقيني بأن النبي أرسل للملوك يدعوهم لعبادة الله الواحد الأحد فذلك حق، إذ أن تلك هي رسالته، وتلك هي وظيفته النبوية مصداقًا لقوله تعالى: «وداعيًا إلى الله بإذنه».

ولنا أن نتخيل لو دار حوار بين النجاشي وقومه، أو بين هرقل وحاشيته، أو بين المقوقس وبلاط حكمه، بعد أن وصلت إليهم الرسائل النبوية وهي مفتتحة بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» سيقول الواحد منهم: لقد وصلني خطاب من محمد بن عبد الله العربي المكي القرشي، وإنه «بسم الله الرحمن الرحيم» وأنه يطلب مني الإسلام... إسلم تسلم.. كما قالت بلقيس لقومها عن خطاب سليمان « ألا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين».

ومن هنا سنفهم أن رسائل النبي للملوك إنما كانت بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» ـ على صحة بدايتها بالبسملة جدلاً وليس تسليمًا ـ لا تكون إلا تنفيذًا لوظيفته النبوية، ولأنه داعٍ إلى الله، وأن الله أعطاه الإذن بالدعوة.

ولنا أن ننظر إلى خُطب النبي التي وصلت إلينا، والتي ثبت بعضها على وجه اليقين مثل خطبة الوداع، هل بدأها النبي بالبسملة؟ لم يرو لنا رواة الأحاديث هذه البسملة في خطبة الوداع وفي كل خطب النبي، فخطبة النبي في حجة الوداع بدأها بـ «الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له»، وكل رواة الحديث قالوا «حمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ»، لم يقل أحدٌ منهم إنه بسمل أو قال بسم الله الرحمن الرحيم، وكل خطب النبي الأخرى التي رواها رواة الأحاديث ليس فيها بسملة ولكنها بدأت بحمد الله، ولو كانت البسملة تقال من باب التبرك، أو الاستعانة بالله، أو أن هناك أي وجه لقولها أو كتابتها لكان النبي أولى بها، وما كان له أن يتركها، ولكنه حقق مقصود ذكر الله في خطبه بأن بدأها بحمد الله، وحمد الله فيه ذكر لاسم الله، وحمد له، من أجل هذا يبدأ خطباء المساجد خطبهم دائمًا بحمد الله، ولا يبدأ أحدهم أبدًا بالبسملة. إنما البسملة هي أمر خاص للنبي وحده، على فرض أنه كتبها في رسائله للملوك، أما باقي المسلمين فكل عملهم إنما يُنسب لهم لا إلى الله، ولا يملك أحد التوقيع باسم الله رب العالمين، ويالها من أعجوبة من الأعاجيب عندما يشيع بين علماء الحديث والفقهاء والوعاظ قولهم بأنه هناك من يملك التوقيع باسم الله رب العالمين، فيرد ذلك في كتاب إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم الجوزية، ويضع فقهاء الدين شروطًا لذلك الذي يملك الحق في التوقيع عن رب العالمين، فيتحول الواحد من هؤلاء من متحدث باسم نفسه إلى متحدث باسم الله ونائبٍ عن الرسول، وله الحق في التشريع الديني! ويستدلون على ذلك بقول الشاطبي «إن المفتي . قائم مقام النبي . صلى الله عليه وسلم . فهو خليفته ووارثه وهو نائب عنه في تبليغ الأحكام، وتعليم الأنام، وإنذارهم بها لعلهم يحذرون، وهو إلى جوار تبليغه في المنقول عن صاحب الشريعة، قائم مقامه في إنشاء الأحكام في المستنبط منها بحسب نظره واجتهاده فهو من هذا الوجه شارع، واجب اتباعه، والعمل وفق ما قاله».

نسي هؤلاء أنه لا يجوز لأحد أن يدعي أنه يوقع باسم الله رب العالمين، ونسي هؤلاء أن النبي بنفسه قال في حديث يعرفونه أورده الإمام مسلم عن بُريدة أن رَسُول الله قَال "وَإِن حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزل على حكم الله فَلَا تنزلهم على حكم الله وَلَكِن أنزلهم على حكمك فَإِنَّك لَا تَدْرِي أتصيب حكم الله فيهم أم لَا.»

حكمك أنت أيها المسلم مهما كان قدرك، حكمك أنت، فأنت لا تملك التوقيع باسم الله، ولكنك فقط تملك حكم البشر ولو كانوا علماء مجتهدين، ولو كانوا صحابة فإنهم لا يحكمون بقدسية الله، فإذا حكمنا باسم الله فإننا قد نقع في تشويه الدين حين نلصق به اجتهاداتنا التي قد تتغير وقد يثبت عدم صلاحيتها لزمان أو مكان ما، بل قد يثبت خطأها من الأصل ومجافاتها للإسلام الذي ننطقها بلسانه أو نفعلها باسمه، فها هو النبي يوجه أحد الصحابة وممن تتلمذوا على يديه وتحت عينيه أن ينزع القداسة عن فهمه.

ولكن على يد الموقعين باسم الله تحول الدين إلى كهانة، وكهنة وأحبار يُحلون ويُحرِّمون «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ»، وفي مقدمة كتاب إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم تجده يقول: «إذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا ينكر فضله، ولا يجهل قدره، وهو من أعلى المراتب السنيات، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسماوات؟»

ولكي تعرف خطورة التوقيع باسم الله والقطع بأن رأي الفقيه هو مُراد الله، لكي تعرف هذه الخطورة على دين الله لك أن تعرف خبر الشيخ أحمد عبد الحق السنباطي؟! أظن معظمكم لم يسمع عنه، ولكنك ستعرف معي أنه كان إمام المذهب الشافعي في مصر منذ خمسة قرون، وقد كان يُشار إليه بأنه أعلم أهل الأرض بالإسلام، وله الحق في التوقيع باسم الله!!.

وذات يوم قام ابن عبد الحق بتحريم القهوة!! لا تتعجب فكثير منا عرف خبر هذا التحريم ولكننا لم نعرف القصة كاملة وأنا معكم لأروي لكم حكاية هذا التحريم، الذي شاع بين الناس وكأنه أمرٌ نهائي من الله سبحانه، أما الذي وقع باسم الله فهو الشيخ!! وفي البداية أظنك ستتساءل معي، لماذا تشدد هذا الشيخ الكبير صاحب الصيت والذي كان المصريون يعتبرونه خطًا أحمرَ حينما أصدر غددًا من الفتاوى المتطرفة، ثم من بعد فتوى تحريم القهوة؟ وما هي أدواته العقلية التي استخدمها وقتئذ؟ لاحظوا أنه عندما كان يحرم كان البعض يسأل ما هو النص؟ فكان الناس من اتباعه يقولون:

إن سألت النص أين؟ إن عبد الحق أفتى!! النص هنا هو الرجل نفسه، هو عبد الحق.

ولكن قبل أن أجيب على هذا السؤال وأروي لكم الحكاية هل تسمحون لي بأن أوجه إليكم سؤالاً؟ هل الإسلام دينٌ معقد لا نستطيع فهمه دون وسطاء؟ هل أنزل الله هذا الدين على الخاصة وعليهم أن يفقهوه ثم يقوموا بتعليمه للعوام، وليس للعوام إلا أن يصدقوا ما قاله لهم أسيادهم العلماء؟ وإذا كان الأمر كذلك وكان أهل قرية يعيشون بعيدًا عن العمران وكانوا من العوام وليس معهم إلا القرآن الكريم ولم يستطع أحد منهم أن يقوم بتحصيل ما يطلقون عليه العلوم الشرعية، أو السفر إلى البلاد البعيدة ليتلقى هذا العلم، فهل يصح إسلامهم؟ ثم ما هي تلك السلطة التي يمتلكها أولئك الذين ليست لهم تسمية تناسبهم إلا «رجل الدين»؟ عندما يلقى رجل الدين هذا قبولاً من الناس ويرتفع ذكره بين الناس ينال مصداقية بحيث إذا قال صدَّق الناس وأقسموا أن هذا الرجل هو من رجال الله، فإذا قال لهم إن جبريل ملك الوحي يجلس معهم الآن صدقوه وكبَّروا، أليس هو من علماء هذا المعهد الديني الكبير ويرتدي عمامته ويطلق لحيته؟ كانت هذه السلطة موجودة في أزمنة قديمة ولا تزال بيننا نشهدها رأي العين، ولا يعلم كثيرٌ من المسلمين أن الإسلام جاء لكي يحررنا من تلك السلطة فأنشأناها وعبدنا الله من خلالها.

ما علينا، كيف فكر العالم الفقيه إمام المذهب الشافعي عالم مصر الكبير أحمد بن عبد الحق بن السنباطي حين حرم القهوة على المسلمين منذ حوالي خمسمائة عام؟ أتعرفون كيف؟ بنفس الطريقة التي أفتى فيها في نفس الزمن بهدم الكنائس والمعابد، وبنفس الحماس الذي كان يقود به العامة من أتباعه لهدمها، وما فعل ذلك إلا اتباعًا لكبار الكبار كابن تيمية وابن حنبل والشافعي وغيرهم.

أول شيء في منهجه في التفكير والاستدلال والاستنباط والقياس أنه وجد ابن منظور في كتابه «معجم لسان العرب» يقول إن القهوة اسم من أسماء الخمر، وسُميت بذلك لأنها تُقهى شاربها عن الطعام أي تذهب بشهوته، وبما أن الخمر هي القهوة، فتكون القهوة هي الخمر.

وثانيًا لأن القهوة تُنبه العقل أي تغير حالته، وطالما أن هذا المشروب غيَّر طبيعة العقل فيكون خمرًا حتى ولو كان التغيير للتنبية واليقظة، فالعبرة عنده في الخمر أن حال العقل يتغير بها، ولذلك أي مشروب يغير حالة العقل فهو مسكر، ومع براعته في اللغة العربية

كواحد من أساطينها وشُرَّاحها إلا أنه لم يلتفت لنفس معجم لسان العرب لابن منظور الذي جاء فيه «السَّكْرَانُ: خلاف الصاحي. والسُّكْرُ: نقيض الصَّحْوِ.». ولم ينتبه لأثر القهوة على شاربها ولم يهتم أن يعرف أثرها وهو يطلق فتواه، ولو اهتم لعرف أن القهوة ضد السُكر. وأكرر أنا لا أحاكم الفتوى ولا صاحبها ولكنني أنظر إلى منهجه في الاستدلال وهو يقول للناس إن هذا هو مُراد الله، لأنه ومثله قيل عنهم إنهم أعلم أهل الأرض، ولا يجوز لنا أن نناقشهم في فتاواهم، وإذا فعلنا فيجب أن ننتبه لأن لحم العلماء مسموم.

أما الأمر الثالث الذي استند عليه فهو أن الناس قد تعودت على أن تشرب القهوة في جماعة فيكون في ذلك مفسدة؛ لأن القهوة تشجعهم على ارتكاب المفاسد وسماع المغنيات والموسيقى، واغتياب الناس، ولأنه وصل إليه أن بيوت القهوة «المقاهي» يُرتكب فيها المنكرات.

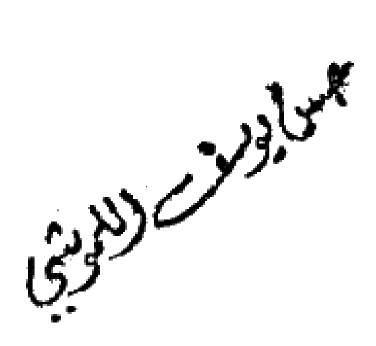
ورابعًا لأنها بدعة لم تكن موجودة في زمن رسول الله، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

ورغم أن السلطان العثماني أصدر تعليماته بإباحة القهوة فإن السنباطي أصر على موقفه، فما كان من الشيخ الحنفي ابن إياس، وهو من علماء مصر ومؤرخيها وصاحب كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» ما كان من هذا المؤرخ إلا أن أحضر في بيته مجموعة من الطلبة ممن يشربون القهوة وجعلهم يغلون «قشرة البن» ثم يشربونها، وأخذ يلاحظهم، هل حدث لهم تغير أم لا، فلم يجد شيئًا غريبًا فأرسل إلى أهل مصر يبطل لهم فتوى السنباطي، ولكن الدنيا هاجت وماجت، ولن أحكي لكم عن الغزوات التي قادها ابن السنباطي لهدم بيوت القهوة وتكسير أوانيها والتي ترتب عليها قتل بعض المصريين الذين كانوا يشربونها.

ومات ابن إياس الذي أباحها، ولكنه لم يكن عالمًا في الدين، فقط كان مؤرخًا ومسلمًا، لذلك لم تترك فتواه بإباحة القهوة أثرًا كبيرًا، وظلت مصر منقسمة إلى من يُحرم القهوة ومن يُحلها، ومر زمن على هذا الحال، ووصل الشغب إلى أعلى درجاته إلى أن أصدر السلطان العثماني قراره بعزل السنباطي من الافتاء، وجاء مفتٍ آخر أباح القهوة فورًا، وهدم بذلك فتوى التحريم، فانطلقت الزغاريد في الطرقات، وأقام تجار البن الاحتفالات، ووزعوا قهوة مسكرة . أي فيها سُكر . على الناس.

والآن انتبهوا لي دقيقة، أنا هنا لا أحاكم الفتوى، ولكني . وسأظل أكررها . أنظر إلى منهج هذا الرجل في التفكير، فهذا أحد العلماء الكبار في عصره، وكان يقال إنه يملك التوقيع باسم الله، أي أنه من فرط اتساع علمه أصبح يعرف مُراد الله من عباده، وكان الناس كبارهم وصغارهم يسمعون له ويعتبرون أن ما يقوله هو الدين، ولو فكر أحدهم في انتقاده فكان يقال له انتبه إن لحم العلماء مسموم، وهذا عالم وأنت لست أهلاً للعلم، ليس لك إلا أن تسمع له وتطيع، فمن أنت أيها النكرة حتى تقول إنه أخطأ، دعوا العلم للعلماء، فلنتركهم يختلفون وليس لنا من الأمر شيئًا، إلا مولانا الشيخ السنباطي، فهو أعظم من فسر القرآن، وكان والده من كبار المفسرين، وبراعة السنباطي في تفهيم العوام دينهم وطريقته في ذلك لم يسبقه أحد فيها، السنباطي خط أحمر..

هذا مجرد مثال صغير وإذا بحثنا وجدنا المئات من الفتاوى التي عدل عنها الفقهاء وقالوا إنها غير صحيحة، سبحانك ربي «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» ولكنه الشيطان، ذلك الذي توعدنا وقال لله وهو يتحدى بني آدم: «لأقعدن لهم صراطك المستقيم»، ويجب أن تلاحظ أنه قال «لأقعدن» ولم يقل: لأجلسن، وكذلك لم يقل: لأقفن لهم صراطك المستقيم، فلا الوقوف يجدي في تحديه ولا الجلوس، ولكن القعود فقط، ولكن ما الفرق بين الجلوس والقعود؟ وما هي أهمية القعود؟ هذه هي لعبة الشيطان حينما خلط بين مفاهيم اللغة ومفاهيم اللسان لكي يبعدنا عن الصراط المستقيم، كيف كان هذا؟ هذا ما سنعرفه في الفصل الثاني فإلى هناك.



«إبليس اللعين ما عبد الله قط، ولكنه عبد نفسه وهو يظن أنه يعبد الله»

محيي الدين بن عربي

عباس بن عبد الرحمن الحربي

الفصل الثاني

من اللسان إلى اللغة: تلك هي خطة التحريف

((نزلت التوراة إلى موسى مكتوبة في الألواح «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ» الأعراف الآية ١٤٥، وحينما غضب موسى من قومه ألقى الألواح التي أنزلها الله عليه «وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ» الأعراف الآية ١٥٠، وبعد أن ذهب منه الغضب تبين له أن بعض الألواح قد أصابها الكسر والعطب، فإذا بنسخة من الألواح تكون ماثلة بين يديه، إما أن يكون قد نسخها هو، وإما أن يكون الله قد أنزل نسختها، والنسخ هو نقل المكتوب من لوح إلى لوح آخر، «وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ « الأعراف ١٥٤.

وكان الإنجيل في معية عيسى يوم مولده، لذلك كان هو رسالة الله لأهل الأرض، كان المسيح هو الإنجيل، الله أنزل على الرسل . عليهم السلام . رسالات هي كتب، أما عن المسيح فقد كان هو بذاته الرسالة، ولذلك كل كلامه وأفعاله هو آيات من الله للناس، لم ينطق إلا بما علمه الله إياه، فالله قال في القرآن «وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ» آل عمران ٤٨، لم يقل هنا أنه أوحى له بالإنجيل، ولكن علّمه الكتاب والحكمة والإنجيل، فالتعليم هنا كان «لدني» من لدن الله إليه مباشرة دون وسيط ولا وحي، ولم يرد في القرآن على الإطلاق أي آية عن أن الله أوحى له بالإنجيل، لأنه هو المسيح عيسى بن مريم الإنجيل.

ثم كان أن تنزل القرآن على سيدنا محمد وحيا «وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» الشعراء ١٩٢.

١٩٥، فكان اللسان المبين هو المدد الذي وهبنا الله إياه حتى لا نختلف في الفهم، ثم يتحول الاختلاف إلى خلاف، ثم يؤدي الخلاف إلى القتل، فاختلفنا وتقاتلنا باسم الله)).

من تحريف إلى منهج التحريف نفسه، كيف كان، وكيف استمر؟ ولنبدأ بسؤال: ماذا لو وقفت خطيبًا وقلت للناس: إن إبليس على صراط الله المستقيم؟! نعم، هذا هو الأمر المؤكد الذي لا يمكن إنكاره، ولا الجدال فيه، بل لا يجوز تفسير هذا القول بأن إبليس كان يقعد على الصراط المستقيم قبل أن يرفض أمر الله بالسجود لآدم، إن إبليس الشيطان قعد على الصراط المستقيم لم يغادره أبدًا حتى وقتنا الراهن، كيف هذا؟!! إنها خطة هذا الداهية، إبليس اللعين، الشيطان الرجيم.

وياله من شيطانٍ داهية، ومع ذلك فإننا نعرف أن كيده كان ضعيفًا، مهما بلغ مكره فإنه لا يَخِيل إلا على من يحملون صفاته الإبليسية، وكما أن ليس له سلطة قهر أو إلزام أو إجبار علينا نحن عباد الله، إذ أنه فقط يقوم بالدعوة إلى طريقه، فيتبعه الغاوون، فإنه صاحب ابتكارات في إضلال الناس، بل إنه أنت صاحب كل أفكار الضلال والإضلال من بدايتها إلى منتهاها، لذلك كانت خطته لإفساد عباد الله تبدو في منطقها الأصلي سهلة ويسيرة، إذ أنها تقوم على التحريك!! نعم مجرد تحريك شيء ووضعه مكان شيء آخر، ثم سيقوم عباد الله بعد ذلك بتنفيذ باقي خطته وهو ينظر إليهم ساخرًا.

****

ما برع الشيطان في العبث بعقول الناس، وتغييب فهمهم للدين إلا بتحريفه للكلم، والتحريف يعني أن يوحي لنا عن طريق شياطين الإنس والجن بأن ننتقل في فهم القرآن من منطقة «اللسان» إلى منطقة «اللغة»، يالها من خطة شديدة الدهاء، لعب بها إبليس صاحب وحي التحريف بمعارفنا البشرية، إذ وضع معاني خاطئة لكثير من كلمات القرآن الكريم مكان معانٍ صحيحة عن طريق الإيحاء بالترادف، وقد وقعنا في فخ الشيطان لأن العرب أصحاب عقلية ترادفية، أما اللسان فليس فيه مترادفات، إذ أن الكلمات العربية فيها وفرة، بحيث يمتلك العرب عددًا كبيرًا من الكلمات العربية تصل إلى إثنى عشر مليون كلمة، منها الكلمات المستعملة والمهملة والمهجورة، هذه الوفرة لا يوجد مثيلٌ لها في أي لسان

أو لغة من ألسنة الأمم الأخرى ولغاتها!! ولأن الكلمات كثيرة جدًا لذلك فإن اللسان العربي، أو بالأحرى اللسان القرآني، يقوم بتوظيف كل كلمة في موضعها الذي يناسبها، أما اللغة فلا تعرف تلك الدقة الوظيفية للكلمات ولكنها تجعل لكل كلمة مترادفات تؤدي نفس المعنى، فالكلمات في اللغة هي ذاتها نفس الكلمات في اللسان، لكن التوظيف مختلف، ومن هنا نستطيع التفرقة من حيث الاستخدام بين الكلام اللغوي والكلام اللساني.

فعلى سبيل المثال عندما نقول: «إن فلانًا صَبَّ الماء» سيكون هذا مطابقًا في المعنى عند اللغويين إن قلنا: «إن فلانا سكب الماء» إذ أن كلمة «سَكْبْ» عند أهل الترادف هي مرادف لكلمة «صَبْ»، ولكن الأمر في اللسان القرآني على غير ذلك تمامًا، ففي اللسان القرآني تكون لكل كلمة منهما وظيفتها الخاصة بها، تقوم بها دون غيرها، ويمكن أن تقوم الكلمة في اللسان القرآني في بعض الأحيان بأكثر من وظيفة، ولنا أن نعود لمثال الصب والسكب لنعرف من القرآن أن كلمة صب تعني شدة الاندفاع والقوة، فعل الصب الذي يدل هذا المعنى قول الله سبحانه وتعالى في سورة عبس «أنّا صببنا الماء صبا» **عبس ٢٥**، ومنها قوله سبحانه وتعالى في سورة الفجر «فصب عليهم ربك سوط عذاب» **الآية ١٣**.. أما السكب فيدل على نزول السائل برفق وهدوء وتتابع مثل قوله سبحانه وتعالى في سورة الواقعة «وظل ممدود * وماء مسكوب» **الآية ٣١**.

وفي اللسان القرآني نجد أن الجسم غير الجسد، فالجسم يطلق على ما يكون فيه روح وحركة، فالله سبحانه يقول:«وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ» **المنافقون: ٤**، وقوله تعالى عن طالوت الذي بعثه في بني إسرائيل ملكًا «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ» **البقرة ٢٤٧** .

أما الجسد فيستعمل لما ليس فيه روح أو حياة استنادًا لقول الله «وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا». **الأعراف ١٤٨**، فقد كان هذا العجل الجسد مجرد تمثال من التماثيل، ليس فيه روح، أما عند أهل الترادف فإن الجسد مرادف للجسم، فيمكن أن تُستخدم كلمة الجسم أو كلمة الجسد للدلالة على هيئة الإنسان أو الحيوان، سواء كان حيًّا مثل الخلائق المرئية والتي تسعى بيننا، أو ليس فيه حياة.

وفي اللسان القرآني أيضًا يمكن أن تُعبِّر كلمة واحدة عن أكثر من معنى، فمثلاً كلمة «زوج» وردت في اللسان القرآني على ثلاثة معانٍ: إما على معنى زوجة الرجل، ومنها على سبيل المثال قول الله تعالى «وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا» **النساء الآية ٢٠**، وجاءت أيضًا على معنى النظير المماثل له، وعلى سبيل المثال قول الله «احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ» **الصافات الآية ٢٢**، ثم جاءت على معنى الصنف أو النوع، ومنها على سبيل المثال قول الله « سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ» **سورة يس الآية٣٦**.

والسياق العام للآيات هو الذي يحدد أي المعاني الثلاثة هو المراد.

وعلى هذا النحو من الممكن أن نسير معًا لنجد أن كل كلمة في القرآن لها وظيفتها الخاصة بها، تُعبِّر عن معناها ولا يمكن أن يتم استخدام كلمة أخرى لتدل على ذات المعنى، ولكن بما أن هذا المبحث ليس مبحثًا لسانيًا أو لغويًا فلذلك لن نستفيض فيه، إذ أنني ما أوردت ما سلف إلا لكي أضرب المثل فقط على توظيف القرآن للكلمات، ولأن القرآن ليس فيه مترادفات لذلك يجب أن نستعين بالقرآن نفسه لنعرف طبيعة استخدامه للكلمات.

****

من هنا سنعرف أن التحريف هو التحريك، فنقول إن فلانًا انحرف عن الطريق أي تحرك إلى طريق آخر، فالشخص هو هو، ولكنه تحرك إلى مكان مختلف، لذلك ففي تحريف الكلمة، تكون الكلمة هي هي، ولكنها تحركت إلى معنى آخر، في حين أنك لو نظرت لقواميس اللغة ستجدها تضع معنى لتحريف الكلم فتقول إنه: «تغيير للكلم» مع أن التغيير هو التبديل، أما التحريك فلا يعني إلا التحريك، ولا يمكن أن يكون التحريف هو تغيير الكلمة، ولكن تغيير المعنى فقط.

ولأنه لا مبدل لكلمات الله، وستظل كلمات الله التي في كتبه باقية ما دامت السماوات والأرض، وسيظل عجز الشيطان عن تبديل الكلم وتغييره قائمًا، لذلك فإن خطته قامت على التحريف الذي ينصرف إلى المعاني لا إلى جسم الكلمة نفسها، إذ تظل الكلمة في موضعها ويتحرك معناها إلى معنى بعيد باستخدام ما يسمى بالمرادف.

ويا للأسف الذي ليس له منتهى في حياتنا، نقرأ كل يوم من كتاب الله قوله «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.» **البقرة الآية ٧٩**، ثم يُلقي أحد الذين يطلقون على أنفسهم لقب «علماء الدين» في وجوهنا رأيه الشخصي، وفهمه هو لأمر من أمور العقيدة، أو لشعيرة من الشعائر، ثم يقول لنا: إن هذا هو مراد الله، ورحم الله كل من قال: هذا رأيي أنا، وهذا هو ما فهمته، ولا أزعم أنني وقفت على مراد الله.

****

وكم كانت مهمة الشيطان سهلة، وخضوعنا له مؤسفًا، أما هو فقد كان عليه أن يُبعد الناس عن صراط الله المستقيم، ومن حيث الظاهر تبدو هذه المهمة شاقة وعسيرة، ولكنه وهو صاحب الدهاء النرجسي جعل العسير يسيرًا، فماذا فعل؟ ما كان منه في البداية إلا أن توعدنا أن يقعد لنا على الصراط المستقيم، ويبدو أنه أعد خطته حينما توعدنا، فقد عرف كيف ستكون سيرة الإنسان في الحياة الدنيا، وأدرك من واقع خبرته مع آدم أن النسيان من طبيعة خلق الإنسان، وأنه ليس صاحب عزيمة وإرادة، ألم يقل الله تعالى في سورة طه «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» **الآية ١١٥**، كان الشيطان يعرف هذا بعد أن أغوى آدم، وآدم أصله من أديم الأرض الذي يمكن تشكيله، ومن يسهل تشكيله تسهل غوايته، «وعصى آدم ربه فغوى» **طه ١٢١**، لذلك فإن البند الأول من بنود الخطة الشيطانية سيقوم على العبث بإرادة الإنسان والتأثير عليها ليجره جرًا إلى عالم الغواية والفساد والضلال، ولأنه كان يعلم أن الله لن يترك الإنسان لقمة سائغة في فم الشيطان يلوكها بين شدقيه متلذذًا ساخرًا، بل سيرسل الله له رسلاً تنقذه من كيد الشيطان لتعود له ذاكرته الإيمانية المغروسة في ضميره، فماذا سيفعل إبليس حينها؟، نعرف أنه لن يعدم حيلة، فقد وجد أن قعوده على الصراط المستقيم هو الحل، ويا لهول ما نقول: أإبليس على الصراط المستقيم؟! ولكنها خطته، سيتربع الشيطان ويقعد قعدة المستريح على هذا الصراط، ولنا أن نتعجب من دقته وفهمه للسان المبين؟! يظهر لنا هذا الفهم جليًا حينما أقسم أن يقعد. لا أن يجلس. على الصراط المستقيم، والقعود غير الجلوس، فالقعود في اللسان المبين يعني المكوث المستمر بلا حركة ولا تحريك في نفس المكان، أما الجلوس فيعني المكوث لفترة ما في المكان ثم مغادرته، ألا نقول في أمور حياتنا: مجلس الحكم؟ ومجلس الحكم يتغير رجاله، ونقول مجلس القضاء الأعلى، وجلسة المحكمة؟

والقاضي فيها يجلس للحكم بين الناس ثم ينصرف إلى حال سبيله، والمدرس عندما يدخل إلى الفصل فيقوم التلاميذ احترامًا له، فيقول لهم: جلوس ولا يقول قعود، والنائم إن أردنا منه القيام من نومه نقول له:

اقعد ولا نقول له اجلس، أما الواقف فنقول له إجلس ولا نقول له اقعد، ولك على سبيل التدقيق أن تقرأ معي من سورة البقرة قول الله «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا» **الآية ١٢٧**، وقواعد البيت هنا تعني قواعد البناء التي تظل ثابتة في مكانها ما بقي البناء، وقد تعني أيضًا الأصنام التي ظلت قاعدة في البيت الحرام زمنًا طويلاً لا يحركها الناس من مكانها على ظن قدسيتها، والدليل على ذلك أن الله سبحانه طلب منهم رفعها من البيت، منه، لا فيه، ومنه تعني إخراجها، وعندما طلب الله منهما رفع القواعد من البيت طلب منهما قبلها شيئًا آخرَ، وهو تطهير البيت الحرام حتى يكون صالحًا لعبادة الله وحده، «وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» كان هذا الطلب في الآية ١٢٥ من سورة البقرة، ولكن كيف يتم تطهير البيت الحرام الذي كان قائمًا بالفعل؟ هل معنى التطهير هنا هو التطهير المادي عن طريق استخدام الوسائل المادية لتنظيف المكان؟! هذا هو بيت الله الحرام، هذا هو المكان الذي طلب الله من الناس أن يحجوا إليه، ويطوفوا به، وسيكون فيه الركوع والسجود لله، لذلك فإن التطهير هنا هو رفع القواعد من البيت، وليس في البيت، والمعنى الواضح هو رفع القواعد التي فيه، وليس التي منه، القواعد المطلوب رفعها من البيت هي الأصنام التي ظلت زمنًا لا تغادره.

والقواعد أيضًا جاءت في القرآن عن النساء اللائي أقعدهن المرض فأصبحن غير قادرات على الحركة، مثل قول الله في سورة النور «وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ» **الآية ٦٠**.

القاعد إذن هو الذي يمكث زمنًا طويلاً لا يغادر المكان، لذلك كان هذا هو ما توعدنا به الشيطان، «لأقعدن» هذا القاعد على الصراط لديه مهمة عهد على نفسه أن ينجزها، هي إفشاء الضلال والفساد والفاحشة والقتل وسفك الدماء والسرقة والزنا، ولكنه قرر أن يفعل ذلك تحت عنوان كبير يصدم الأعين ويغشى القلوب هو: «هذا هو الدين» أو «هذا

هو مراد الله من خلقه»، وبذلك يبتعد الناس عن صراط الله المستقيم، ولكن ألست تتفق معي على أن هذه المفاسد وهذا الضلال يبتعد عن صحيح الدين بعد المشرق والمغرب؟ لا أظن أن هناك خلافًا على هذا، فهذا من ناحية ودين الله في ناحية أخرى تمامًا، ولكن هذا الماكر الألعبان له العديد من الحِيَل، ومن حيله كانت حيلته الأعلى وهي تحريف الكلم عن مواضعه، أو عن بعض مواضعه، مهمته التي نذر عمره كله لها هي أن يخاتل الإنسان لكي يفهم الناس رسالات الله خطأً، ففي خطته يجب أن يفهم الناس دين الله على وجه يختلف عن وجهه الأصلي.

ولكي يفشل الشيطان في مهمته كان أن أنزل الله الكتب على رسله «بلسان مبين» واضح الدلالة، مفهوم في إشاراته، ليس فيه لبس ولا غموض، ولم يرسل الله رسولاً إلى قومه إلا وكانت رسالته بلسانهم الواضح المبين، فماذا فعل إبليس لكي يرد على هذا اللسان المبين؟ لم يكن أمامه إلا الاستعانة بالمترادفات التي أفضنا في شرحها لكي تجعل الفهم مختلفًا ومضطربًا ومرتبكًا، ومن هذا الفهم المختلف ستتغير عقائد، وسيعبد الناسُ ناسًا مثلهم بزعم أن هذا هو ما ورد في الكتب السماوية، وسيحارب ناسٌ ناسًا ويسفكون دماءهم ويسرقون أموالهم بزعم أن هذا هو ما طلبه الله في كتبه السماوية، وسيقوم ناسُ بغزو بلاد ناس على ظن من أن هذا الغزو هو لنشر دين الله ونقل رسالته للناس، وأنه هو الفتح المبين الذي قال الله عنه «إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا» وأن السيف أصدق أنباءً في تبليغ الرسالات من الكُتبِ، وستكون عبادة الناس لله عن طريق التلفظ بكلمات يدخلون بها الجنة، فيكفي أن تقول كذا وكذا في اليوم مائة مرة أو حتى ألف مرة ليبني الله لك قصرًا في الجنة لأنك قلت، لا لأنك قمت بالعمل الصالح، وستكون الصلاة على النبي صياغة لغوية يتعبد بها الناس لله، وليست طريقة عملية تتمثل في اتباع رسالته ومخالقة الناس بخلق حسن وعدم الاعتداء والتواد والتراحم ووو، وسيتم إلغاء آيات الرحمة من الرسالة الإلهية بزعم أن الله نسخها ووضع مكانها آيات تحض على استخدام السيف والقتال والعدول عن الرحمة، وسيطلقون على هذا الإلغاء «نسخ» ليكون في الدين من خلالها معانٍ مختلفة للنسخ تخالف المعنى الحقيقي، ومعانٍ مختلفة للآيات تخالف المعنى الحقيقي، سيلعب الشيطان بعقول الناس عن طريق تحريف معاني الكلمات، وسيوحي هذا القاعد

على الصراط المستقيم للناس زخرف القول غرورًا «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا» **الأنعام الآية ١١٢**.

وبهذه الزخرفة اللغوية يبتعد بهم عن اللسان الوظيفي، ثم يذهب بهم إلى معنى ما يبتعد به عن المعنى الواضح القريب الذي يشير إليه اللسان، والزخرف هو الزينة ولكنها لا تكون من أصل الشيء إنما هي مضافة إليه، هي أشياء نضعها على الملابس فنزينها، أو على الوجه فنزينه، أو على واجهة البيت فنزينها، وهكذا، ولكننا لا يمكن أن نقول على الزينة التي تزين واجهة البيت إنها البيت نفسه، إذ هي مجرد مرادف مضاف لواجهة البيت ومضاف إليها، وإذا حذفت حرف الفاء من «زخرف» ستصبح الكلمة «زخر» والزخر هو الشيء الممتلئ الكثير، ونحن نقول لمن له الفضل علينا: جعلك الله زخرًا لنا، أي تضيف لنا دائمًا من العطاء والجود.

الشيطان إذن يوحي لمن يخضع لتأثيره زخرف القول، هذا صحيح، ولكنه يفعل ذلك غرورًا، والغرور يبدأ بحرف الغين، وحرف الغين من حروف التغييب، إذ هو يستخدم في الكلمات التي تدل على الغياب، فنقول لمن لا يفهم إنه: «غبي» أي غاب عقله، والغابة لا تكون غابة إلا لأن أشجارها تُغيّب ما بداخلها، والغيب هو الذي يغيب عنا، ويقول الله تعالى «لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ» والغواش جمع غاشية وهي الغطاء، وقد تكون هذه الغاشية من نار أو من دخان، وفي القرآن سورة الغاشية، والغاشية اسم من أسماء يوم القيامة لأنه يغشى الناس جميعًا، ويقول الله «والليل إذا يغشى»، يقسم الله بالليل عندما يغمر الدنيا ويخفي المشاهد عن الناس.

وقد قال الله عن الشيطان «وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ « **سورة الحديد الآية ١٤**، وما أمسى الشيطان غَرورًا إلا لأنه يغر الناس أي يغيب عقولهم.

وبزخرف القول كان وحيه لبعضهم، والزخرف لا يكون في اللسان المبين، أما اللغة فليست مبينة، إذ هي ما يرد فيها الاختلاف والتباين والمترادفات، لذلك لم يقل الله إنه أنزل القرآن بلغة عربية، ولكنه قال «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ*عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ» **الشعراء الآيات أرقام: ١٩٣،١٩٤،١٩٥**، وكل رسول أرسله الله لقومه

بلسانهم، يكلمهم ويدعوهم ويبلغهم رسالة الله رب العالمين بلسانهم لا بلغتهم، لذلك قال الله تعالى «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» **الآية ١٤ سورة إبراهيم.**

لماذا باللسان؟ لأنه هو المتفق عليه بينهم، ولا يوجد اختلاف عليه، وليس لكلماته مترادفات، فكل كلمة لها وظيفتها الخاصة بها لا تقوم بها غيرها، أما اللغة فهي لغو وهي مختلف في فهمها، وهي لن تبين لهم، إذ هي بمثابة اللهجات في عصرنا الحديث، هذا اللغو لا وجود له في الجنة «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إلا قيلا سلاما سلاما» **الواقعة الآية ٢٥ والآية ٢٦**، وأيضًا «لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا» **النبأ الآية ٣٥.** سيسمعون فيها الكلام الصحيح الواضح «سلامًا سلامًا» ولن يسمعوا فيها قولاً كِذَّابًا لا يدل على المعاني الصادقة، ومن خلال تلك الطريقة الترادفية استطاع الشيطان أن يوحي لشياطين الإنس تحريف معاني الكتب السماوية، ألم يقل الله تعالى « مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ» **النساء الآية ٤٦.** وقال «أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ « **البقرة الآية ٧٥.**

****

وللتقريب سنجد أن الهيروغليفية تحمل نفس المعنى، الهيروغليفية لسان، فلا توجد فيها مترادفات، وكلماتها تدلف إلى المعنى مباشرة بواسطة رسم حقيقة الشيء، فكلمة وجه تُرسم وجه إنسان، وكلمة قدم تُرسم قدمًا، وهكذا، فهي لغة الوصف المباشر، ويمكن أن نفرق بين الهيروغليفية والديموطيقية وهما مصريتان، وكان المصريون يتحدثون بهما، فالهيروغليفية هي اللسان الذي لا يمكن تبديله لارتباطه بثابت هو الرسم الذي يعبر عن الكلمة، والديموطيقية هي اللغة، فهى وسيلة التخاطب المتغيرة حسب قائلها لاستخدامها المرادفات.

****

اللسان إذن هو الذي سيُبيِّن للناس «ليبين لهم»، أما اللغة فلن تبين لهم على نحو دقيق، بل يمكن أن ينصرف ذهن المستمع لعبارة لغوية إلى أكثر من معنى، أما اللسان فهو يدل على معنى واحد وليس معانٍ متعددة، لذلك فهو الذي يبين بشكل حصري، وإلا لقال

الله تعالى: بلغة قومه ليبين لهم، وعلى عكس ما ينبغي أن يكون عندما بدأ العرب في فهم القرآن كان فهمهم مرتبطًا بلغاتهم، ولغات قبائلهم لا بلسان العرب المتفق عليه، فحدث الاختلاف في الفهم، وحدث تحريف للكلم عن بعض مواضعه، فبدلاً من أن نفهم الكلمة عن طريق معرفة لسانها الحصري، فهمناها عن طريق أحد أوجه لغتها، الذي هو متعدد الأوجه، ومن تحريف الكلم حدث تحريفُ الدين وإبعاده عن مراميه، ولا أخالني مبالغًا إذا قلت إن من يقول إن القرآن نزل بلغة العرب إنما يسيء إلى القرآن إساءة كبيرة، نعم، نحن أيها الناس نتكلم حاليًا باللغة العربية وما طرأ عليها من تطور وتغير، ولكننا لا نتكلم باللسان العربي، إذ النص الوحيد المحفوظ باللسان العربي هو القرآن الكريم وحده دون غيره، وقد احتوى القرآن على قاموس خاص بلسانه العربي بحيث إننا نستطيع فهم النص عن طريق النص نفسه لا من خارجه، وعن طريق قاموسه اللساني لا قواميس العرب.

****

وفي ذلك العالم القديم، قبل أن تستوي الحضارة الإنسانية على سوقها وتنهض معبرة عن نفسها - إذ كان الإنسان بعد يحمل حضارته على ظهره ويسير إلى الأمام ببطء - كان هناك لسانٌ يوحد معظم أهالي وسكان المناطق الكبرى في العالم، كان هو اللسان الذي بدأ به آدم حياته في دنيانا، وهذا شيء منطقي، فالأصل واحد، ولكن كان هناك لكل قطعة من قطع هذه المناطق العمرانية التي عمرها الإنسان، أو ولاياتها المتقاربة لغة خاصة بهم، ولكن الكل كان على لسانٍ واحد يوحدهم في الفهم والتجارة والتعامل، فالأمد الذي بينهم وبين آدم كان قريبًا، واللسان الذي تعلمه آدم من الله رب العالمين كان لا يزال يوحد أبناءه وأحفاده ومن جاء بعدهم في التفاهم، كما أن الألسنة التي اشتقت من اللسان الذي تكلم به آدم كانت ما تزال قليلة وقريبة من اللسان الأول، وغني عن الذكر أنه لم يكن لسان فصاحة وبلاغة وتشبيهات واستعارات وكنايات وتصاوير وأخيلة، ولكنه كان لسانًا وظيفيًا، يتكلم به الإنسان ليتواصل مع الآخرين بشكل مباشر يُعبِّر به عن مقصده دون تورية أو غموض، فلم تكن قدرة الإنسان على الاشتقاق اللغوي قد ظهرت بعد، وعندما ظهرت حاجة الإنسان إلى التعبير بشكل أكثر اتساعًا عن مقاصده وأخيلته وحاجاته أخذ في الاشتقاق من اللسان الأول، ومن جملة الاشتقاقات ظهرت اللغات، ولكن هذا لا يعني أن اللسان الأول ظل على

حاله لا يتطور، بل إن اللسان مثله كالإنسان، كلما تطور الإنسان تطور اللسان، ولكنه ظل على حاله الأول بالنسبة للتوظيف، فكل كلمة يتم توظيفها بشكل خاص لتعبر عن حالات الإنسان وسلوكياته وأفكاره.

****

ولكي نبدأ في طريق فهم تلك القضية المهمة سنتوقف قليلاً لنتدبر معًا بعض الآيات، منها مثلاً أن سيدنا موسى عندما فر هاربًا من مصر بعد أن وكز مصريًا فقضى عليه «فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ» **الآية ١٥ من سورة القصص.**

في هذه الآية، وفي هذا الموضع لم يقل الله تعالى إن موسى عندما «وكز» الرجل قتله، ولكنه قال «قضى عليه»، كما أنه لم يقل إنه ضربه ولكن وكزه، فمن أسرار اللسان العربي أنه من فرط اتساعه ليس له مترادفات، فهو يعبر عن كل حالة على حدة، فالوكز غير الصفع غير الركل غير اللطم، فحينما نقول إن فلانًا وكز رجلاً فقضى عليه، فإن هذا يعني أنه ضرب هذا الرجل بيده على صدره أو على جنبه، أو أبعده عن طريق الوكز في الصدر أو الجنب، فطرق الاعتداء البدني في اللسان العربي لها ألفاظها، لكل موضع لفظه، ولكل طريقة كلمتها التي تناسبها، فلطمه تعني ضربه على وجهه، وركله تعني أنه ضربه بقدمه، وقضى عليه لا تعني أنه قتله، ولكنها تعني أنه تغلب عليه وقضى على قدرته على الحركة، ولا تعني أبدًا أنه قتله، وما ذلك إلا لأن القضاء عليه في هذا الموضع تعني السيطرة عليه، ولو كان هذا الرجل مات فورًا من أثر الوكزة لقال الله سبحانه: فوكزه موسى فقتله.

ولكن موت الرجل تأخر، وقد يكون الرجل قد مات لسبب آخر غير وكز موسى له، وقد يكون الإسرائيلي الذي من شيعة موسى قد انقض عليه بعد أن تركه موسى فقتله، إلا أن موسى عرف بالقتل، أو بموت الرجل، في اليوم التالي عندما تقابل مع الذي كان يستغيثه، وحينما وجده موسى يُفسد في الأرض أراد أن يوقفه عن إفساده، حينها ظن هذا الذي من شيعة موسى أن موسى سيقتله فقال «يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ» **الآية ١٩ القصص.**

هذا الفاسد يتهم موسى الآن بأنه هو الذي قتل المصري، والله يعلم من الذي قتله، ولو كان موسى هو القاتل لأخبرنا الله «فقال لنا: فوكزه موسى فقتله، ولكن موسى لم يكن يعلم بخبر موت الرجل، ويبدو أنه احتار في أمر تلك النتيجة التي حدثت، خاصة وأن آية القرآن هنا لا تدل على أن موسى كان طرفًا في الشجار، أو أن موسى تصارع مع الرجل واشتبك معه، وإلا لقال الله:

فوكزه موسى فصرعه، ولكن موسى وقتها لم يكن قد بُعث نبيًا يوحى إليه، لذلك فإنه أخذ الخبر من الرجل الفاسد المفسد وكأنه حقيقة لأنه رأى رأي العين الرجل الموكوز وهو يُطرح على الأرض ويفقد القدرة على الحركة، فظنه مات، لذلك في صباح اليوم التالي «فأصبح خائفًا يترقب» القصص الآية ١٨، كان يترقب ليعرف الأخبار، هل مات الموكوز؟ أم نجى من الموت، ويترقب تعني أنه كان يراقب نتيجة ما فعله بالأمس ليعرف نتيجته، والمراقبة لا تكون إلا لمعرفة الأخبار.

ويالك من غوي مبين أيها الرجل الفاسد، يساعدك موسى وينقذك من الرجل الذي كان يعتدي عليك بالأمس، واليوم تصرخ وتجمع عليه الناس وتقول إنه هو القاتل الذي قتل المصري بالأمس؟! هنا اعتقد موسى أن الموكوز قد مات مقتولاً من أثر وكزته، فما كان منه إلا أن فر هاربًا، خائفًا يترقب، ويترقب هنا تعني أنه كان يتحسس الأخبار ويسأل عن ماذا ستفعل معه سلطة الحكم بعد أن عثروا على الرجل مقتولاً، وعن شهادة الإسرائيلي الغوي الذي اتهم موسى بأنه هو القاتل، أخذ موسى يدعو الله أن ينجيه من القوم الظالمين، فلم يكن في مصر وقتها نظام للعدالة يعطي صاحب كل حق حقه، ولن يستمع له أحد وهو يدافع عن نفسه قائلاً إنه كان في حالة دفاع شرعي عن رجلٍ يتم الاعتداء عليه، وإنه لم يكن يعرف نتيجة وكزته، أو أنه كان يباعد بين الرجلين المشتبكين فدفع أحدهما فوقع مغشيًّا عليه، وإنه لا يمكن أن يقع القتل من تلك الوكزة العادية التي لا تضر إنسانًا ضعيفًا فما بالكم بإنسان قوي يتشاجر ويعتدي على الناس، لن يستمع له أحد، ولن يفهم دفاعه قاضٍ أو حاكم أو صاحب شرطة، وكان موسى سيُعلق بعدها على عودٍ من أعواد المشانق، فقد كان حكم الإعدام قد صدر مسبقًا، ويبدو أن الأحقاد كانت تحيط بموسى في قصر فرعون، وكانت الرغبة في التخلص منه محمومة عند بعض كبار رجال الحكم، فأوعزت إلى فرعون بضرورة التخلص من هذا الذي تربى في القصر منذ أن كان وليدًا، وفي وقت حرج ضيق جاء

ناصحٌ يحب موسى ويخاف عليه، قدَّم له النصيحة: إهرب يا موسى إنهم يريدون قتلك، لا تظن أنه ستكون هناك محاكمة عادلة لك، فالعدل ليس في بلادنا، قرار الإعدام قد صدر مسبقًا قبل المحاكمة «وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ» **القصص الآية ٢٠.**

كان الملأ هنا هم صفوة الحكام الذين يحيطون بفرعون، هم الطبقة العليا في المجتمع، وما أصبحوا ملأً إلا لأنهم يملأون العيون من فرط الوجاهة والثياب المتلألِئة، هؤلاء هم من يملكون إدارة شئون البلاد من تحت يد فرعون، ويحثون الخطى من تحته، يستولون على الأراضي اليانعة على ضفاف الأنهار الجارية في مصر، ويملأون خزائنهم بالدنانير والدراهم والذهب والفضة، ولكن لماذا لم يأتِ خبر تلك المؤامرة على موسى من الوحي؟

لأن الله لم يكن قد بعث موسى بعد، لذلك كانت الأخبار ترد إليه من ناسه وشيعته وأهله، وقتئذ قرر موسى الهرب، هرب وحده ولم يكن معه أحد، اللهم إلا أنه كان يحمل معه زاده الذي يقيم به أوده، إلى أن وصل إلى بلاد العرب، وهناك في شمال غرب الجزيرة العربية، عند تبوك، وبالقرب من الأردن، نزل موسى إلى ماء مدين، أو بئر مدين، ولكي يرتحل موسى من مصر إلى الجزيرة العربية يجب أن يعبر البحر الأحمر، ولأن حركة التجارة كانت قائمة وقتها، وكان المصريون قد عرفوا ركوب البحار من قبل موسى، لذلك كان من المفترض أن يكون موسى قد ركب سفينة أنزلته في المنطقة التي يطلقون عليها حاليًا «ضباء»، ويوجد بها حاليًا ميناء كبير على البحر الأحمر، وضباء من المناطق القريبة من تبوك، وهي حاليًا تتبع محافظة تبوك، تلك التي فيها ماء مدين.

كانت تلك هي الرحلة، من مصر التي تتكلم بلغة مصرية قديمة، إلى تبوك ومدين التي تتكلم العربية، ولم يكن موسى قد غادر مصر من قبل في أي رحلة إلى أي بلد قريب أو بعيد من مصر، بل عاش عمره في قصر الملك، ولم يكن يعرف غير اللغة المصرية القديمة، وحينما حط رحاله في أرض مدين وجد أمة من الناس يسقون من بئر مدين، يشربون وتشرب بعيرهم، ووجد من دون هؤلاء القوم امرأتين، معهما غنم أو ماشية، والغنم تريد أن تذهب لتشرب من البئر وترتوي، ولكن المرأتين كانتا تمسكان لجام ماشيتهما بقوة، وتحبسان غنمهما حتى لا تفلت وتزاحم ماشية الرجال وغنمهم، ولأن موسى لم يكن ابن

هذه البيئة، فقد تربى في مصر بلاد الأنهار، فكان أن سأل المرأتين، لماذا تحبسان غنمكما عن الشرب مع غنم القوم؟، فقالتا: لا نسقي حتى يذهب الرجال، فلا يليق بنا أن نزاحمهم، وأبونا شيخٌ كبير، حبسه الكبر واعتلال الصحة عن أن يسقي لغنمنا.

دار الحوار بينهم، تكلم هو، وتكلمتا، فهم ما قالتاه، وفهما ما قاله، لم يكن معه مترجم، ولم يتكلموا بالإشارة، فبأي لسان دار الحوار بينهم؟ هل بالمصرية القديمة، أم بالعربية؟ أغلب الظن أنهم تكلموا باللسان الواحد الذي كان يجمع تلك المنطقة كلها، كان اللسان الواحد هو اللسان المبين الذي توافق على فهمه العربي، ويعرفه المصري والشامي، أهل هذه المنطقة كانوا على لسان واحد ولغات متفرقة، لذلك فإن منطق الأمور يدل على أن موسى الذي تعلَّم في القصر كان لابد وأن ينال قدرًا من علم اللسان الذي يوحد المنطقة كلها، والذي يستخدم في التجارة والمعاملات المتشابكة، هذا اللسان يقينًا كان يختلف مع المصرية القديمة قليلاً أو كثيرًا، ويختلف مع لغات العرب ولغات الشوام قليلاً أو كثيرًا، وفي الوقت ذاته كان من منطق الأمور أن ابنتي شعيب العربيتين كانتا تتقنان اللسان المبين إذ كانت تذهبان للتجارة بأغنامهما إلى مكة في موسم الحج، وحينما تزوج موسى بإحدى ابنتي شعيب قام هو بهذه المهمة والذهاب للتجارة بالأغنام إلى موسى في موسم الحج «قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ» **القصص الآية ٢٧**، والحجج ليست هي السنوات، وليست هي الأعوام، وليست السنة هي الحول، فالسنة هي فترة الإثنى عشر شهرًا من بداية العام إلى آخره ولكنه يمر على الناس بصعوبة ومشقة مثل قول الله تعالى «تزرعون سبع سنين دأبا» **يوسف الآية ٤٧**، والعام هو من بداية الإثنى عشر شهرًا إلى نهايته ولكنه يمر بخير ويسر مثل قوله تعالى «ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون» **يوسف الآية ٤٩**، أما الحول فهو الفترة من الإثنى عشر شهرًا ولكنها لا تبدأ من أول العام ولكن تبدأ من وقت يحدده الرجل لنفسه، يفعل ذلك في الزكاة مثلاً أو في عقود التجارة أو ما إلى ذلك مثل بداية إرضاع الوليد مثل قول الله «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين» **البقرة الآية ٢٣٣**، أما الحجج فهي الحول من الزمن الذي يمر من موسم الحج إلى موسم الحج الذي يليه، إذ أن الحج وموسمه له اعتباره وقتئذ عند قبائل العرب، إذ أنهم كانوا يمارسون فيه التجارة لفترة تستمر أيامًا، وكانت هذه التجارة تغل لهم أموالاً وبضائع تقيم أودهم إلى الحول القادم، ولذلك كان التعامل يتم بلسان واحد

حتى يفهم كل الذين جاءوا من كل فج عميق من جاءوا من أقطار الأرض، هؤلاء جميعهم كانت اللغة تفرقهم ولكن اللسان كان يجمعهم، هذه هي الطريقة اللسانية الموحدة التي وصلت إلى الاكتمال، ولذلك فإن اللسان هو الذي وحد الفهم لديهم، أما اللغة فهي مثل اللهجات المختلفة حاليًا، تجد أننا في مصر يصعب علينا أحيانًا أن نفهم لهجة أهل المغرب العربي، أو أهل اليمن، فإذا تكلمنا معه بالفصحى فهمنا، فصحى العربية الآن في زمننا هي اللسان الواحد، أما لهجاتنا العربية فهي اللغات.

وكذلك كان العرب، وكان أهل البلاد المجاورة للعرب، ويتعاملون معهم بشكل مستمر، كان لكل قبيلة لهجتها الخاصة بها، أما أعجب ما يقابلنا بصدد ما نكتبه هو زعم البعض أن القرآن نزل بلغة قريش، وأحيانًا يقولون بلهجة قريش، وفي بعض الأحايين يقولون إنه نزل بلغات سبع منها قريش، ترك هؤلاء منذ العصور الأولى للإسلام قول الله «بلسان عربي مبين» وانحاز كلٌ منهم لقبيلته من باب الحمية والعصبية، ثم نسبوا لكل قولٍ من أقوالهم حديثًا، إلا أنه ومن باب اليقين لم يرد في القرآن إلا أنه نزل «بلسان عربي مبين» ولم ترد به أية كلمة تدل على أن اللغة تعني اللسان.

****

حينما ضربنا المثل بهروب موسى عليه السلام إلى مدين، وقطعت بكم السطور والصفحات كما قطع موسى الفيافي في رحلته، لم يكن الغرض هو أن ننقل لكم القصة وما حدث فيها وما جرى من أحداثها، وإن كان لهذه القصة حديث في حينه. ليس وقته الآن. لأنه ليس يقينيًا أن موسى ذهب إلى أرض شعيب النبي[٣]، فالمرجح أنهما لم يتعاصرا، فشعيب موسى هو رجل صالح من نسل إبراهيم عليه السلام، ويقال إنه من أحفاد لوط، أما النبي شعيب فقد كان يعيش في منطقة أخرى، وكان يسبق سيدنا موسى عليهما السلام، وقد ضربت المثل بقصته لنتعرف على اللسان الذي وحّد في الفهم موسى بابنتي شعيب، فاللسان هو الذي «يُبيِّن» لا اللغة.

---

٣ المستقر عليه عند معظم الفقهاء هو أن شعيب موسى ليس هو شعيب النبي لأن الفترة الزمنية بينهما بعيدة، ومن الذين قالوا ذلك الصحابي الجليل عبد الله بن عباس.

وإذا كان موسى استطاع باللسان التفاهم مع ابنتي شعيب فإن ذا القرنين وجد مشقة في فهم القوم الذين يعيشون في منطقة بعيدة جدًا، قال الله عنها إنها «حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا» **الكهف الآية ٩٠ .**

سار ذو القرنين صاحب العلم الواسع في الصحراء، هؤلاء القوم لم تكن لهم حضارة، ولا يعرفون هندسة البناء، لذلك لم يتخذوا بيوتًا تحميهم من الشمس، كان هؤلاء قبيلة أو مجموعة من القبائل، وحينما استمر ذو القرنين في المسير وجد قومًا أكثر تخلفًا، حتى أنهم لا يكادون يفقهون قولاً، ليس معنى هذا أنهم صم بكم، ولكن كانت لغتهم بدائية جدًا بحيث لا يستطيعون بها التفاهم مع الأغراب، ولكن بالرغم من ذلك استطاع ذو القرنين التفاهم معهم! كيف ذلك؟ الله في القرآن الكريم لم يقل: لا يفهمون قولاً، ولكنه قال: «حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا» **الكهف الآية ٩٣**، لا يكادون يفقهون، وليس لا يفقهون، أي أنهم يفهمون بمشقة كبيرة، بعد جهد وعناء، ولذلك عندما عبَّروا عن شكواهم لذي القرنين استخدموا الشرح المعتمد على أوصاف من يعتدي عليهم «قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ» الكهف الآية ٩٤.

«يأجوج ومأجوج» ليسوا أقوامًا ولا قبائل كما فسَّر المفسرون، ولكنهما الأثر الذي تحدثه تلك الحالة التخريبية المتعلقة بالإفساد في الأرض التي تصيبهم بدأ من مج، وأج، مج من القذف، وأج من ارتفاع اللهيب، أما بالنسبة للمج فنحن نقول في لساننا العربي: «لقد مَجَ الماء من فمه» أي قذفه من فمه دفعة واحدة، ومنها كانت كلمة «موج» وما هي موج إلا لاندفاعها كأن أحدًا قذفها بقوة. وفي الإنجليزية يقولون عن الآنية الفخارية التي تشبه الكوب، أو القدح «mug» هذا المج ندفع ما فيه إلى أفواهنا، وبعد ذلك تقابلنا كلمة «أج» ومنها الأجيج، أي شدة انفاع النار، ومنها كانت كلمة «أجاج» أي شديد الملوحة، فهي كلمة توحي بالشدة، ومنها أيضًا يأجوج، أي النار الشديدة الاشتعال.

كان هذا هو نطق هؤلاء القوم البدائيين، فهم من الأصل لا يكادون يفقهون قولاً، ولذلك استخدموا صورة تعبيرية ليعبروا عن الشكوى الخاصة بهم، وهي أن هناك نارًا شديدة الاشتعال تندفع إليهم اندفاعًا فتفسد الأرض، إذ أنها تهدم أبنيتهم البدائية، كما أنهم بسببها لا يستطيعون زراعة أرضهم، ولكن من أين تأتي تلك النار المشتعلة المندفعة؟

يقول الله تعالى عن رحلة ذي القرنين «حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا» كانت هذه المنطقة قريبة جدًا من المنطقة التي بين السدين التي يعيش فيها أولئك القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً، والعين الحمئة واضحة الدلالة على عين بركانية، ولكن العرب لم يكونوا يعرفون البراكين، لذلك فهموا في تأويلاتهم للآية أن العين هي عين ماء، فهم لا يعرفون إلا عيون الماء، وفسروها أنها عينٌ بها ماء حار، وليكن، فكل سائل ماء! والحمم البركانية هي ماء معدني منهمرة، كانوا عن بُعدٍ يرون أجيجها، ثم تمجها العين البركانية، فتندفع إليهم وتعيث في الأرض الفساد، وتفسد عليهم حياتهم، فما كان من ذي القرنين إلا أنه طلب منهم أن يساعدوه ليسد تلك الفجوة التي تأتي منها الحمم البركانية، فقال لهم «آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا» فقد كانوا من قبل يسدون تلك الفجوة بالحجارة فكانت الحمم تنقبها وتهدمها ثم تندفع إليهم، فكان الحل هو الحديد مع النحاس ليصنع ساترًا شديد الصلابة، وإذا كانت درجة حرارة الحمم البركانية تتراوح بين ٧٠٠ إلى ١٢٠٠ درجة مئوية فإن في قدرة الساتر الحديدي النحاسي على الثبات أمام تلك الحمم كبيرة، إذ أن تلك السبيكة الحديدة النحاسية بمنأى عن الانصهار إلا إذا تعرضت لدرجة حرارة أعلى من ٢٨٠٠ مئوية. وبذلك يكون هذا السد المعدني بمنأى عن أن تنقبه الحمم، وقد أورد الله لنا في القرآن عن تلك الحمم البركانية باعتبارها من مشاهد يوم القيامة بقوله تعالى في سورة الأنبياء «حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ» فُتحت يأجوج ومأجوج أي فُتحت الفوهات الخاصة بقمم البراكين، وقمم البراكين محدودبة، أي أنها عبارة عن نتوءات جبلية على ظهر الأرض، تشبه الحدب الذي في ظهر الرجل الأحدب، لذلك قال الله إن تلك الحمم اليأجوجية المأجوجية ستنسال من كل حدب، أي من كل فوهة بركان محدودبة على ظهر الأرض، والانسيال لا يكون إلا للسائل، وما سال إلا لأنه سريـع في انسياله، أما إذا انساب فهو ينزل برفق، ويوم القيامة يقول الله عن بني الإنسان «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ» وما ينسلون إلا لسرعة الاندفاع بلا حول ولا قوة منهم، فالسيلان لا يكون بقوة السائل ولكن بقوة من أسال.

أما القول بأن يأجوج ومأجوج قوم من الأقوام الأشرار فهذا تأويل ساذج وأسطوري، وخضع للتأويلات الأسطورية القديمة، فالله لم يصف يأجوج ومأجوج بكلمة «قوم» كما

كان يصف أقوام الأنبياء والرسل، ولكنه وصف المُضارين بكلمة «قومًا لا يكادون يفقهون قولا» هم القول وليس يأجوج ومأجوج هم القوم، كما أن هذا الساتر ما كان ليمنع هؤلاء إن كانوا قومًا من الالتفاف حول الجبل ليدخلوا إلى هؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً، أكل حيلتهم نقب السد فقط؟!

ولهذا الموضوع شرحٌ تفصيلي في كتاب آخر قادم قريبًا إن شاء الله عن الأساطير القديمة، ولذلك ليس الآن هو موضع شرحه التفصيلي، إذ أن الذي يعنيني فقط هو طريقة التفاهم بين ذي القرنين الذي لديه من كل علم سببٌ، وجاب معظم بلاد المعمورة المسكونة، ثم وقف عند قوم لا يعرفون لسانه لأنهم يسكنون في بلاد بعيدة جدًا لم يصل إليها اللسان الذي كان يعرفه ويتكلم به ذو القرنين وقومه، لذلك كان التفاهم بينهما كانت فيه مشقة بالغة ولكنه لم يكن مستحيلاً، وشرح تصويري من هؤلاء القوم للأمر الذي يصيبهم بالضرر، من كلمة يأجوج ومأجوج لعب الشيطان لعبة تحريف الكلم عن مواضعه فصور لنا شياطينه أثناء التأويل أن يأجوج ومأجوج هما قبائل غير انسانية، أو شيطانية، أو مخلوقات ممسوخة تعيش تحت الأرض، وأخفى عنا المعنى المباشر للمج والتأجيج.

هذه هو تحريك الكلم عن مواضعه، عرفنا الخطة، ولكننا إلى الآن لم نعرف كيف مارسها وخطها بيساره في عقول الناس، لذلك سيكون التطبيق العملي رفيقنا في الفصل القادم، وسيظل معنا في باقي فصول الكتاب.

عيسى يوسف الكويتي

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠)

سورة يس

الفصل الثالث

التحريف بين النبي والرسول

«الذي في قلبي أقوله لكم، والله ما كرهت أولئك الذين يعيشون في الظلام، ولا أولئك الذين يتهمون الناس في عقيدتهم ونواياهم، ولكني أشفقت عليهم، ولقد رأيتُ خلال رحلتي في هذه الدنيا رأي العين النقائص وهي تتغشاني وتتغشى كل بني آدم، فعرفت أن النقص من طبيعة المخلوق ولكنه ليس للخالق، فنحن يرد علينا الخطأ والنسيان، والغفلة والنوم، وترد علينا السِنَةُ التي هي أقل من النوم، ولكن الله لا يَرِد عليه الخطأ والنسيان والنوم والسِنَة والغفلة، فهو الحي القيوم، فلو نام لانتقصت حياته، سبحانه، ولو أخطأ أو غفل لنقصت قيوميته وصمديته، سبحانه، ولكن من أعظم النعم التي ينعمها الله بها عليك أن تعلم أنك أخطأت وأذنبت ووقعت في رحى الظلام، فعلمك هذا سيحميك ويدفعك إلى تبديد الظلام الذي تغشاك بأنوار التوبة، وللتوبة أنوار، ألم يتلق آدم من ربه كلمات فتاب عليه، أما الشيطان فقد أبى واستكبر فأصبح هو وجنده في ظلماتهم يعمهون، ومن وقتها وكل من يعرف ذنوبه وآثامه، ثم يدرك مقامه في «العبادية» من الله رب العباد صاحب الرحمانية، كان أهلاً لتلقي أنوار التوبة، ومن أبى واستكبر غابت عنه المعرفة، ومن لم يعرف أدخل نفسه في الجهالات الإبليسية، والظلمات الشيطانية فلم يكن أهلاً للتوبة وأنوارها، ولكي لا يكون للشيطان هيمنة علينا أرسل الله لنا الرسل والأنبياء، وجعل للرسل وظيفتهم في تبليغ الرسالات فأعطاهم لمحة من صفة من صفاته وهي «الصمدية»، ولكن بقدر ما تتحمله بشريتهم، وما أعطاهم الصمدية إلا ليقوموا بتبليغ رسالتهم كما أمرهم، والصمدية تعني الثبات وعدم التغير، سبحانه يُغيِّر ولا يتغير، فما وهن الرسل وما ضعفوا والله يمدهم بمدد من عنده، فكانت صمديتهم مرتبطة بتبليغ الرسالة، وأرسل الله لنا الأنبياء ليقوموا

بتفعيل الرسالة أمام أقوامهم بشكل تطبيقي، والأنبياء وهم يقومون بمهمتهم النبوية ليست لهم صفة الصمدية، ولكنهم يتغيرون ويضعفون ويخطِئون ويرد عليهم ما يرد على البشر، ولكن الله يعيدهم إلى جادة الصواب، لذلك فإن مهمة الرسول غير مهمة النبي، ما على الرسول إلا البلاغ، وما على النبي إلا التطبيق العملي».

****

«١»

النبي الرسول

هل تعرفون من هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟! إنه النبي الرسول، أو قل: الرسول النبي، وكان مع هذا هو محمد الإنسان، ولكن هل عرفناه حقًّا؟! هذا الأمر يحتاج إلى كتاب كامل، بل كتب، فالبيان قد يعجز في تلك السطور عن الإيضاح، والعجز قد يعتريني، فهل من لسان يستطيع أن يصف موضع الرسالة والنبوة إذا كانتا في أرحم عباد الله؟! كان سيدنا محمد عليه السلام رسولاً، وكان نبيًّا، خاطبه الله مرات بصفته الرسالية، فقال له: يا أيها الرسول، وخاطبه مرات أخرى بصفته النبوية فقال له: يا أيها النبي، وقد احتوى القرآن على آيات رسالية، وآيات نبوية، أما الآيات الرسالية فهي الآيات التي تحتوي على المقاصد الإيمانية العليا التي جاءت في القرآن الكريم وهي لا علاقة لها بشخص الرسول، إذ هي منبتة الصلة به رغم أنها تنزلت عليه وآمن بها، مثل الإيمان بالله والملائكة واليوم الآخر وبر الوالدين وتحريم القتل والسرقة وما إلى ذلك، أما الآيات النبوية فهي تلك التي تحتوي على حركة النبي بين قومه وحياته وجهاده وسعيه لتطبيق المفاهيم الرسالية تطبيقًا عمليًّا، وهي تدخل في القصص النبوي، حيث ترتبط بزمنها وواقعها، وكل واقع يتغير، وكل زمن وله أحواله، ولا ينبغي لنا أبدًا ونحن نقرأ القرآن أن نخلط بين هاتين الصفتين، فنجعل الآية النبوية رسالية، أو نجعل الآية الرسالية نبوية، فالنبي له مهمة حركية وهي غير مهمة الرسول الإبلاغية، ولكننا كما قلت خلطنا وعشنا مع هذا وكأنه ذاك، فنجد من جمع بين الصفة النبوية والصفة الرسالية في فهم واحد، ونجد من لم يدرك الحركة النبوية وطبيعتها

التأقيتية[٤] فجعل منها تشريعًا مستقبليًا يلزم الأمة إلى يوم القيامة، مع أن الرسالة باقية إلى يوم الدين، أما النبوة فتنتهي بوفاة النبي، وما جاء هذا الخلط إلا لأن سيدنا محمد عليه السلام كان يجمع بين الصفتين، فكان يتحرك بين الناس بكل صفة من الصفتين على حدة، ولم يحدث أن خلط سيدنا محمد بين صفته النبوية وصفته الرسالية، ولكننا نحن الذين خلطنا.

أما الرسالة فلها مضمون، ومضمونها من أرق المضامين وأجملها وأعلاها، فكل المطلوب منا والذي أمرنا الله به هو أن نؤمن بالله وحده، ولا نشرك به أحدًا، ونؤمن بالملائكة واليوم الآخر والحساب والجنة والنار، ونؤمن بأن الله لم يتركنا نضيع في متاهات الشيطان، ولكنه أرسل لنا الرسل والأنبياء، فقال الله لنا في سورة البقرة «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»، لم يقل الله في هذه الآية: آمن النبي، مع أن النبي آمن، ولكنه قال: آمن الرسول لنعلم أن هذا الإيمان الرسالي هو صلب تلك الرسالة ومرتكزها الرئيسي، وطلب الله في رسالته أن نلتزم بالعمل الصالح، ووصانا بوالدينا «ووصينا الإنسان بوالديه» وحرَّم علينا أشياء ذكرها لنا في القرآن، وقال لنا إن هذه الرسالة ليس فيها إكراه «لا إكراه في الدين»، ونستطيع أن نجمل الرسالة في أنها عقيدة وعبادة ومعاملات، ونحن نعرف العقيدة، ونعرف العبادات، ولكننا جهلنا المعاملات، وكان من أعلى المقاصد الرسالية في المعاملات أخلاقيات يرتقي بها الإنسان مثل «حفظ الكرامة الإنسانية، وتعمير الأرض، والعدالة، وحفظ النفس، وحفظ الحرية، وحفظ السلام، وحفظ المال، وحفظ العقل، وحفظ النسل»، وغيرها مما يكتمل به حركة العمران في الكون.

هل هناك أعظم من ذلك؟ ولكن النبي وهو يجاهد لتطبيق آيات الرسالة سيلقى معارضة وعدوانًا، وفي ذلك يقول الدكتور محمد شحرور «إن الآيات من أم الكتاب والتي تبدأ بقوله تعالى: يا أيها النبي، ليست أحكامًا شرعية، بل هي تعليمات أو حالات خاصة للنبي صلى الله عليه وسلم أو هي تعليمات عامة وليست تشريعات، أي أنها "ولله المثل الأعلى" تعليمات إجرائية وليست مراسيم تشريعية»[٥].

---

٤ التأقيت في الفقه هو بيان الوقت وتحديده.

٥ محمد شحرور، «الكتاب والقرآن»، الباب الأول، الفصل الثاني، النبوة والرسالة.

ولكننا إذا قرأنا كتب الأولين لنعرف فهمهم للنبوة والرسالة لوجدناهم يقولون إن الرسول هو من أنزل الله عليه رسالة، أما النبي فهو من أنزل الله عليه وحيًا ولكن لم يأمره بتبليغ هذا الوحي!! ففي كتاب شرح العقيدة الطحاوية لناصر العقل يقول: «وقد ذكروا فروقًا بين النبي والرسول، وأحسنها: أن من نبأه الله بخبر السماء إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبي رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبي وليس برسول»[٦]

أما ابن باز فيقول في الفتاوى على موقعه الإلكتروني «المشهور عند العلماء: أن النبي: هو الذي يوحى إليه بشرع، ولكن لا يؤمر بتبليغ الناس، يوحى إليه يفعل كذا، ويفعل كذا، يصلي كذا، يصوم كذا، لكن لا يؤمر بالتبليغ، فهذا يقال له: نبي. أما إذا أمر بالتبليغ، فيبلغ الناس، ينذر الناس؛ صار نبيًا رسولًا، كنبينا محمد ﷺ ومثل موسى وعيسى ونوح وهود وصالح وغيرهم».

ومعظم أهل الفقه القديم على هذا، إلا أن فريقًا آخرَ:» يذهب إلى أن الرسول من الأنبياء إنما هو من بعثه الله بشرع جديد يدعو الناس إليه، أما النبي الذي ليس برسول، فهو من بعث لتقرير شرع سابق، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام، ومن ثم فقد قيل إن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا.»[٧]

إلا أننا سنترك تلك التعريفات إلى حال سبيلها، فليس هناك معنى لأن يوحي الله لنبي ثم يطلب منه أن يكون هذا الوحي سرًا فلا يبلغه لأحد من الناس، في حين أن القرآن يحدثنا عن حركة الأنبياء بين أقوامهم، وكيف كانوا يطلبون منهم عبادة الله وحده، ولا يشركون في عبادته أحدًا، ويطلبون منهم العمل الصالح، مثل هود وصالح ولوط وشعيب وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وزكريا ويحي وغيرهم من الأنبياء، كل هؤلاء حدثنا الله عنهم في القرآن الكريم وعن حركتهم بين أقوامهم، لذلك فإن الرأي الذي يقول إن النبي غير مكلف بتبليغ قومه لا يُعوَّل عليه.

ولنعد إلى القرآن الكريم لنعرف من خلاله أن الأنبياء الذين لم تتنزل عليهم رسالات إنما يؤمرون بدعوة الناس إلى الرسالة السابقة التي أنزلها الله على رسول أرسله في زمن

---

٦ كتاب العقيدة الطحاوية لناصر العقل، الجزء ٢٣، ص٢.

٧ دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الدكتور محمد بيومي مهران، جـ ٢، صـ ٤٥٢.

سابق، وهي كلها تقوم على المفاهيم التي تشترك فيها كل الرسالات، مع خصوصية كل رسالة في أشياء تتناسب مع طبيعة كل قوم من الأقوام، لذلك يقول الله « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا »، لذلك فإن الأنبياء يقومون بتفعيل تلك الرسالة السابقة بشكل عملي بين أقوامهم، والعمل على تطبيق مفاهيمها بين الناس، أما الرسول فله وظيفتان، الوظيفة الأولى هي تبليغ الناس بآيات الرسالة، فإذا كانت هذه الرسالة أرسلها الله في كتاب مثل التوراة أو الإنجيل أو الصحف أو الزبور أو القرآن، فعلى الرسول أن يبلغ الناس بما جاء في هذا الكتاب نصًا وحصرًا بلا زيادة ولا نقصان، ولذلك قال الله تعالى «ولو تقوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ *لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ» لا يستطيع الرسول أن يضيف من عنده حرفًا واحدًا على الكتاب الموحى له به، إذ أن كل نطقه الرسالي موحى له به «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى»، ولذلك قال الله «وما على الرسول إلا البلاغ المبين»، والنطق الرسالي غير النطق النبوي أو الإنساني، لذلك ومن أجل أن يقوم الرسول بتبليغ الرسالة كاملة فإن الله يعصمه من الناس، ويحميه من عدوانهم الذي يمنع التبليغ، إذ العصمة هنا مرتبطة بتمكينه من تبليغ الكتاب الرسالي الذي أنزله الله عليه «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ»، لم يقل الله إنه يعصم النبي، ولكنه قال إنه يعصم الرسول ليقوم بتبليغ الكتاب الموحى له به، ولذلك أيها الرسول لا تخف من الناس، ولا تظن أن الله سيتركهم يمنعونك من التبليغ، كل ما عليك هو أن تبلغ كتاب ربك والله يعصمك من الناس، كانت هذه هي دعوة الله لكل الرسل، كلهم حصلوا على العصمة من الناس في تبليغ الرسالة، ولكن النبي له مهمة أخرى، هي أن يسعى جاهدًا بين قومه لتطبيق الآيات الرسالية، أمره أن يجاهد، وأن يُعلِّم قومه الرحمة والسلام والمودة، فهو في هذا المقام مثل المُعلم الذي يعلم التلاميذ ما جاء لهم في الكتب الدراسية، هذا هو النبي، هو المُعلم، وما أعظمه من مُعلم، وهو يجاهد في سبيل أن تصل مضامين الرسالة ومفاهيمها إلى قومه، ومفهوم الجهاد هنا ليس بالضرورة يرتبط بالسيف والقتال، فالجهاد هو أن يُجهد الإنسان نفسه في عمله، فأنت تجاهد بين الناس لتصل كلمتك إليهم، أي أنك تبذل قدر طاقتك لتقوم بمهمتك، وأنت أيها المدرس تجاهد في عملك ليفهم تلاميذك درسك، والطبيب يجاهد في عمله. وعلمه وهكذا، كلنا في الحياة نجاهد، فما بالك بالذي يجاهد في سبيل الله، يُجهد نفسه ويجتهد

في عبادته ولذلك يقول الله «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» أن تجاهد نفسك وتحضها على الفضيلة والعمل الصالح وتقاوم همزات الشياطين هذا هو الجهاد، وأن يجاهد النبي ليوقف أثر الكفار الذين يعملون على تعطيله، هذا هو جهاد النبي، لذلك فإن الله يقول للنبي «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ»، ولك أن تلاحظ أن الله لم يخاطبه بقوله: يا أيها الرسول، فهذا الموقف هو موقف خاص بالنبي وليس للرسول، لأن النبي وهو يسعى بين الناس في تطبيق آيات الرسالة تطبيقًا عمليًا وحينها سيقف الكفار والمنافقون ضده، لذلك أمره الله أن يجاهدهم، أي أن يبذل كل طاقته الجهادية، ولا يلين، ولا يضعف، ولتأكيد ذلك يقول الله له «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا» هذه آية نبوية وليست رسالية، هي له بصفته النبوية وليست بصفته الرسالية، وإلا لقال الله له: يا أيها الرسول، ويجب أن ننتبه لصيغة الخطاب والنداء هنا، فالأمر جد دقيق، وليس مجرد تغيير في الكلمات بلا هدف، فصانع هذا الكون الدقيق المذهل في دقته ينبغي أن يكون كتابه دقيقًا مذهلاً في دقته، إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال، ولا بأي صورة من الصور أن يطيع الرسولَ الكافرين والمنافقين، فطاعتهم في الموقف الرسالي تعني أن لا يقوم بتبليغ ولو آية من آيات الرسالة، وهذا أمر ليس في الجبلة الرسالية التي فطره الله عليها، والتي جعل العصمة له من أجلها، ولكن النبي من الممكن أن يطمع في أن يلين الكفار والمنافقون معه وهو يقوم بتطبيق آيات الرسالة، فيطلبون منه مثلاً أن يطرد من جلسته الفقراء والضعفاء ليجلسوا هم معه يستمعون لدعوته، فيطمع في إسلامهم، فيحذره الله من ذلك ويقول له «اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين»، لذلك تجد الله يقول للنبي في موضع آخر «وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ»، النبي هنا من الممكن أن يرد على قلبه ما يرد على خاطر الناس من الطمع في دخول كبار القوم للإسلام فيستجيب لهؤلاء الكبار فيحذره الله من ذلك، ويطلب منه في الآية الأخرى أن يتقي الله، ويقول له في آية أخرى معاتبًا «عبس وتولى أن جاءه الأعمى» كل هذه الآيات نبوية وليست رسالية.

ولذلك سنجد في الآيات النبوية قصصًا لِما مر به النبي بين قومه، هذه الآيات لا تحمل تشريعًا رساليًا تلتزم به الأمة إلى يوم الدين، ومع ذلك فإن هناك حالات تشريعية كانت

موجهة إلى النبي وقد يقع الاشتباه في ديمومتها وأبديتها وإلزامها للأمة إلى يوم الدين مثل عدة المطلقة، فما حالنا مع هذه التشريعات؟

****

يقول الله تعالى للنبي عليه السلام في سورة الطلاق «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ»، هذا خطاب موجه للنبي وأمته، وهو مرتبط بالتطليق، وقد حدد الله فيه عدة للمطلقة، والعدة هي عدة أشهر تبدأ من الطلاق وتنتهي بعد ثلاثة قروء، والقرء هو الحيض، أو الطهر من الحيض، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة البقرة «وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ»، وهذه الآية من آيات الأحكام الرسالية، والآيات التي قبلها والتي بعدها تحدثنا عن تشريعات، ومنها أن حرمة القتال في الشهر الحرام، وعن الخمر والميسر، وعن اليتامى ووجوب معاملتهم بالخير، وحكم زواج المسلم من المشركات والمسلمة من المشركين، ثم يخبرنا الله عن المحيض والنهي عن أن يجامع الرجل زوجته وهي حائض، والنهي عن أن نجعل الله عرضة لإيماننا فنقسم بالله في كل كبيرة وصغيرة، وصولاً إلى آية المطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، ثم جاءت أحكام أخرى عن الطلاق بعد هذه الآية، والزواج والطلاق هي تشريعات اجتماعية، والمعنى المعروف من التربص ثلاثة قروء هو الاجتهاد والعناية الشديدة في معرفة مرور الثلاثة قروء، أي مرور الثلاث حيضات من وقت الطلاق، فإذا طلقها وهي في طهر إذن تتربص وتجتهد في معرفة مرور ثلاثة أطهار، والهدف من ذلك هو معرفة عما إذا كانت المرأة وقت طلاقها حاملاً من زوجها أو لم تكن كذلك، حتى لا تختلط الأنساب ويُنسب الوليد لغير والده.

فيكون التربص والاجتهاد لمعرفة براءة الرحم من الحمل هو الأمر الرسالي الذي يجب أن لا نختلف فيه أبدًا، أما كيفية هذا التربص فهو يرتبط بالسقف المعرفي والعلمي لدى أي مجتمع من المسلمين، لذلك خاطب الله النبي وقال له: «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن»، وهذا الأمر جاء في الآية الرسالية من سورة البقرة «ثلاثة قروء»، أما الأمر الموجه للنبي ومجتمعه، وباقي المجتمعات التي تتشابه معه في السقف المعرفي فهو: «أحصوا العدة» الله يقول لمجتمع النبي يجب أن يتم هذا الإحصاء، لأن أمة النبي كانت لا

تكتب ولا تقرأ، لذلك وجب التنبيه عليها بالإحصاء، وهذا الإحصاء لأمة النبي ذات السقف المعرفي، وكل أمة أو مجتمع لها ذات السقف المعرفي والعلمي، فإذا لم يكن لديهم إلا إحصاء ثلاثة قروء فلابد أن يفعلوا ويفعلن، وإذا كانت لديهم وسيلة معرفية يقينية أخرى غير انتظار ثلاثة قروء فليعملوا وسيلتهم المعرفية، فليست الثلاثة قروء هي المستهدفة، ولكن براءة الرحم هي المستهدفة، وأصبحت وسيلة معرفة براءة الرحم من الحمل متاحة حاليًا بشكل يقيني من خلال طرق التحليل العلمية، فإحصاء العدة حاليًا من الممكن أن يتم من خلال الفترة التي يظهر فيها نتيجة إحصاء الهرمون في الدم أو البول.

لذلك فإن خطاب الله للنبي وأمته بإحصاء العدة هو خطاب مرتبط بسقفهم المعرفي، وبأي سقف معرفي يماثله، أما إذا قال له: يا أيها الرسول...... أحصوا العدة، فيكون إحصاء العدة المتمثلة في مرور ثلاثة قروء هو الأمر الرسالي بكل ما اشتمل عليه من أول الطلاق إلى انتهاء الثلاثة قروء إلى نفقة المعتدة وغير ذلك من الأحكام.

****

هذا هو موضع الرسالة وهذا هو موضع النبوة، ولكن الفقهاء على مدار العصور وضعوا السيف في موضع الندى، وخلطوا بين النبوة والرسالة، فعندما قرأوا قول الله «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ» على أنها أمر رسالي ينبغي أن يظل قائمًا بين الأمة إلى أن تقوم الساعة، كان هذا أكبر جرم وقعوا فيه فغيروا الدين من رحمته وسلمه، وأساءوا فيه للرسول عليه السلام، مع أنه كان صورة من صور القصص التي تعرض لها النبي في حياته، وكيف أن المسلمين تعرضوا لخوف من خبر جيش الكفار الذين جاءوا لغزوهم في المدينة في موقعة بدر، فطلب الله من النبي أن يملأ قلوبهم بالشجاعة والحمية والحماس، وليس هذا هو التحريض الذي نعرفه في القوانين، من الحض على ارتكاب جريمة القتل، فليس من مهمة المسلم أن يقاتل إلا إذا كان مُعتدى عليه، وهذا أمر إنساني طبيعي، ولذلك فإن الله يقول «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» هذه هي الآية الرسالية التي يجب أن نتخلق بمنهجها، وهي أن نقاتل لنرد الاعتداء ولندفع الأذى، لا لكي نعتدي، فالله لا يحب المعتدين.

ولكي لا تتعارض حركة النبي مع مفاهيم الرسالة عاتب الله نبينا عندما قال له: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» لم يقل الله له: يا أيها الرسول لما تحرم ما أحل الله لك، لأن الرسول لا يستطيع أن يُحرِّم من عندياته ما لم يحرمه الله، وما لم يرد في القرآن الكريم، لذلك حينما حرَّم على نفسه العسل عاتبه الله لأنه من الممكن أن يفهم المسلمون أن هذا التحريم رسالي وأنه يشملهم، فيحرمون على أنفسهم ما أحله الله، ولنا أن نتخيل لو أن النبي حرَّم على نفسه العسل، ولم يُنزل الله هذه الآية التي يعاتبه فيها، ونقل الصحابة لنا أن النبي حرم على نفسه العسل، فهل كنا سنأكل العسل أم كان الفقهاء من كل جيل سيخرجون علينا بحرمة العسل مثل حرمة لحم الخنزير؟!.

وإذا أبحرت معي بعد هذه القراءة مع الآيات الرسالية والآيات النبوية ستعرف الفرق بيِّنًا مبصرًا، وستراه شاخصًا أمامك يخاطب عقلك، ولكنني ما بدأت هذه البداية إلا لكي أدخل إلى تحريف شيطاني أدخله شياطين الإنس علينا بخصوص الصلاة على النبي، إذ جعلوا الصلاة على النبي ذكرًا تعبديًّا، وما هو بذكر، وما هو لله، فكيف كان ذلك؟!

«٢»

تحريف الصلاة على النبي

هل تعرفون كيفية الصلاة على النبي؟ سنضع أمامكم ألف صيغة للصلاة على النبي، كل فرقة اجتهدت في وضع صيغة، وتعصب كل فريق لصيغته حيث يرى أنها الصيغة المثلى، ولنا أن نتعجب من هذه الصيغ جميعها، فقد جاء إلينا الرسول يقول لنا: وحدوا الله، ويقول لنا: اذكروا الله، ويقول لنا: سبحوا الله، ويقول لنا: احمدوا الله، ويقول لنا: اشكروا الله، فإذا بنا نقول: محمد، محمد، محمد، صلى الله على محمد، صلى الله عليه وسلم، ثم أصبحنا في سباق مع أنفسنا من أجل الصلاة على النبي بالصيغ التي وصلت إلينا، نسينا ذكر الله وتوحيده لكي يصبح الذكر الأعظم والأكثر انتشارًا على ألسنة المسلمين هو الصلاة على النبي، به ندخل الجنة، وبه تُبنى لنا في الجنة القصور، وبه ننال الحور العين، وبه تجري أنهار الجنة من تحتنا، وبه يغفر الله لنا، وبه يرحمنا ويعفو عنا، هذا هو الذكر الذي يتفوق على كل الأذكار، الله يقول لنا «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ»، ونحن أصبحنا نذكر النبي قيامًا وقعودًا وعلى جنوبنا، يقول الله لنا «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ» فإذا بنا نُسبح باسم النبي، ونصلي على النبي، دون أن نفهم معنى الصلاة ومعنى النبي، والأكثر من هذا أنهم اخترعوا أقوالاً ما أنزل الله بها من سلطان، وكأن الله أرسل النبي من أجل تعظيم النبي، وعنه نسجوا حكايات أسطورية زعموا فيها بأن الله خلق الدنيا من أجل النبي محمد، وأن آدم عندما نفخ الله فيه من روحه قام قاعدًا وإذا به يقرأ على قوائم العرش «لا إله إلا الله محمدًا رسول الله»، وأن اسمه مكتوب على أبواب الجنة، وأن آدم قال لابنه شيث إنه قرأ اسم النبي محمد في كل ركن من أركان الدنيا، والعديد من الأساطير الخرافية التي لا تصح أبدًا ولا يجوز الاعتقاد فيها، وقد كان هذا هو أكبر تحريف أدخله الشيطان علينا فجعلنا النبي مساويًا لله، سبحانك ربي سبحانك.

كانت البداية عندما قرأوا قول الله تعالى في سورة الأحزاب «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» فإذا بهم يحرفون أولاً معنى

الصلاة عن موضعها، ويذكرون لها معنى آخرَ يبتعد عن معناها اللساني، فالصلاة في القرآن الكريم هي من الصلة، والتواصل أو التصلية، فالله يقول «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوه».

ودون أن أدخل في تفصيلات لسانية عن جذر كلمة الصلاة، والخلاف حول هل هو «ص. ل. و» أو هل هو «ص. ل. ي» صَلَوْ أم صلي؟ فإذا اخترنا الجذر اللغوي ص. ل. ي، سنجد أنه يعني اتصال شيئين ببعضهما وتلازمهما، ومنه الصلاة لأنها اتصال بين المصلي والله رب العالمين، وهذا الاتصال بلا فاصل، أما مفهوم الوصل والتصلية من صـ ل. و، فهو كقول الله تعالى «وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا» أي تمسّه وتتصل به ولذلك فإن الصلاة في اللسان القرآني هي من الوصل والاتصال، ولذلك فإن معنى صلاة الله على النبي هو في منتهى الوضوح، الله يقول لنا إنه متصل بالنبي، ليس هو وحسب، ولكن الله والملائكة متصلة بالنبي وعلى صلة به، هل هناك غموض في هذا اللسان، هل يلزمنا الفهم أن نتقعر ونخرج من المدلول اللساني المباشر إلى غيره؟!.

ولننظر إلى قول الله تعالى على لسان النبي وهو في الغار مع صاحبه، وقتئذ ظن صاحب الغار أن الكفار قد أحاطوا بهما، وأنهم على وشك القضاء عليهما، فما كان من النبي الذي يعلم أن الله يصلي عليه، أي يؤيده فما الذي جاء في سورة التوبة في هذا الأمر «إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا»، الله ينبئنا بأنه نصره، وهذا النصر لا يرتبط بموقف واحد ولكن في كل مواقف النبوة، وتمثل النصر في قول الله تعالى «فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» الجنود التي لم يروها هي الملائكة التي كانت في معية النبي تتصل به وتنصره، هذه هي الصلة والاتصال.

ولنا أن نعلم أن الصلاة «عليه» غير الصلاة «له» فأنا أصلي لله، ولا أصلي عليه، أظننا في حياتنا نقول ألف مرة أننا صلينا لله، وفي صلاة الجنازة نقول صلينا على الميت صلاة الجنازة، ولا نقول صلينا له صلاة الجنازة، ومعناها واضح الدلالة بلا تقعر ولا تحريف، فإذا قلت إنني أصلي لله فذلك يعني أنني أحقق فعل التقرب لله، أتقرب لله، أبتغي القرب من الله، أما الصلاة «على» فتعني المعاونة والتأييد، أصلي عليه أي أؤيده، وأعاونه، وأمده بمدد من عندي، هذه صلة المؤازرة، ومن المؤازرة الدعاء للميت، لذلك نحن نصلي عليه،

ومن أجل هذا الدعم والتأييد والمعاونة للنبي قال الله «إن الله وملائكته يصلون على النبي» وبطبيعة الحال فإن الصلاة هنا ليس معناها أنهم يتقربون إليه، وإلا لقال يصلون له، ولكنهم يصلون عليه.

هذا خطاب إلهي موجه إلى الذين آمنوا بالرسالة المحمدية في حياته، يقول الله لهم فيه إن الله والملائكة يصلون على النبي أي أنهم على صلة وتواصل معه، الله ينصره، ويعزه ويرفع قدره، وجده يتيما فآوى ووجده عائلاً فأغنى وأيده بجنده، وعصمه من الناس حتى يبلغ الرسالة، هذه الصلاة هي من أنباء الغيب، أنبأها الله في القرآن للمؤمنين بالنبي في زمنه حتى لا يتخاذلوا ويتهاونوا، وحتى لا يصيبهم اليأس عندما يرون قبائل العرب في موقعة الأحزاب يجتمعون للنيل من النبي ورسالته، لذلك كانت هذه الآية في سورة الأحزاب، تلك السورة التي نزلت على الرسول بمناسبة تلك الغزوة الكفرية التي شنها كفار مكة على المسلمين، فكان أن حفر المسلمون خندقًا حول المدينة حتى لا يُمكنون الكفار من مبتغاهم.

ولكي نعرف المدلول الحقيقي لآية الصلاة على النبي فإننا يجب أن نقرأ سورة الأحزاب كلها، إذ سنجد الله فيها يخاطب المؤمنين مباشرة بداية من الآية ٤١ فيقول لهم «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا»، ويجب أن ننتبه لمدلول هذا الطلب وهو:

أن يذكروا الله ذكرًا كثيرًا، لم يقل لهم اذكروا محمدًا ذكرًا كثيرًا، ولكن اذكروا الله، ثم يطلب منهم التسبيح لله «وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا، ثم يخاطبهم الله خطابًا جامعًا مانعًا ويبث به في قلوبهم الطمأنينة فيقول «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا»، ما أعظمك يا الله، الله ينبئنا بأنه يصلي والملائكة على المؤمنين، فهل ترانا في حياتنا حولّنا تلك الصلاة إلى ذكر نبتهل به إلى الله بألسنتنا ونتعبد له بأن نقول: صلى الله على المؤمنين، ويصبح هذا ذكرًا لنا في حياتنا نتقرب به لله؟!

ومع ذلك فإن الآية واضحة الدلالة جدًا في صفة ذلك الذي يُصلي الله والملائكةُ عليه، هو النبي، لا الرسول، لذلك لم يقل الله تعالى: إن الله وملائكته يصلون على الرسول، كما لم يقل: يصلون على محمد، ولكنه قال إنهم يصلون على النبي، النبي هو المعني في هذه الآية أيها المسلمون، محمد بن عبد الله عليه السلام هو المقصود بصفته النبوية لا بصفته الرسالية، وقد عرفنا أن النبوة ومواضعها غير الرسالة ومواضعها، فإذا كان الله

يعصم الرسول من الناس، فإن هذه العصمة غيبية لا يراها المؤمنون، وهم في كل الأحوال من بني آدم، تنتابهم أحوالهم البشرية فيخافون وييأسون ويجزعون، وبينهم النبي يسير بين الناس بالدعوة، والكفار من كل صوب وحدب ينسلون يريدون القضاء على هذا النبي، والانتهاء من هذا الدين، أفلا يرسل الله لهم وهم يتحلقون حول النبي ما يطمأنهم ويهدهد مشاعرهم ويربط على قلوبهم والمعركة مع العدو مرتقبة ورأي العين؟ كان ذلك بالفعل، أرسل الله لهم بلسان عربي مبين آيات قرآنية تُغيِّر أحوال قلوبهم، وتبعث القوة في نفوسهم، فلا نامت أعين الجبناء، ولا قعد المؤمنون مقاعد الخذلان، لذلك قال الله لهم إنه متصل ومتواصل مع النبي بالتأييد، وأنه أرسل إليه الملائكة يؤازرونه، فما بالك بنبي الله يسعى بين قومه والله معه ومتصل به، والملائكة من حوله، أيُهزم من الكفار ولو كانوا يملكون عتاد الدنيا كلها، وجنود العرب جميعهم؟! ولأن الله معه لذلك قال للمؤمنين به الذين يتحلقون حوله: «صلوا عليه» لا تتهاونوا، كونوا على صلة تأييد به، قفوا معه، قاتلوا الذين يقاتلونه ويقاتلونكم، فإن تنصروا الله ينصركم، ومع الصلاة عليه يجب أن تسلموا له، أي تخضعوا، فالتسليم استسلام، أي سلموا له بالنبوة والرسالة ولا تخدعكم مكائد الشيطان.

ومن عجب أن المسلمين يطلبون من الله الصلاة على النبي!! الله يقول لنا إنه يصلي على النبي، لم يقل إنه صلى عليه بصيغة الماضي، ولكنه يصلي عليه وقت نبوته كلها، وصلنا هذا النبأ اليقيني من الله جل في علاه، «إن الله وملائكته يصلون على النبي....» ومع ذلك فإننا جميعنا جاهلنا وعالمنا، ذكينا وغبينا، أحكمنا وأحمقنا، نقول «اللهم صل على سيدنا محمد»!! يا أخ الإسلام الله يقول لنا إنه يصلي عليه، ونحن بعد أن أنبأنا الله بهذا نتجاهل هذا النبأ ونقول لله وكأننا ندعوه: اللهم صل عليه!! أو نقول بصيغة الخبر: صلى الله على محمد، صلى الله عليه وسلم، نعم أيها الأخ، نعلم أن الله صلى على النبي، فما فائدة أن تذكر هذا ليل نهار وتعتقد أن هذا الذكر عبادة؟! الله طلب من المؤمنين به في عهده أن يصلوا عليه، ونأتي نحن أبناء آخر الزمن ولا نصلي عليه صلاة الاتباع والتخلق بأخلاقه ونطلب من الله أن يصلي عليه وكأننا لم نقرأ الآية!! هل هذه المفارقة تدلنا على شيء؟ هل نستطيع منها معرفة سعة الإدراك لدينا.

ثم ما موقفنا نحن الذين لم نكن في زمن النبي؟ إن لم نكن في زمن النبي فنحن في زمن الرسالة، وزمن الرسالة لا ينتهي أبدًا ولا ينقضي، فمادامت الرسالة إلا لأن الرسول أبلغها لنا كما طلب الله منه، لذلك فإن الله خاطبنا سواء كنا في عصر النبوة أو جئنا إلى الدنيا

بعد وفاة النبي بقوله «لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» رسولنا محمد عليه السلام هو القدوة الحسنة لنا جميعًا، برحمته، وخلقه، وصفاته التي عرفناها من القرآن الكريم، ومواقفه التي قصها الله علينا في قرآنه، هو الأسوة، نتأسى به، والتأسي هو أسلوب عملي وليس لفظًا قوليًا.

أما آية الصلاة على النبي فلها موضعها الذي يختلف عن موضع الأسوة الحسنة، ورغم وضوح آية الصلاة على النبي ومعناها المباشر الذي لا يحتمل تلك الأقوال التي قالوها بأن صلاة الله على النبي هي أنه يثني عليه في الملأ الأعلى وأن الملائكة تدعو له، ولا أعرف وأيم الله لمن تدعو الملائكة، لمن تتجه بالدعاء؟ تتجه لله الذي يقول قبلها في ظنهم أنه يثني عليه، الله يثني عليه بشكل سرمدي والملائكة تدعو له بشكل سرمدي؟! وتظل دائرة الثناء والدعاء مستمرة بلا انتهاء!! وسبحان الله رغم المعنى المباشر للآية فإننا قلبناها وحرفناها إلى وجهة أخرى، فجعلنا الله هو الذي يُسلم للنبي، فأصبحنا نقول: صلى الله عليه و»سلم»، الله يسلم للنبي أيها الناس؟ مع أن الآية ليس فيها أي تسليم من الله، سواء كان بمعنى السلام أو بمعنى التسليم، فالله ربنا جل في علاه لم يقل فيها: إن الله وملائكته يصلون ويسلمون على النبي؟ فمن أين أتينا نحن بهذا التسليم؟! بل إن التسليم يجب أن يكون من المؤمنين الذين مع النبي، أما تسليم الله للنبي فهذا لا يصح أبدًا، بل إنهم يقولون منكرًا من القول وزورًا، حتى أننا عندما نقرأ القرآن في سورة الصافات نقابل قول الله «سلام على نوح في العالمين» وقوله أيضًا «سلام على إبراهيم» وقوله ثالثًا «سلام على موسى وهارون» وقوله رابعًا «سلام على إل ياسين»، ولا توجد آية واحدة في القرآن أو في سورة الصافات قال الله فيها: سلام على محمد.!!.

تحريفات وتحريفات وإخراج الكلم عن مواضعه، هذه هي مهمة أتباع الشيطان من شياطين الإنس، اتبعناهم جهلاً وظنًا من أنهم أعلم الناس، وما انتبهنا إلى أن الله قال لنا أن نتدبر القرآن بأنفسنا، وأن نفطن للسانه المبين، وكم من تحريف مسخوا به آيات القرآن الكريم، وكم من أساطير نسجوها ونسبوها للدين والدين منها براء، فما هي قصة الأساطير التي اختلقوها تحريفًا لآيات الله؟ وكان أكثرها انحرافًا هو أسطورة النسخ في القرآن، وهذا ما سنعرفه معًا في الفصل القادم.

«الناس أعداء ما يجهلون، وهم أسرى لما وجدوا عليه آباءهم، وما عبد الناس الأصنام إلا لأن هواهم كان فيها، وما زال الناس يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله.»

«٣»

التحريف صنع دينًا جديدًا!

الله الذي لا يعرفونه

. التحريف عن طريق النسخ .

((سبحان الله الحكيم الخبير، احترم إرادة الإنسان بتوزيع ماله وفق ما يراه مناسبًا، وخصص عشر آيات لهذا الموضوع، ونحن لم نحترم تلك الإرادة ووضعنا لها قيودًا وتشريعات ثم نسبناها إلى الله الرحمن الرحيم!! فإذا كان القرآن كما نعرف وكما نؤمن كتابًا أحكمت آياته، هكذا قال لنا الله سبحانها «الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» هود ١. أنجعل من هذا المحكم ظنيًا لنغير منه ما نشاء؟! ثم نُحرف آية من القرآن ونزعم منها أن الله أنزل أحكامًا ثم قام بإلغائها، وأن هذا الإلغاء هو النسخ، وأن الرحمة التي طلبها الله منا هي وقت الاستضعاف فقط، فإذا قويت شوكتنا كان لنا أن ننسخ آيات الرحمة، ونكتمها، ثم نقطع الرقاب في سبيل الإسلام!! هذا هو مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، وما كان هذا المبدأ دينًا ولا إسلامًا ولا خُلُقًا، لقد قبلوا على أنفسهم أن يصوروا الله الحكيم الخبير بأنه كان في بداية الإسلام يُنَزِّل قرآنًا يدعو إلى الرحمة والسلام والحرية في الاعتقاد، فدخل إلى هذا الدين أفواجٌ من الناس توافق السلام والرحمة والحرية مع فطرتهم، وبعد أن دخلوا الإسلام وتعرضوا للاضطهاد

من الكفار هاجروا إلى المدينة، ثم أصبحوا عددًا لا يستهان به، فأمرهم الله أن يتركوا السلام والرحمة، وأن ينسخوا أحكامها، وأن يجبروا الناس بالسيف على دخول الإسلام! فلا حرية ولا إرادة!))

****

تحريف النسخ، والتلاعب بالكلم في القرآن الكريم وتوجيه معناه إلى معانٍ أخرى هو الأسوأ والأقبح، ومن عجب أنهم بفكرتهم عن أن الله قرر أحكامًا في القرآن ثم عنَّ له أن يلغيها ويستبدل خيرًا منها جعلوا في القرآن ما هو حسن وما هو أحسن منه، مع أن القرآن واحد لا تجوز تجزئته بهذا الشكل أبدًا، ولا يليق أن نقول إن الله وضع في القرآن خيرًا ثم وضع بعد ذلك فيه ما هو أخير منه!! إننا بذلك نصيب القرآن المحكم في إحكامه، ولذلك لنا أن نتساءل:

كيف يتصور أصحابُ النسخ اللهَ رب العالمين؟ أو كيف هو في أذهانهم؟ هم كالأطفال، تصوراتهم هي تصورات الأطفال، والله الذي في أذهانهم هو الله الذي في الحواديت، يقوم بإجراء تجارب على البشر فتنجح بعض التجارب ويفشل البعض الآخر، فيقرر العدول عن التجربة الفاشلة، ثم يضع بدلاً منها تجربة أخرى، فإن نجحت كتب لها البقاء، وهو في كل الأحوال ينتظر نتيجة التجربة، ويترقب ردود أفعال البشر، هذا هو عين ما يقوله أهل النقل من الحُفَّاظِ من أصحاب النسخ في القرآن، ألم تسمعهم وهم يقولون إن الله سبحانه وتعالى وضع آيات في القرآن ثم قام بنسخها، وتغيير أحكامها، وإن أبقى عليها لفظًا، إلا أنها مجرد ألفاظ في القرآن نتعبد بها دون أن نطبق أحكامها! هي ألفاظ وكلمات وحروف موجودة في القرآن من باب الذكرى الخالدة!.

ما هذا التصور الغريب الذي يقوم على أن الله أنزل تشريعًا، ثم عنَّ له بعد ذلك أن يُجري تعديلًا تشريعيًا فأصدر تشريعًا ناسخًا للتشريع الأول، وكأن الله شكَّل لجنة إلهية لتدرس أحوال البشر، ثم وضعت هذه اللجنة تشريعًا رأت أنه يناسب أحوال الناس، ومع التجربة العملية ثبت عدم نجاح هذا التشريع! فقرر الله أن يتدخل ليحسم الأمر فوضع تشريعًا نهائيًا نسخ وألغى به التشريع الأول! هذا وأيم الله فساد في الرأى وسطحية في الفهم، بل وعبثية في تصورهم عن الله الحكيم الخبير.

فإذا قلت لهم: هذه «تصورات لله» إغريقية الصنع، إسرائيلية الهوى، تقترب من أخيلة اليونان عن آلهة «جبل الأوليمب» قالوا لك بل إنها عقيدتنا التي فهمناها من القرآن، ألم يقل الله تعالى في سورة البقرة «مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» الآية ١٠٦.

ها! ماذا تقول في ذلك؟ نعم أيها السادة الحُفَّاظ، قال الله ذلك في سورة البقرة بالفعل، ولكن هل قرأتم سورة البقرة؟ هل وعيتم ما فيها؟ هل عرفتم لمن كان الخطاب في آية «ما ننسخ من آية»؟ فلنفتح القرآن معًا، نعم أنا أثق في حفظكم ولكن اقرأوا من الآية رقم ٤٠ لتجدوا أن الله فَتَحَ من أول هذه الآية حوارًا مع بني إسرائيل، فبدأ الحوار بقوله: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ»، ويستمر حديث الله عن بني إسرائيل إلى أن يقول لهم: «ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها»، أي ما ننسخ من آية من آيات التوراة أو نجعلها نسيًا منسيًّا، إلا وأتينا بآية مثلها في القرآن أو خيرًا منها، ولذلك فإن هذه الآية لا تتحدث أبدًا عن إلغاء آيات القرآن بعضها البعض، بل عن إلغاء آيات القرآن لأحكام بعض آيات التوراة والكتب السماوية السابقة، فإذا كان اليهود قد كرهوا أن يُنزِّل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكامًا تلغي أحكام التوراة، كاستقبال بيت المقدس مثلاً، فالله تعالى يرد على هذا، مؤكدًا أنّ الآيات التي يلغيها من التوراة يأتي بخير منها، وأن ما ينساه اليهود من كتبهم، يُنزل اللهُ في القرآن خيرًا منه.

ثم إن كلمات «آية أو آيات أو آياتي» لم تكن مرتبطة في سياق ورودها بالقرآن منصرفًا إلا للآيات الكونية أو المعجزات التي أيد الله بها رسله، وحين أراد الله أن يربط كلمة «آية» بحسب أن من معانيها «الوحدة الواحدة من القرآن» ربطها بالقرآن مباشرة بشكل متلازم حتى لا يختلط في الأذهان الآيات الكونية بآيات القرآن الكريم فقال: «طس ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ» النمل: ١، وذلك حتى لا ينصرف الذهن للآيات الكونية والمعجزات، فنعرف بذلك أن معنى كلمة آية في أصلها هي «علامة» أو «أمارة»، ولا يجوز أن نفسرها بأنها وحدة كلامية من القرآن إلا إذا ربطها الله بالقرآن في سياق تلك الوحدة بأن يقول مثلاً: ما ننسخ من آية من آيات القرآن أو ننسها، ومع ذلك فسر العقل العربي كلمة «آية» في آية النسخ على أنها آية قرآنية وليست آية كونية!

وإذا تدبرنا القرآن وربطنا بين آياته، وقمنا بالإدكار «الذي هو ربط الشيء بالشيء» سنجد أن الله سبحانه ذكر بالويل هؤلاء المدعين بالنسخ في القرآن الكريم، هل تعرفون ماذا قال عنهم؟ قبل آية الوصية قال الله سبحانه في الآية ١٥٩ من سورة البقرة قولاً ينبغي أن نتفكر فيه ونتدبره، هو «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ» يكتمون ما أنزل الله من البينات من بعد أن بينها الله في الكتاب، والبينات هي الأدلة، هناك أدلة قطعية يكتمها بعض الناس لهوى في نفوسهم، أولئك قال الله إنهم يستحقون اللعنة، ثم لنا أن نقرأ الآية الأخرى رقم ١٧٤ من سورة البقرة التي يقول الله فيها «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَـٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »، يا الله، يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، يجب أن ننتبه لخطورة هذه الآية ولا نمر عليها مرور الكرام، فلم يقل الله إن الذين يُخفون ما أنزل الله ـ خذ بالك ـ فالإخفاء هو الزعم بعدم وجود الآية أصلاً، ولكن الكتم هو الإقرار بوجودها مع جعلها لا تنطق، أي غير قابلة للتنفيذ، وهذا هو النسخ الذي لا يُنكر وجود الآية ولكنه يكتم الآية ويقول إنها فقدت أثرها بآية أخرى أو بحديث منسوب للنبي، إي وربي، هذه الآية خاصة بأولئك الذين يكتمون ما أنزل الله، وهي من سياقها لا تنطبق إلا على من ابتدعوا القول بالنسخ، فالناسخ هو كاتم، كتم آية الوصية، وكتم آيات الرحمة، وهلم جرا.

ولنا أن نضرب الأمثال على هذا الكتم، أو ما تعارفنا على أنه نسخ، بمعنى الإلغاء، إذ يقول أصحاب النسخ إن آيات القتال في القرآن نَسخت آيات الرحمة! فأصبح الإسلام هو دين القتال لا دين الرحمة، فلك أن تضرب الصفح عن قول الله سبحانه في سورة البقرة «لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» الآية ٢٥٦، ولك أن تنسى إلى الأبد قول الله سبحانه «فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ»، فهذه آيات وضعها الله في زعمهم للمسلمين وقت أن كانوا ضعفاء، أما وقد قامت لهم دولة في المدينة فلا مكان إلا للسيف، ما هذا الذي يقولون؟! يقول الله لنا في سورة البقرة المدنية «وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»، فإذا قويت شوكة المسلمين إذا بالله يحب المعتدين ويأمر المسلمين بالاعتداء على غير المؤمنين! من وضع هذه الفكرة في ضمائر هؤلاء؟!، كيف يتصورون الله؟! يقول الله للنبي «وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا»، ثم يعاتبه بقوله «أَفَأَنتَ تُكْرِهُ

النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ»، ثم يعدل الله عن مشيئته هذه ويأمره في المدينة أن يُكْرِه الناسَ حتى يكونوا مؤمنين؟! هل يعرف أهل النسخ عمن يتكلمون؟

إن حديثهم عن آيات القتال التي يقولون إنها نسخت آيات الرحمة والحرية والسلام هو أبشع ما قاله مسلم عن دينه، فآية «لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» جاءت في سورة البقرة المدنية، أي في الوقت الذي تشكل فيه كيان المؤمنين بهذا الدين، وبدأ هذا الكيان في مواجهة الغزوات الكفرية التي شنتها قريش عليه، أما آية «وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» فإنها جاءت أيضًا في سورة البقرة، وهي تدل على ديمومة حكمها، إذ لا يعقل أن لا يحب الله الاعتداء فترة من الزمن ثم يحبه في فترة أخرى! سبحانه يغير ولا يتغير.

ولكن الأعراب الذين دخلوا الإسلام كتبوا بعد وفاة الرسول بأكثر من مائة عام عن سيرته، وقالوا عن تلك السيرة إنها مغازٍ، جمع غزوة، ولك أن تنظر في مغازي ابن إسحاق ومغازي الواقدي وغيرهما، وكأنهما كانا يكتبان عن مغازي عنترة بن شداد، وسيف بن زي يزن حاكم اليمن وغيرهم من أصحاب السيوف، ولكن القرآن قال لنا غير ذلك، فلم يكن النبي في زمنه غازيًا أبدًا، ولم يأمره الله بالغزو، ولكن أمره بالتذكير فقط «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ»، فإذا وصلت الحجة لهؤلاء وأيقنوا بهذه الرسالة، ثم أعرضوا عنها فالأمر بعد ذلك إلى الله وحده لا شريك له، وليس إلى أحد من البشر «إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ، فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ».

أما كون النبي لم يكن غازيًا فالمسألة جد بديهية، فالغزو لغة هو مصدر غَزَا، وأَغَارَ عَلَى العَدُوِّ غَزْوًا: أي سَارَ إِلَى مُحَارَبَتِهِ وَقِتَالِهِ فِي عُقْرِ دِيَارِه، وفي تلك الحروب التي قال الله عنها إنها «يوم» ـ لا غزوة ـ مثل قوله «ويوم حنين» وقوله «يوم التقى الجمعان» كان الكفار يجمعون جيشهم وعدتهم ويذهبون إلى المدينة لمحاربة النبي، حدث ذلك في بدر وأحد والخندق، أما «حُنين» فقد كانت بعد فتح مكة، إذ بعد الفتح تحركت بعض القبائل ضد الإسلام والمسلمين، وكان على رأس هذه القبائل هوازن، وثقيف، حيث توحدوا جميعًا وجمعوا جيشًا كبيرًا رهيبًا من أجل استئصال شأفة الإسلام والقضاء على المسلمين، وسار ذلك الجيش الغازي حتى وصل إلى مكان يبعد مسيرة يوم عن مكة، فأعد لهم النبي جيشًا

من المسلمين، فوقف الجيش المسلم في هذا اليوم موقف المدافع عن الإسلام والمسلمين ضد جيش جاء معتديًا وغازيًا، أما «مؤتة وتبوك» فقد كان النبي عليه السلام يدافع فيها عن الجزيرة العربية كلها ضد اعتداءات جيوش الروم عليها، وفي كل هذه الحروب كان القرآن يتنزل عليه ليرسم حدود المسلمين في الحرب، فقال لهم «وقاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين».

ولكن هل عرفنا من تلك السطور كل كوارث أهل النسخ؟ قد أصدمك لو قلت إنهم بالغوا بعض الشيء وزعموا أن الله أنزل آيات قرآنية، ثم رأى أن هذه الآيات قد لا تكون مناسبة لسبب أو لآخر فقام بإلغاء هذه الآيات بلفظها، ثم أبقى على حكمها، وهذا من الأشياء الطريفة! التشريع موجود وغير موجود! أوجده الله أولاً لفظًا وحكمًا، ثم تنازل عن الألفاظ إلا أنه أبقى الحكم! ومن باب تأكيد إلغاء الألفاظ أرسل الله بعض الحشرات لتأكل الحروف التي كتب المسلمون بها هذه الآيات في صحفهم، وفي أحوال أخرى سلط الله على الصحف التي كتبوا فيها تلك الآيات بعض الماعز لتأكل هذه الصحف، وبذلك يستريح الجميع وتختفي الآيات! ولكن من قال ذلك؟! جاء ذلك يا سيدي في كتب الصحاح وغيرهم! [8] بل من خلال بعض ما جاء في هذا الشأن نسخت الآيات المأكولة من الماعز آيات باقية في القرآن، هكذا قال علماء الحديث وأهل النسخ.

****

القرآن يا أهل النسخ كتابٌ أحكمت آياته، هكذا قال لنا الله سبحانه «كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ»، القرآن مُحكم أيها الناس ولو كان فيه نسخ ما كان محكمًا، لأن إلغاء بعض الآيات يتنافى مع معاني الإحكام، القرآن ليس فيه اختلاف، ولو كان فيه ناسخ ومنسوخ لكان فيه اختلاف، والله سبحانه يقول:»أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا»، القرآن ليس فيه أي تبديل لأي كلمة من كلماته، ولو كان فيه تبديل لكان معنى ذلك أننا نتهم الله بالكذب، حاشانا، ألم يقل

---

٨ هذا الحديث يرويه محمد بن إسحاق، ولفظه: (لَقَدْ أُنْزِلَتْ آيَةُ الرَّجْمِ، وَرَضَعَاتُ الْكَبِيرِ عَشْرٌ، فَكَانَتْ فِي وَرَقَةٍ تَحْتَ سَرِيرٍ فِي بَيْتِي، فَلَمَّا اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَشَاغَلْنَا بِأَمْرِهِ، وَدَخَلَتْ دُوَيْبَةٌ لَنَا فَأَكَلَتْهَا).

رواه الإمام أحمد في « المسند « (٣٤٣/٤٣)، وابن ماجة في « السنن « (رقم/١٩٤٤) ولفظه: (فَلَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَشَاغَلْنَا بِمَوْتِهِ دَخَلَ دَاجِنٌ فَأَكَلَهَا).

سبحانه: «وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا»، فكيف بعد ذلك كله يقولون إن الله وضع أحكامًا طلب من المسلمين أن يتبعوها ثم عدل عن حكمه بعد ذلك ووضع لهم أحكامًا أخرى مختلفة!

ولكنهم يقدمون لنا حجة جديرة بالرد، وهي أن فرض عليهم التحريم في بعض الحالات تدريجيًا، فقد تفشت فيهم عادة شرب الخمر، فكان يجب أن يبدأ الأمر بالنهي عن الصلاة وهم سكارى «لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ»، ثم بعد ذلك، بعد أن استقر هذا الفهم لديهم حرمها عليهم، وكأن الله اتبع معهم طريقة المصحات النفسية التي تعالج الإدمان، الإقلاع التدريجي عن الخمر الذي يستهدف وضع فاصل زمني بين المرة التي يشرب فيها والمرة التي تليها، ثم كان التحريم!!

فلماذا إذن لم يحرم عليهم الربا تدريجيًا، عامًا بعد عام، كأن يقول لهم مثلاً: لا تقربوا الربا في الأشهر الحرم!! الله حكيم خبير، وقد أنزل القرآن بلسان مبين ولكننا انحرفنا عن لسانه، وآية ذلك أن الله لم يقل في تلك الآية التي يقولون إنها آية «تدريجية»: لا تقربوا الصلاة وأنتم شاربين الخمر، ولكنه قال: وأنتم سكارى، والسكر حالة تصيب العقل سواء بسبب شرب الخمر أو لغير ذلك، فالسُكر هو إغلاق الشيء، مثل قولنا: سكرتُ الباب، أي أغلقته، فإذا انصرف إلى العقل يكون معناه غياب العقل، ومثل ذلك قول الله عن الكفار «وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا»، أي غابت عقولنا واختلط الأمر على أبصارنا، ولا يمكن أن نفهما أبدًا على أنهم يقولون: لقد شربت أبصارنا الخمر!!.

فماذا لو شرب وقت نزول هذه الآية المسلم خمرًا ولم يسكر، فهل يدخل إلى الصلاة سالمًا غانمًا وقد نال حظ الدنيا والآخرة؟! إنما السكر حالة من الممكن أن تصيب المريض فيغيب عقله وتركيزه الإنساني من شدة الوجع، وتصيب الذي غلبه النوم فأخذ يقاومه فإذا به يدخل الصلاة فتختلط الكلمات والآيات، فلا يعلم ما يقول، وهذا هو مناط الأمر «حتى تعلموا ما تقولون»، ذلك أننا حين ندخل إلى الصلاة يجب أن نكون بكامل وعينا الإنساني حتى تكون عندنا القدرة على أن نعلم ما نقول، وسيظل هذا النهي عن الدخول إلى الصلاة ونحن سكارى سواء كنا نشرب الخمر أو كنا في حالة غياب عن الوعي الكامل لأي سبب غير الخمر، ولذلك فإن هذه الآية ليست تدريجية، ولكنها نهائية وقاطعة وحاسمة.

سبحانه ربي يُغيّر ولا يتغير، يُبدلُ ولا يتبدل، وحين قال «كل يوم هو في شأن» كان
شأنه أن يرفع أقوامًا ويخفض أقوامًا

أبو الحسن البصري بتصرف

«٤»

تحريف أحكام الوصية عن طريق نسخها

((هل هذا دينٌ جديد؟! أهذا هو ما أنزله الله على نبينا محمد عليه السلام؟! فلننظر كيف فكر أجدادنا، وكيف حرَّفوا الكلمات عن مواضعها، هل كان لهذا التحريف أغراض سياسية ما، كتبوا كتاب الوصية بأيديهم ثم قالوا هذا من عند الله، ومن بعدهم ظلت الأجيال على تحريفهم وهم يظنون أنهم باتباعهم القدماء إنما يحسنون صنعًا، وتناسينا بهذا الاتباع قول الله تعالى في سورة المائدة « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ» الآية ١٠٤، أنزل الله آيات الوصية مطلقة فقيدوها، وحينما بحثوا عن سبب للتقييد لم يجدوا فحرفوا الكلام عن موضعه وجعلوها من المنسوخات)).

****

.أ.

ما هي قصة الوصية في دين الله؟ للوصية قصة تبدأ من الحرية التي أعطاها الله لنا لتنظيم حياتنا الدنيوية، فنحن أيها الناس عباد الله، أراد الله لنا الحرية في الحياة الدنيا، نتحرك في حياتنا ونختار لأنفسنا، ولم يضع الله لنا إلا أقل القليل الذي يلزمنا لتنظيم علاقاتنا، والحفاظ على حياتنا وأموالنا وعقولنا، أعطانا الله الحق في أن نورث أموالنا لمن نشاء، ولكي تكون لنا الحرية كاملة وهبنا حق الوصية، أن نوصي لمن نشاء دون قيد أو شرط، فإذا ما ظلمنا وجحدنا ولم نتحر العدل في وصيتنا حاسبنا الله يوم القيامة «وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا» **الإسراء ١٣**، أما المال الذي يتبقى بعد الوصية فقد وضع الله له قواعده التي نستهدي بها، ولنا أن نقرأ قول الله سبحانه في القرآن الكريم « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» **المائدة:١٠٦**.

والوصية واجبة وموجبة، طالما أنها تأمر بالمعروف، وهي الأصل، وذلك وفقًا لما قاله الله تعالى في كتابه الكريم عن توزيـــع الميراث إنه لا يتم إلا: (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ)، وقوله سبحانه: (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ) **النساء:١٢**.

والوصية حق مطلق للموصي، ولا يشترط في الوصية أن يتم توجيه المال للورثة، ولا يوجد نص يمنع من توزيعها على الورثة وفقًا لإرادة الموصي، كما أنه لا يشترط نصاب معين في الوصية، فإذا قال بعضهم إنها لا تجوز إلا في حدود الثلث فإن هذا يتعارض مع الحق المطلق للوصية الذي أورده الله سبحانه في القرآن دون نسبة ما، ولا يجوز لأحد أن يفهم حديث الرسول عليه الصلاة والسلام بشأن كيفية التصدق بثلث المال عن أنه حديث عن الوصية، أو تقييد حق الموصي، أو أنه تشريـع عام، ونحن في هذا الصدد لا ننكر حديثًا صحيحًا للنبي عليه السلام، طالما ورد في كتب الصحاح، ولكن لنا الحق أن نفهمه وفقًا لعباراته، ومدلول كلامه، ولا ينبغي لنا أن نحرف الكلم عن موضعه، كما أنه من الأحاديث ما يجوز اعتبارها تشريعًا لأمة النبي في زمنه، ومنها ما يجوز اعتبارها نصيحة شخصية

مرتبطة بحادث ما أو واقعة ما، أو ظرف إنساني لشخص بعينه دون غيره من أهل الأمة، فقد ورد الحديث الذي جعلوه تشريعًا لنصاب ثلث التركة كالآتي: عن عامرِ بنِ سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، عن أبيهِ سعد بن أبي وقاص رضِيَ اللهُ عنه قال «كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَعودُني عامَ حجَّةِ الوداعِ مِن وجَعٍ اشتدَّ بي، فقلتُ: إنِّي قد بلَغَ بي مِنَ الوَجعِ وأنا ذو مالٍ، ولا يَرِثُني إلَّا ابنةٌ؛ أفأتصدَّقُ بثُلُثَي مالي؟ قال: لا. فقلتُ: بالشَّطرِ؟ فقال: لا، ثمَّ قال: الثُّلُثُ، والثلثُ كبيرٌ- أو كثيرٌ-؛ إنَّك أنْ تَذَرَ ورَثتَك أغنياءَ خيرٌ مِن أنْ تذَرَهم عالَةً يَتكفَّفونَ الناسَ...»، فهذا الحديث خاص بالصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص، وكان مريضًا، وأراد أن يتصدق في حياته . وليس بعد وفاته . بماله كله، وكان له في هذا الوقت ابنة وحيدة، لا زالت صغيرة، لم تتزوج بعد وليس لديها القدرة على الكسب، فكانت كلمات النبي له بمثابة نصيحة شخصية لها خصوصيتها، متعلقة بالصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص فقط دون غيره، وليست تشريعًا عامًا يجب أن تلتزم به الأمة من أول زمن الدعوة إلى آخر زمن الدنيا حتى ولو تغيرت المواقف، أو الحالة الاجتماعية، كأن لم يكن للموصي أبناء صغار يعيشون في رعاية الموصي، أو لم يكن له ورثة ضعاف، كما أن هذا الحديث لو فرض جدلاً وكان متعلقًا بالوصية . وهو غير ذلك . لكان يجب أن يكون حديثًا عامًا يُخبر به الرسول كل الأمة، ويلقيه على مسامعها في خطبة جامعة، وليس حديثًا فرديًا في غرفة مغلقة لشخص مريض على فراش المرض يظن أن الله سيتوفاه حالاً وذلك من أثر المرض الذي أصابه، وقد يتوفاه الله بعد زيارة النبي له فلا يصل خبر هذا الحديث لأحد، وما فهمته أنا من هذا الحديث أن النبي كان يعلم الحالة الاجتماعية لهذا الصحابي الجليل، فكانت كلمات النبي له هي من الأمور الشخصية وليست التشريعية، وما كان النبي أن يضع تشريعًا للأمة يلزمها كلها يضع فيه قيدًا على ما أطلقه الله في القرآن الكريم، والذي يدل على ذلك أن هذا الحديث وإن ورد في كتب الصحاح إلا أنه من أحاديث الآحاد، وأحاديث الآحاد ظنية الثبوت، والقرآن قطعي الثبوت، والظني لا يمكن أن يفتئت على نص قطعي أو يضع له قيدًا.

والظاهر من كلمات هذا الحديث هنا هو أن له سبب ورود، أي سبب دعا النبي لقوله، هو حالة رجل مريض كانت له وقت مرضه ابنة وحيدة صغيرة تحتاج إلى الرعاية والإنفاق، وهذا الرجل أراد أن يتصدق بماله كله، فإن حدث هذا جدلاً فسيترتب على ذلك أن هذه الابنة ستُحرم من أن ترث أباها الذي كان سيتصدق بماله كله في حياته وحياتها، أما الوصية فأمورها غير ذلك، فالوصية هي تصرف مضاف إلى ما بعد الموت، ولا يعلم إلا الله من

سيموت قبل من، ولو فرض جدلاً وقال هذا الصحابي الجليل للنبي إنه يريد أن يوصي بماله لأوجه الخير.

لا أن يتصدق به في حياته. لقبل منه النبي هذا، إذ ربما مات وارثه قبل أن يموت هو، والذي يؤكد هذا أنه في مواقف أخرى قبل النبي أن يتصدق بعض صحابته بأموالهم كلها، ففي غزوة تبوك تصدق أبو بكر- رضي الله عنه- بماله كله ليتم تجهيز الجيش، وكان كل ماله وقتئذ أربعة آلاف درهم، وكان له أبناء لم يترك لهم شيئًا، وتصدق عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- بنصف ماله، وتصدق عبد الرحمن بن عوف- رضي الله عنه- بنصف ماله، وهكذا، قبل منهم النبي- عليه السلام- هذه الصدقات ولم ينههم عنها أو يشترط الثلث، وهذا يدل على أن حديث سعد بن أبي وقاص كان خاصًا بالصدقة أثناء الحياة وليس الوصية لما بعد الموت. وسنجد هذا كثيرًا في السيرة وفي أحاديث النبي، ومن ذلك حديث عمر بن الخطاب الذي أوردته كتب الصحاح، والذي جاء فيه عن عمر «أمرَنا رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أن نتصدَّقَ فوافقَ ذلِكَ عندي مالًا فقلتُ اليومَ أسبقُ أبا بَكرٍ إن سبقتُهُ يومًا قالَ فَجِئْتُ بنِصفِ مالي فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ما أبقيتَ لأَهْلِكَ قلتُ مثلَهُ وأتَى أبو بَكرٍ بِكُلِّ ما عندَهُ فقالَ يا أبا بَكرٍ ما أبقَيتَ لأَهْلِكَ فقالَ أبقيتُ لَهُمُ اللَّهَ ورسولَهُ قلتُ لا أسبقُهُ إلى شيءٍ أبدًا». والملاحظ أن حديث سعد بن أبي وقاص يتحدث عن صدقة وليس وصية وفقًا لما جاء بنص الحديث، وحديث عمر بن الخطاب كان عن الصدقة أيضًا، ومع ذلك قبل النبي منه ومن أبي بكر الصدقة رغم أنها في عُمَر تصل لنصف ما يملك، وفي أبي بكر تصل لكل ما يملك، ومع ذلك نصح النبي سعد بألاً يتصدق إلا بالثلث، وقبل من عمر النصف وقبل من أبي بكر الكل.

ولكن الذي حدث من القدماء سامحهم الله أنهم لم يحرفوا الكلم عن مواضعه في هذا الحديث فقط، ولكنهم بدلوا الكلم، وغيروه، فوضعوا الوصية مكان الصدقة، وأنزلوا حكمًا عامًا على الأمة يوافق هواهم، ونسوا حظًا مما ذُكّروا به من الأحاديث الأخرى التي قبل فيها النبي كل أموال بعض الصحابة أو نصفها، ونسوا آيات الله التي أطلقت الوصية ولم تضع لها قيد الثلث.

ما بال هؤلاء الناس يحرفون كلام الله وهم يظنون أنهم يحسنون صنعًا، وكأنهم يسدون نقصًا في كتاب الله، وما قدروا الله حق قدره، أيكتب الله علينا أمرًا، عندما يقول إنه كَتب

علينا، ثم نقول إن هذه الكتابة الربانية لا تلزمنا! المعروف أن دلالة الكتابة هذه تدل على التوثيق والفرض، فيقول مثلاً «كُتب عليكم الصيام»، فنعرف أن الصيام هنا فريضة من الفرائض الكبرى، ويقول لنا «كُتب عليكم القِصاص»، فنعرف أن القِصاص من أعلى الواجبات التي افترضها الله علينا حتى تستقيم الحياة ويقوم العدل، ثم يذكر الله في سورة البقرة آية للوصية فقال فيها: «كُتب عليكم إذا حضر أحدَكم الموتُ إن ترك خيرًا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقًا على المتقين»، وبداية الآية فيها إلزام بالوصية، وجاء الإلزام عن طريق كلمة «كُتب» وهي نفس الكلمة التي قال الله قبلها بثلاث آيات «كُتب عليكم القصاص»، وهي أيضًا نفس الكلمة التي قالها في آية الصوم بعدها بثلاث آيات «كُتب عليكم الصيام» أي هي في النصف بين القِصاص والصيام، ثم يأتي بعد ذلك من يقول إن الأمر الذي كتبه الله علينا بالوصية للوالدين قام بإلغائه، إذ يبدو أن التجربة في الصيام والقصاص نجحت ولكنها لم تنجح في الوصية! لذلك فإن الله نسخ آية الوصية بآيات المواريث، ثم نسخ الوصية أيضًا بحديث نسبوه للنبي فهموا منه أنه «لا وصية لوارث» و«لا وصية إلا في حدود الثلث» وهذا كله محض كلام ظني لا يمكن أبدًا أن يقوله عاقل يعرف الله سبحانه حق المعرفة، فإن الظن لا يغني من الحق شيئًا.

الوصية أيها الناس قائمة، وهي للوالدين وللورثة، وهي الأصل الذي يَجُب أحكام الميراث، وللمسلم أن يوصي وفقًا للقرآن كلام الله سبحانه بكل ماله، الوصية أيها الناس لا يمكن أن ينسخها إنسان لأن الذي أوجبها علينا هو رب الناس، الوصية يا ناس لم تنسخها آية أو حديث، وآيات المواريث ما فتئ الله يقول في نهاية كل آية من آياتها «من بعد وصية يُوصِي بها أودين»، و«من بعد وصية يوصين بها أو دين»، و«من بعد وصية يُوصَى بها أو دين»، أي أنه يتم استخراج الديون والوصية من مال التركة ثم تقسم التركة بعد ذلك على الورثة وفقًا للأنصبة الشرعية، فكيف وأيم الله تكون هذه الآيات ناسخة لآية الوصية المكتوبة علينا للوالدين والأقربين أي للورثة، أليس الوالدين ورثة؟!، الله يا خلق الله ليس كمثله شيء، كل خلقه يرد عليهم التغيير وهو صمد لا يتغير، يا من تتكلمون باسم الله، هل تعرفون الله؟.

****

- ب -

تحريف الوصية عن طريق الحديث

يقول أصحاب النسخ إن الحديث يمكن أن ينسخ القرآن، أي أن الحديث الشريف يمكن أن يلغي حكمًا من أحكام القرآن الكريم، ورتبوا على ذلك أحكامًا كثيرة، وضربوا ببعض آيات القرآن عرض الحائط، ولأننا في هذا المبحث لا نتعقب كل ما نسخوه بالحديث إذ أن الوصية كانت هي التي تعنينا في هذا المقام، لذلك فإننا سنبحث معًا أصل هذا التأصيل الشيطاني، نسخ الحديث للقرآن، وقد اعتمدوا في ذلك على حديث المقدام بن معد يكرب أن رسول الله عليه السلام قال: أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبعَان عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيكُم بِهَذَا القُرآنِ، فَمَا وَجَدتُم فِيهِ مِن حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدتُم فِيهِ مِن حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ»، وقد استند مالك والشافعي وابن حنبل وفريقٌ من الأصوليين على هذا الحديث في جواز تخصيص القرآن بالحديث، وجواز نسخ القرآن بالحديث، مع أن البادي من ألفاظ هذا الحديث يمكنه أن يوقن أن النبي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقول هذا الحديث، فكلمة «شبعان على أريكته» ليست من أنوار النبوة، فكلمات النبي لها أنوارها، أيمكن أن يتصور أحد أن النبي يقول حديثًا يسخر فيه من رجل ما، مجهولاً أو معلومًا، ويقول إنه شبعان على أريكته، الذي يعرف لسان العرب يدرك أنها كلمات ساخرة وما كان النبي ساخرًا أبدًا، أيمكن أن يكون هذا حديثًا؟! ولكن حين يشتد الجدل داخلي تباغتني آية قرآنية في سورة الزمر يقول الله تعالى فيها «الله نزَّل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله» (الآية ٢٣)، يا ربي! ما هذا؟ كتابك يا رب هو أحسن «الحديث» الله وصف كتابه بأحسن الحديث، خذ بالك معي، فأنا وأنت قد نظن أن هذا الأمر عادي، ولكن لأن القرآن يفسر نفسه اقرأ الآية الأخرى الواردة في سورة المرسلات والتي يقول الله فيها « فبأي حديث بعده يؤمنون» القرآن أيها الناس هو أحسن الحديث، هل سمعتم؟! ورب العزة يقول في آية فيها تعجب « فبأي حديث بعده يؤمنون»! المعنى شديد الوضوح، ولفظ الحديث المستخدم في القرآن هو

موضع التفكر والتدبر، حديث الله هو الحديث وليس أى حديث من أى شخص آخر مهما كان هذا الشخص ومهما كانت قداسته.

ندخل إلى نقطة أخرى جديرة بالتفكر والتدبر، إذ لنا أن نضع تعريفًا جامعًا مانعًا للقرآن الكريم فنقول إن اسمه ليست له سابقة في لسان العرب، وليس له تالٍ، هو الاسم الوحيد الدال على كتاب الله الذي أنزله على سيدنا محمد، عليه السلام، يحتوى على مائة وأربع عشرة سورة، ويحتوى على ثلاثين جزءًا، وعدد كلماته كذا، وعدد حروفه كذا، وفيه سور وآيات مكية نزلت في مكة هي كذا وكذا، وسور وآيات مدنية نزلت في المدينة هي كذا وكذا، أول آية فيه كانت كذا، وآخر آية فيه كانت كذا.

ولكن هل نستطيع أن نضع تعريفًا مماثلاً للحديث الشريف، فتقول إن عدد الأحاديث كذا، أوله حديث كذا وآخره حديث كذا، أحاديثه المكية هي كذا وأحاديثه المدنية هي كذا؟ والأسباب التي قال النبي فيها هذه الأحاديث هي كذا وكذا، دون هذا المستحيل، لأننا سنبدأ أولًا في تصنيف الأحاديث بشكل مختلف، فنقول إن هذا حديث متواتر وهذا حديث آحاد، وهذا حديث مقبول وآخر مردود، وذاك صحيح وهذا حسن، وهذا ضعيف لكن صححه فلان، وهذا صحيح ضعفه فلان، وهؤلاء ما بين مرفوع ومقطوع وموقوف، هذا النوع من الأحاديث نأخذ به، والآخر لا يعمل به إلا في محاسن الأخلاق، وهذا نتركه، وذاك نرفضه، والآخر موضوع عند فلان وصحيح عند علان، وضعيف عند آخر، وهكذا إلى ما لا نهاية.

الآن هل تعلم لماذا لا تستطيع أن تضع كيانًا محددًا للحديث الشريف؟ لأنه تابع للقرآن الكريم وليس شيئًا مستقلًا بذاته، ولأنه في بعضه كان عبارة عن تربية وتعليم للجيل الأول المعاصر للنبي، كيف هذا؟ فلتبحث معي يا من تبحث عن الحقيقة لتعرف أن الحديث دون القرآن، وأن الرسول لم يضع في الأحاديث تشريعًا، ولم يحرم أو يحل.

هل تظن يا صاح أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الكريم على رسوله وفيه نقص أو غموض.. أو أحاجٍ تحتاج إلى من يفك طلاسمها؟! لو كان ذلك ما قال الله سبحانه عن القرآن «تلك آيات القرآن وكتاب مبين»، وما قال «ألم تلك آيات الكتاب المبين»، وما قال «ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شىء»، ولو كان في القرآن شبهة نقص يحتاج إلى إكماله

من خارجه لما قال الله تعالى «وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، ومثل ذلك من الآيات الدالة على أن القرآن وصل إلى الكمال والتمام.

أما السُنة النبوية فلها مرتبتها العملية لا شك في ذلك، ولكنها دون القرآن، ولذلك فإن السنة ليس لها أن تُشرع تشريعًا دينيًا من دون القرآن، وليس لها أن تُحل وتُحرم، أو تضيف أحكامًا لم ترد في القرآن، فالحرام ورد كله في القرآن الكريم، ولا يجوز الإضافة عليه، حتى أن النبي عندما حرَّم على نفسه العسل أنزل الله عليه قرآنًا قال فيه «يا أيها النبي لما تحرم ما أحل الله لك»، لذلك فإن النبي له على من آمن به من قومه في زمنه الأمر والنهي، فالنهي عن إطالة الثوب ليس من باب التحريم، ولكن النبي كان ينهى عن ذلك لتربية جيل الصحابة وإبعادهم عن الكبر، ونفس الأمر بالنسبة للتماثيل، حيث كانوا قريبي عهد بالوثنية والأصنام، وقُل الأمر نفسه عن الذهب والحرير، كلها من باب النهي أو الأمر التربوي، لا من باب الحلال والحرام، وقد فهم الصحابة ذلك، فعندما نهى النبي عن حبس ضالة الإبل فهموا مقصده وامتثلوا للنهي، وعندما مرت سنوات وتبدلت الأحوال غيَّر سيدنا عثمان من نهي النبي وأصدر أمرًا بحبس ضالة الإبل، ولذلك لك أن تعرف أن النبي كان له أن يضبط قوانين مجتمعه بعيدًا عن الحلال والحرام، وهو الذي عليه أن يضبط العلاقات بين الناس، لذلك قال الله له:

«وأؤمر بالعرف»، والعرف هو ما تعارف عليه المجتمع من غير أن يكون حرامًا، فلك يا نبي الله تلك المساحة الواسعة تأمر وتنهى فيها من خلال أعراف مجتمعك والقواعد الكلية في الرسالة، ولكنه أيضًا لا يستطيع أن يأمر مجتمعات مستقبلية بأعرافها المستقبلية، ومن هنا لك أن تعرف أن سيدنا محمد كان رسولًا نبيًا، فهو الرسول الذي يبلغ الرسالة، وهو النبي الذي يقوم بتفعيل آيات الرسالة بين مجتمعه، وضبط قوانين مجتمعه.

ولكن يقابلنا الحديث الذي أشرنا إليه في البداية وهو «ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه»، وأظن أن من وضعوا هذا الحديث أرادوا أن يجعلوا للحديث مرتبة موازية للقرآن، أرادوه يحل ويحرّم، أليس هو بهذه المثابة وحيًا من الله لرسوله، وما فعلوا ذلك إلا لأن آية «إن هو إلا وحي يوحى» خاصة بالقرآن الذي أوحاه الله للرسول فليكن الحديث هو الآخر داخلًا في نطاق «إن هو إلا وحي يوحى»، وهذا الحديث «ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله

معه» من أعجب ما تقوَّلوه على النبي، عليه السلام، لذلك وقعوا في العديد من الأخطاء التي لم يجدوا لها حلًا، إذ معنى هذا الحديث أن الله أعطى مِثل القرآن للرسول ليكون متممًا للنقص الذي فيه! فإذا افترضنا هذا جدلًا فلماذا يا هذا لم يأمر الرسول بكتابة هذا الذي هو «مثل القرآن»، ولماذا قال «لا تكتبوا عني شيئًا غير القرآن»؟ وهل يجوز أن يترك الرسول صاحب الرسالة نصف الوحي يتناقله الناس بلا ضابط أو رابط، ينساه هذا ويتزيد فيه ذاك دون أن يكون محفوظًا في كتاب؟، وهل يجوز أن نقول إن الصحابة تركوا نصف الوحي بغير تدوينه في كتاب يُسمى «مثل القرآن»؟

ولعلنا الآن قد عرفنا أن كارثة الكوارث التي تقض مضاجعنا والتي كانت أكبر حيلهم في تحريف الدين هي قولهم عن النسخ في القرآن الكريم، فما قصتهم مع تبديل معاني الكلمات ليستخرجوا لنا أحكامًا تنقض الشعائر التعبدية؟ سنستمر معًا لنعرف.

«٥»

تحريف مفهوم الرؤية

((«ألم تر»، إذن ألم تر القرآن العظيم بين أيدينا وقد اتخذناه مهجورًا، ألم تر الإسلام وقد انطلق نوره للعالمين فجعلناه سيوفًا وقبورًا، سأظل أكتب ألم تر ألم تر، ولا أظن أن معظمنا سيرى، فقد جعلنا على الإسلام حجابًا كثيفًا يمنع البشر من رؤيته على حقيقته، أو بالأحرى من رؤيته أصلاً، ثم قلنا للناس آمنوا بهذا الذي لا ترونه، أو آمنوا بهذا الذي لا ترون منه إلا السيف والقبر! آمنوا بهذا الدين الذي له شركاء في التشريع، فأقوال الصحابة دين، واجتهادات التابعين دين، وفقه الفقهاء دين، نسبنا معارف الإنسان وفهمه للدين فإن آمنت بالقرآن والحديث الصحيح، فإذا رفضت أقوال الصحابة واجتهادات التابعين وفقه الأولين فأنت كافر! والكفر عندهم ليس هو «معرفة الحق ثم إنكاره وجحده»، ولكن الكفر عندهم هو «عدم الإيمان بما يؤمنون هم به»!.

فغير المؤمن بالله يسير في ظلام فأنَّى له أن يرى، ومن بيدهم إنارة الطريق أمامه يفقأون عينيه، ومن يغمض عينيه يفعلها عمدًا حتى لا يرى النور، فهل يستويان مثلاً مصداقًا لقوله تعالى «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ * هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ»؟ وفي هذه الآية أورد الله سبحانه وتعالى الأشياء المتناقضة، ليحكم من يتدبر القرآن، وليتفكر في الفارق بين الذي يرى ومن هو أعمى، وكذلك بين من يسمع ومن هو أصم، ثم يقول لنا «هل يستويان مثلا».

الرؤية إذن هي المفتاح، والرؤية ليست حالة بصرية، هي تختلف عن المشاهدة البصرية، إذ أنها حالة إنسانية متصلة بالعلم والمعرفة، ومن ظن أن كلمة رؤية تعني المشاهدة البصرية فهو واهم)).

****

نتفق على أن لسان القرآن أعجز العرب لأنهم أدركوا أن هذه الدقة في توظيف الكلمات لا يستطيعها بشر، ولذلك عجز المسلمون الأوائل بدورهم عن فهم تلك الوظيفة، لأنها كما أعجزت العرب وهم عرب أهل جاهلية، فقد أعجزتهم أيضًا وهم من المسلمين، فقد كانوا جميعًا في جاهليتهم يعيشون في مجتمعات قبلية تعج بالعنصرية والطائفية والحماس للقبيلة، فكان الشاعر الجاهلي «عمرو بن كلثوم» مثلاً وهو من أصحاب المعلقات يقول متفاخرًا بقبيلته:

لنَا الدُّنْيَا ومَنْ أمْسَى عَلَيْها **** ونَبْطِشُ حَينَ نَبْطِشُ قَادِرِينا

بُغَاةٌ ظَالِمينَ وَمَا ظُلِمْنَا ******** وَلكِنَّا سَنَبْدَأُ ظَالِمينَا

مَلأنَا البَرَّ حَتَّى ضاقَ عَنَّا ****** ونَحْنُ البَحْرُ نَمْلَؤُهُ سَفِينا

إذا بَلَغَ الرَّضِيعُ لَنَا فِطامًا ****** تَخِرُّ لَهُ الجَبابِرُ ساجِدِينا

فما بالك بناسٍ هذا هو كِبرهم وفخرهم وإحساسهم بعظمتهم، كيف يقومون بفهم كلمات القرآن بعد إسلامهم؟ وما تزال دعاوى الجاهلية تتردد بين صدورهم، حتى أن النبي قال لأحدهم بعد أن سب أخاه المسلم: «إنك امرؤ فيك جاهلية»، كيف سيفهمون القرآن ويدركون المراد من كل كلمة من كلماته وهم لم يتعودوا إلا على الشعر الذي يُغيِّر فيه الشاعر الكلمات فيضع كلمة مكان أخرى لكي لا يختل البحر الشعري ووزنه، والقافية ولزومها، خاصة وأن نظم القرآن كان غريبًا عليهم، فلم يكن شعرًا، ولم يكن نثرًا مما تعودوا عليه وألفوه، ولكن كان له نظمه الخاص به الذي لم يكن له سابقة، ولم يكن له لاحقة، ففهموه بنفس الوسيلة المعرفية التي كانوا يفهمون بها الشعر، ولنا أن نضيف إلى ما سلف أن العرب حينما انبهروا بنظمه أرادوا أن ينسبوا مفرداته اللفظية للهجاتهم، فقال بعضهم إن القرآن نزل بلغة قريش، ألم يكن الرسول قرشيًا، وحاول البعض من باب التوفيق توزيع كلمات القرآن وفهم لسانه على قبائل العرب حتى لا يغضب أحدٌ منهم، فقالوا إنه نزل على سبعة أحرف هي أحرف قبائل العرب الكبيرة، وأغلب الظن أنهم حينما فعلوا هذا استعاروا قصة نبينا محمد وهو بعد شاب لم يُبعث بالرسالة حينما وفق بين العرب إذ اختلفوا في من يحمل منهم الحجر الأسود ويضعه في مكانه بالكعبة، فوضع الحجر على

ثوبٍ وطلب من زعماء القبائل حمل الثوب والذهاب به إلى موضعه ثم قام هو بأخذه من الثوب ووضعه في مكانه، وأغلب الظن أيضًا أن المسلمين الأوائل كان مغروسًا في ضمائرهم وهم يوزعون كلام القرآن توزيعًا على لهجات العرب ما فعله الكفار حينما أرادوا قتل النبي فأخذوا من كل قبيلة فتى شابًا نسيبًا حسيبًا وحمل كل واحد منهم سيفه ليتفرق دمه بين القبائل بعد قتله، هذا هو منطق توزيـع كلمات الله القرآنية بين قبائل العرب، حتى أنهم أرادوا أحيانًا توزيع بعض الكلمات خارج اللسان العربي فزعموا أن بعض كلمات القرآن كانت أعجمية ولكن دخولها في القرآن عرَّبها، ولذلك تفرق كلام القرآن بين القبائل العربية ثم وصل إلى العجم، مع أن الله قال في كتابه بوضوح تام «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ» **سورة فصلت الآية ٤٤**.

ولكي يكون معنى تحريف الكلم عن مواضعه أكثر وضوحًا في التطبيق العملي، وأكثر ارتباطًا بطريقته في إفساد شعائر الدين نفسها سنتكلم هنا عن الصيام[1] وعن الذي فعلوه حينما قاموا بتحريف كلمة «الرؤية» والتي يتعلق بها رؤية الهلال، ومن هذه الرؤية تتحدد بدايات ونهايات الشهور العربية، ويترتب على ذلك تحديد مواعيد صيام رمضان وعيد الفطر وحج بيت الله الحرام، والأشهر الحرم وما إلى ذلك من الأمور التي ترتبط شرعًا برؤية الهلال، وما دخلت بكم في غمار هذه الكلمة كأول مثال تطبيقي إلا لكي أبين مدى فداحة فهم كلمة عربية واضحة جدًا، ورد معناها عيانًا بيانًا في القرآن، ومع ذلك فهمها الفقهاء بشكل مختلف عن اللسان القرآني، وانصرفوا منه إلى معنى بعيد، حتى أن كبار فقهاء الأمة ظلوا إلى الآن على المعنى المُحرف من قرون طويلة دون أن ينتبهوا إلى دلالة كلمة «الرؤية» في القرآن الكريم.

فقد تتابعت معظم آراء العلماء على أن رؤية الهلال الذي يحدد بداية الشهر العربي على أنها يجب أن تكون بالبصر، ليس هذا فحسب، بل يجب في رأي البعض أن تكون الرؤية قاصرة على البصر المجرد دون الاستعانة بآلة أو عدسة لتقريب المسافات أو دون الاستعانة بالمراصد والحسابات الفلكية لإدراك الهلال!

والحجة التي يستند إليها أصحاب هذا الرأي هي الأحاديث الصحيحة التي سنوافقهم عليها وسنتفق معهم على أنها قطعية الثبوت. إلا أنها قطعًا ظنية الدلالة. ومنها ما أورده

البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة حيث قال: قال رسول الله: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غبي عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين»، وفي لفظ «صوموا لرؤيته فإن غمي عليكم فعدوا ثلاثين» رواه أحمد، وفي لفظ: «إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فافطروا فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يومًا» رواه أحمد ومسلم وابن ماجه والنسائي، وفي لفظ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين ثم أفطروا» رواه أحمد والترمذي، وفي لفظ: أن رسول الله ذكر رمضان فقال: «لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غمّ عليكم فاقدروا له» رواه البخاري.

هذه الأحاديث في رأي أصحاب «رؤية الهلال بالعين المجردة « تدل على تعليق الصوم والفطر على رؤية هلال رمضان وشوال رؤية عينية بصرية، وقد أجاز البعض مثل ابن باز وابن عثيمين الاستعانة بالعدسات التلسكوبية، واشترط الألباني أن تكون الرؤية بصرية أي بالبصر دون الاستعانة بوسيلة رؤية معرفية أخرى، إلا أنهم لم يجيزوا الرؤية عن طريق الحسابات الفلكية العلمية، أو الأقمار الصناعية أو غيرها من الطرق العلمية الحديثة.

ومن عجب أن الأحاديث المُستدل بها قد وردت بها ألفاظ الرؤية على إطلاقها دون أن تتقيد بالبصر، فما هو السبب النحوي أو الصرفي أو البلاغي الذي صرفها إلى الرؤية البصرية دون غيرها من وسائل الإدراك؟! سنقطع يقينًا بأنه لا يوجد أي سبب لذلك! بل إن المعروف والمفهوم هو أن الرؤية أوسع وأعم وأشمل من المشاهدة والبصر والنظر، ولا يجوز الاستناد إلى قول النبي «فإن غم عليكم فاقدروا له» لأن غم الهلال على الناس أو ستره قد يكون لقوم ليست لديهم إمكانيات الرؤية العلمية فماذا يفعلون حينئذ؟ يفعلون ما أمرهم به النبي في الحديث، أما الذين يمتلكون كل الممكنات العلمية والعقلية والحسابات العلمية والفلكية والمراصد وغيرها مما ستتيحه العلوم المستقبلية لهم فلن يغم عليهم.

هذا عن شبهة «إن غم علينا الهلال» أما وقد وردت الرؤية في الأحاديث على العموم فينبغي أن تُفهم على سياق هذا العموم دون أن نضع لها قيد البصر، فالرؤية في اللسان العربي المبين غير النظر والبصر والمشاهدة، وقد وردت الرؤية في كثير من الآيات في القرآن الكريم على نحو يدل على الإدراك بحاسة غير حاسة البصر، وتدل على الإدراك بالفؤاد والعقل والعلم، ومن ذلك قول الله سبحانه وتعالى في سورة النحل «وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون» **الآية ٨٥**، والمراد برؤية العذاب إشرافه عليهم،

وإشرافهم عليه بعد فصل القضاء، والكثير من آيات «ألم تر» لا خلاف على أن معناها ألم تعلم، فالرؤية هنا هي العلم مثل قوله تعالى في سورة البقرة «ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى» **الآية ٢٤٦، أي** ألم يصل إلى علمك.

وقوله سبحانه في سورة الفيل «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل»، وفي سورة الفجر «ألم تر كيف فعل ربك بعاد» أي ألم تعلم. وقوله في سورة النجم «ما كذب الفؤاد ما رأى» والذي رأى هنا هو الفؤاد وليست العين.

وهناك آيات الرؤيا التي يدرك الإنسان فيها ويشاهد الأشياء وهو في سبات عميق وعيناه معطلتان عن النظر، مثل قوله سبحانه وتعالى في سورة يوسف «وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف» **الآية ٤٣**، والرؤية هنا كانت في نومه والإنسان يرى في منامه بفؤاده وليس ببصره، وقول يوسف عليه السلام «يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين» **الآية ٤**.

وقوله سبحانه في سورة الصافات على لسان سيدنا إبراهيم «قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى» **الآية ١٠٢**، ولو كنا في مجال الإحصاء لأحصينا الكثير والكثير ولكن المقام لا يتسع.

أما الكلمة في اللغة التي تعني إدراك الأشياء بالعين فهي البصر كقوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة «وتركهم في ظلمات لا يبصرون» **الآية ١٧**، وفي سورة الأعراف «ولهم أعين لا يبصرون بها» **الآية ١٧٩**، وفي سورة طه « قال بصرت بما لم يبصروا به « **الآية ٩٦.**

وتستخدم كلمة البصر ومشتقاتها أحيانًا للدلالة على الوضوح مثل قوله تعالى في سورة يونس «هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا» **الآية ٦٧**، وهذه الآية في حد ذاتها تشير إلى أن الأيام والشهور والسنين إنما تكون من توالي الليل والنهار، ومن هذا التوالي نعرف العلوم الفلكية التي نحسب بها عدد السنين.

وفي سورة الإسراء «وجعلنا آية النهار مبصرة» **الآية ١٢**، أما كلمة النظر فتستخدم لغة أيضًا للدلالة على اتجاه الإنسان بعينيه إلى الأشياء، ففي سورة البقرة «وإذ فرقنا بكم

البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون» **الآية ٥٠**، وفي سورة الأعراف « وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون» **الآية ١٩٨**، والآية هنا اشتملت على النظر والبصر، ذلك أن النظر هو توجه العين إلى الشيء، فنقول نظر إلى القمر فأبصره، وأبصره هنا من المشاهدة بالعين ونقول: رغم أنه نظر إليه فإنه لم يبصره، كما جاء في سورة الأعراف «وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون».

ومما سبق يتضح لنا أن كلمة «الرؤية» في اللسان القرآني عظيمة الاتساع في معانيها، والمعنى الأعلى لها هو الإدراك والفهم والعلم، فلماذا حدث الانحراف عن معاني إدراك العلم والمعرفة فيها وحصرها على النظر بالعين فقط، وأحيانًا بالعين المجردة دون الاستعانة بأي وسائل علمية تحقق لنا اليقين في ميلاد الهلال؟!

هذا أحد أوجه الانحراف في فهم كلمة من اللسان القرآني وكيف ترتب على هذا الانحراف تغيير بدايات الشهور لعجز النظر والبصر والعين عن مشاهدة الهلال، فصمنا في بعض السنين على أن هناك بعضًا من آحاد الناس زعموا أنهم رأوا الهلال وهم لم يروه ومستحيل أن يكونوا قد رأوه لأنه لم يكن قد ولد بعد، ولم نصم في بداية شهر رمضان في بعض السنين لأن البعض زعم أن بصرهم لم ير الهلال، وهو كان قد تربع في مكانه في كبد السماء ولكن أخفته غيمة من الغيوم عن أبصارهم، ووقفنا سنوات وسنوات في عرفات في يوم ليس هو يوم الوقفة لأننا دخلنا إلى شهر « ذي الحجة» في غير موعده إما قبل مولد الهلال، أو بعد مولده بيوم، وهكذا.

فإذا كان ما أدخلونا فيه بخصوص الرؤية لم يقم على رؤية لسانية وعقلية صحيحة، فما ظنكم برحمة الله، كيف فكروا فيها؟ وما الذي فعلوه بها؟، هذا هو ما سنعرفه.

****

إذا كنا لا نستطيع تصور الله، فكيف نتصور رحمته وسعتها وامتدادها، اتسعت رحمته وضاقت رؤيتنا

«٦»

تحريف الرحمة بلا رحمة

((ما أنزل الله رسالاته على المرسلين إلا لكي تكون رحمة وسلامًا، وما كان الأنبياء أنفسهم إلا رحمة، فكيف تحولت الأديان إلى صراعات وحروب؟! كان هذا من فعل الشيطان الذي قعد لنا على الصراط المستقيم، ولكي نواجه كيد الشيطان فإننا نحتاج إلى التأكيد على المقاصد العليا للإسلام، تلك المقاصد التي لم ينظر إليها أحد، ولم يسع لتأصيلها علميًا إلا قليل، وهي تدور حول التراحم، والحرية، والعدالة، وتعمير الأرض، وحفظ الكرامة لكل إنسان، ثم نحتاج بعد ذلك أن نضع فاصلاً بين الإسلام والمسلم، فالمسلم له وعليه، سلوكه وفكره يحسب له وعليه، عدله وظلمه يحسب له أو عليه، علمه وجهله يحسب له أو عليه، سيفه ورحمته يحسب له أو عليه، والعالِم من المسلمين، في أي علم من العلوم النظرية أو التطبيقية مهما كان قدره ما هو إلا رجلٌ علم أشياء وجهل أشياء، ولا ينبغي أن ننسب ما علمه إلى الإسلام، فلربما يتضح لنا ذات يوم أن علمه هذا لم يكن إلا وهمًا أو ظنًا، لذلك فإن العالم مهما علا فإنما علمه لنفسه وجهله عليها. لذلك ينبغي لنا أن نقوم بترسيخ مفاهيم إنسانية عبر خطاب ديني جديد يتخلص من شخصنة الإسلام، ويتحرر من المصطلحات المغلوطة، ويقبل التنوع والاختلاف، وتكون ملامحه قائمة على أنه ليس لأحد الادعاء بامتلاك الإسلام، أو أنه صاحب الفهم الوحيد للدين، فالإسلام نزل ليصلح للبدوي في القرن الأول الهجري، وللأوروبي والأمريكي في القرن الحادي والعشرين وإلى أن تقوم الساعة، ومن المستحيل أن ينتظم الجميع في فهم واحد، ومع ضبط المصطلحات ينبغي أن نحقق على أرض الواقع مقاصد الإسلام العليا المتعلقة بالرحمة والعدل والسلام والحرية

وتعمير الأرض، فإن فعلنا هذا فقل إننا وضعنا أقدامنا على أول الطريق، وإلا فقل علينا وعلى أمتنا السلام، واطلب لها الرحمة كما تطلبها للأموات، ولا تنسَ حينئذ أن تترحم على الأموات من أهل الغرب من غير المسلمين، فهم الذين عمَّروا الأرض.))

****

بألسنتنا نقول للدنيا إن الإسلام دين الرحمة، ولكن هل نؤمن بذلك حقًا؟ لا أتكلم هنا عن رأي هنا أو رأي هناك، ولكنني أتحدث عن العقلية الجمعية، وأيضًا عن الخطاب الديني الذي أصبح سائدًا بين المسلمين، وإذا كانت رحمة الإسلام أمرًا حقيقيًا لاشك في هذا، إلا أن عقلية سادت وتسيدت تعسفت في فهم النصوص، وانحرفت عن معانيها لتجعل من الإسلام دين الحرب والقتال، وحوَّلته إلى دين النقمة والعذاب والوعيد، قرأ الأوائل ومن تبعهم عبر أجيال وأجيال إلى يومنا هذا قول الله سبحانه وتعالى عن الكفار في سورة التوبة «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ « **الآية ٨٠**، ففهموا منها أنه لا يجوز الاستغفار إلا للمسلمين فقط، أما غيرهم فلا يجوز لنا أن نشملهم بأدعية الاستغفار، مع أن الآية تكلمنا عن مدى جدوى الاستغفار للكفار، وقرأوا قول الله في سورة التوبة «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» **الآيتان ١١٣، ١١٤**.

فتشدد المسلمون في الفهم وغفلوا عن أن تلك الآيات تتحدث عن المشركين وليست عن أهل الكتاب، وهي أيضًا عن الاستغفار وليست عن الترحم، والمغفرة غير الرحمة، أما إبراهيم فقد تبين له أن أباه عدو لله، فتبرأ منه، فكف عن الاستغفار له، فوقع في ظن المسلمين أن قلوبنا لا ينبغي أن تتمنى المغفرة لمن يحبونهم من أهل الكتاب.

وضعوا الكل في جراب واحد، وأنزلوا عليهم حكمًا واحدًا، فمن هذه الآيات قال الفقهاء إنه لا يجوز الترحم على كل الأموات من غير المسلمين، وضعوا الجميع في جراب واحد وأطلقوا عليهم حكمًا واحدًا، ولك أن تلاحظ أن الآيات السالفة تتحدث عن الاستغفار، ولم يرد فيها كلمة الرحمة أو الترحم، كما لك أن تلاحظ أن الآيات ليس فيها أي نهي أو تحريم عن الاستغفار نفسه فما بالك بالترحم؟!

ومن هنا جاء دور تحريف الكلم عن مواضعه، فلو فرض جدلاً وكان النهي هنا هو حكم خاص بالاستغفار، ولو فرض جدلاً أيضًا أن النهي عن الاستغفار يشمل غير المسلمين، كلهم جميعهم، فكيف يصبح النهي شاملاً الترحم مع أن للاستغفار معناه وللرحمة معناها!! وكأنهم جعلوا من أنفسهم قيمين على رحمة الله يوزعونها كيف يشاءون!.

معظم الفقهاء. قديمًا وحديثًا. قالوا في تأويلهم لآيات «الاستغفار» إنه «غير المسلم لا يجوز أن يُدعى له بالرحمة، ولو فرض أنه كان يُصلِح الطرق ويعمر الأرض وينفع المسلمين فإن عمله غير مقبول، ومن دعا له بالرحمة فقد خرج بهذا عن سبيل المؤمنين»[٩]!! وبتلك النظرة السطحية الموغلة في السذاجة والموصومة بالعنصرية يُظهرون الإسلام الذي أنزله الله على نبينا محمد وكأنه «سجن إنساني» يجوز الدخول فيه ولا يجوز الخروج منه، وهذا السجن يعطي كل امتيازات اليوم الآخر من جنة ونعيم لسكانه فقط، المسلمون هم السادة، أما العبيد فهم غير المسلمين، فمهما فعلوا أو قدموا فلن ينال أحد منهم الرحمة، ولن يدخل صالحهم الجنة، إذ كلهم في النار، أما قول الله تعالى في سورة الزلزلة «فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره» **الآية ٧،** فهي من حق الأخ المسلم فقط وحده دون غيره، وعلينا أن نغض الطرف عن عموم «مَن» حتى نُرضي ما وقر في قلوبهم من أن غير المسلم لن ينال رحمة، ولن يحصل على حظ من الآخرة إذ حظه فقط في الحياة الدنيا، أما المسلم وحده دون غيره، وبشكل حصري، فهو الذي سينال الرحمة والمغفرة سواء كان من النابهين الذين يقدمون لأمتهم وللبشرية، أو كان من الخاملين الحابطين، أو حتى كان لصًا من اللصوص وأفاقًا من الأفاقين، مع أن كلمة «من» في كل هذه الآيات تفيد العموم والإطلاق لا التخصيص والتعيين.

واللافت أن الفقهاء الذين لم يجيزوا الترحم استندوا إلى أدلة من أحاديث وآيات في غير موضعها ذلك أن أدلتهم كانت عن عدم جواز الاستغفار، إلا أن الاستغفار غير الترحم، الله غفور يغفر الذنب، وغفار وغافر، والمغفرة هي الستر والتغطية، ولكن الله سبحانه أيضًا رحيم ورحمن، ورحمة الله تقتضي الإحسان إلى المرحوم وتكون بالمسامحة واللطف، ومن هنا فإن سياق الرحمة يمتد بلا انقطاع، ولا يجوز لنا أن نضع قيدًا من عندنا على رحمة الله، أو حتى على الاستغفار لغير المسلمين، ومع ذلك فإن المغفرة غير الرحمة ولو كانت المغفرة هي الرحمة لما كانت لله الأسماء الحسنى.

٩ انظر فتاوى ابن باز وابن عثيمين وفتاوى المجامع العلمية الإسلامية.

وإلا فأين يذهب هؤلاء من قول الله تعالى في بعض الآيات القرآنية عن أنه كتب على نفسه الرحمة، ومنها ما جاء في سورة الأنعام «قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» **الآية ١٢**، وإذا أسلم رجلٌ وظل أبواه على غير الإسلام، أفلا يجوز له أن يترحم عليهما مصداقًا لقوله تعالى في سورة الإسراء «وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا» **الآية ٢٤**، أم أنه حين يتجه بالدعاء لله سيقول: اللهم ارحم أبي إن كان مسلمًا ولا ترحمه إن كان غير ذلك! مخافة أن يقع الله في خطأ شنيع فينقل هذا الأب الميت من النار إلى الجنة؟ فتكون كارثة أن يجتمع المسلم وغيره في جنة الله!! حاشا لله سبحانه، ننزه ونستغفر له، ومن العجيب أن أعداء الترحم يغضون الطرف عن أن الله أجاز لنا أن نتزوج من أهل الكتاب، وهم يفتون بذلك، فهل أجاز لنا أن نتزوج منهم ثم حرَّم علينا أن نترحم عليهم؟! ما هذه العنصرية البغيضة التي صبغوا بها ديننا، وما فعلوا ذلك إلا لأنهم حرفوا كلمة «الاستغفار» فجعلوها مرادفًا للترحم، ثم حرفوا كلمة الكفر وجعلوها تشمل أهل الكتاب.

إيهٍ يا فقهاء المسلمين، لو تعلمون من هو الرسول النبي ما خرجت منكم كلمة كره، أو حرب، أو شحناء، أو عداوة أو خصومة، ولكنكم جهلتم قلبه الذي أنار الدنيا بالحب والرحمة، وغابت عنكم نورانيته وحبه لكل الخلق، حتى أنه رفض أن يدعو على كفار قريش، ورفض أن يخسف الله بهم الأرض ويطبق عليهم الأخشبين، أراكم تنقلون للناس ما أوحى الشيطان لكم وجعل على قلوبكم أكنة، لذلك نقلتم للناس ما في قلوبكم أنتم، لا ما كان في قلب الرسول النبي، تنقلون لهم بغضكم لا حبه، كراهيتكم لا سماحته، أمراض قلوبكم لا نور قلبه، الذي أنتم عليه ليس هو الإسلام الذي جاء به الرسول النبي، ولكنه الإسلام الذي شوهته نفوسكم، وعاداتكم، وغروركم، وكبركم، وحقدكم، هو الإسلام الذي حرف كباركم الكلم عن مواضعه، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

****

هل تعرفون ماذا قال فقهاء أمتنا عبر تاريخنا، يقولون إن تارك الصلاة عمدًا يجب أن يُقتل، أما الذي يتركها كسلاً فيجب أن يستتاب، فإذا أصر على كسله فيجب أن يُقتل، فينسبون إلى أحمد بن حنبل قولاً هو: «"تارك الصلاة كافر كفرًا مخرجًا من الملة، يقتل إذا لم يتب ويصل».

ثم ينسبون إلى مالك والشافعي وأبي حنيفة أنهم قالوا عن تارك الصلاة: فاسق ولا يُكفَّر.

ولكنهم عادوا وقالوا إن الأئمة الثلاثة قالوا عن حكم هذا الفاسق فقال مالك والشافعي إنه: «يُقتل حدًا» أما أبو حنيفة فيقول: يعزر[١٠] ولا يُقتل.

وإذا قرأنا فتاوى ابن تيمية سنجده يقرر عقوبة القتل لتارك الصلاة عمدًا واستتابة المتكاسل فإذا أصر يُقتل، أما عن شيوخ عصرنا فأشهرهم قال: «تارك الصلاة عمدًا أي جحودًا وإنكارًا لها هو كافر مرتد، حكمه أن يُقتل، وتارك الصلاة كسلاً يستتاب ثلاثة أيام فإذا لم يصلِ يقتل»، ثم أخذ الشيخ في لقاء تليفزيوني يشرح سبب هذا الحكم، وحينما تعرض للآية القرآنية «لا إكراه في الدين» قال بلكنته العامية المعروفة: انتوا فاهمين الآية غلط، لا إكراه في الدين هذه إنما تكون قبل الدخول إلى الإسلام، إنت حر، تسلم أو لا تسلم، لكن طالما أسلمت فيجب أن تلتزم بما ألزمك الله به، محدش يا حبيبي ألزمك بالدخول في الإسلام، لذلك يجب أن تخضع لقانون الخالق فهو الذي أمرك بالصلاة."

وتكررت دروس هذا الشيخ الكبير مرات كثيرة، وعند كل آية قرآنية عن الصلاة يردد نفس الشيء، وفي حلقات تليفزيونية كثيرة كان يقول نفس الكلام، لم يترك قوله أبدًا، والغريب أن هذا الرأي هو أيضًا رأي الخوارج، ورأي الفقيه الإخواني السيد سابق في كتابه فقه السنة، وهو رأي إمام التكفير في عصرنا شكري مصطفى الذي قتل الشيخ الذهبي، وهو الرأي المستقر عليه في كتب التراث التي يتم تدريسها في الجامعات الدينية، والأخطر أن الشيخ الجليل لم يذكر للناس من هو صاحب الحق في توقيع عقوبة القتل على تارك الصلاة؟ هل هي الدولة؟ أم هو أي واحد من آحاد الناس؟ وللأسف قال الشيخ محمد الغزالي الذي يشار إليه أيضًا بالاعتدال في قضية اغتيال الكاتب فرج فودة: إن هؤلاء الشباب لا يمكن اتهامهم بالقتل، إنما هم اغتصبوا حق الدولة في توقيع العقاب على واحد مرتد، وقاموا هم بتطبيق الحد لأن الدولة تقاعست عنه، فهم يعذرون لذلك.

حتى أن أحد الشيوخ الذي وصفه البعض بالوسطية والاعتدال وهو الشيخ يوسف القرضاوي قال عن حكم تارك الصلاة: «ذلك أن تارك الصلاة أحد رجلين: إما أن يتركها إنكارًا لوجوبها، أو استخفافًا بها، واستهزاء بحرمتها فهذا كافر مرتد بإجماع المسلمين. - ولا أدري وأيم الله من أين جاء بالإجماع وابن حنبل يقول: من زعم الإجماع فقد كذب.

١٠ التعزير: وهو التأديب على ذنوب لم تشرع فيها الحدود.

لأن وجوب الصلاة ومنزلتها في الإسلام معلوم من هذا الدين بالضرورة، فكل منكر لها، أو مستخف بها يكون مكذبًا لله ولرسوله، وليس في قلبه من الإيمان حبة خردل. وهو مثل الكفار الذين وصفهم الله بقوله:» وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ» المائدة:٥٨».

ويسترسل الشيخ القرضاوي قائلاً: «ومن هنا نعرف منزلة الذين يعتبرون الصلاة والعبادة من مظاهر التأخر والرجعية، ويسخرون من الذين يقيمون الصلاة. وإما أن يتركها كسلاً، وانشغالاً بالدنيا، واتباعا للهوى، ووسوسة الشيطان فهذا قد اختلف فيه العلماء: هل هو كافر أم فاسق؟ وإذا كان فاسقًا فهل يستحق القتل أم يكفي التعزير بالضرب والحبس؟ فالإمام أبو حنيفة يقول: هذا فاسق بترك الصلاة، ويجب أن يؤدب ويعزر بأن يضرب ضربًا شديدًا حتى يسيل منه الدم، ويحبس حتى يصلي. ومثله تارك صوم رمضان. وقال الإمامان مالك والشافعي: هو فاسق وليس بكافر، ولكن لا يكفي جلده وحبسه وإنما عقوبته قتله إذا أصر على ترك الصلاة. وقال الإمام أحمد- في أشهر الروايات عنه-: هذا التارك للصلاة كافر مارق من الدين. وليس له عقوبة إلا القتل فيجب أن يطلب منه التوبة إلى الله والرجوع إلى الإسلام بأداء الصلاة فإن أجاب فبها وإلا ضربت عنقه».

وينتهي القرضاوي إلى أن: «والواقع أن ظواهر النصوص من الكتاب والسنة تؤيد هذا المذهب الذي قال به إمام السنة أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهما. فالقرآن يجعل ترك الصلاة من خصائص الكفار «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ» (المرسلات:٤٨) وقال في وصفهم يوم القيامة:» يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ» (القلم:٤٢-٤٣)، ولا يستحق عصمة الدم وأخوة المسلمين في نظر القرآن إلا من تاب من الشرك وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، قال تعالى في شأن المشركين المقاتلين: «فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ» (التوبة:٥)، وقال بعد ذلك: «فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ» (التوبة:١١). وإذا رجعنا إلى السنة وجدنا الأحاديث النبوية تؤكد كفر تارك الصلاة»[١١].

---

١١ : كتاب فتاوى معاصرة للقرضاوي، ونفس الفتوى في موقعه الإلكتروني على شبكة الإنترنت تحت عنوان «حكم تارك الصلاة».

سبحان الله، هذا هو تلبيس إبليس، فلنفترض أن تارك الصلاة كافر، فهل أمرنا الله بقتل الكفار وتخليص البشرية منهم؟! هل مهمة المسلم هي دعوة «الكفار» إلى الإيمان أم هي قتلهم وقطع رقابهم؟! هل يتصورون الإسلام سجنًا حربيًّا يتم فيه تقطيع أوصال المخالفين لقرارات السجن؟ ولكي يؤكد هؤلاء صحة رأيهم بقتل تارك الصلاة نسبوا للنبي أحاديث لا يمكن أن تصح أبدًا، إذ لا يمكن أن يخالف النبي في حركته بين قومه أحكام القرآن الكريم، فإذا قال القرآن إن هذا الدين ليس في داخله منظومة عقابية لمن يترك العبادات، «لا إكراه في الدين»، فهل يمكن أن يتصور أحد أن النبي يضع من عندياته منظومة عقابية يخالف بها أمر الله، والله يقول «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ *لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ».

ولكن ماذا نفعل وكل هؤلاء قديمهم وجديدهم لم يفهم المعنى الواضح الجلي للآية الكريمة «لا إكراه في الدين»، ولنا أن نلاحظ أن الله تعالى لم يقل: لا إكراه على الدين، فيصح بذلك رأي الشيخ الأشهر في زماننا الذي قاله في لقاءاته بلكنته العامية المعروفة، ولكن الله قال «لا إكراه في» في أيها الناس وليس على!! هل اللسان العربي عويص إلى هذه الدرجة؟! لأن لا إكراه على الدين وردت بخصوصه آيات أخرى، مثل «فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ...» والآية الكريمة «وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جميعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ". وغير ذلك من الآيات.

ولكن لا إكراه في الدين تعني أنه لا توجد داخل هذا الدين عقوبات تكره الناس على العبادة، إنما العقوبات هي لله وحده، اختصها لنفسه، لا عقوبات على العبادات والسنن وفضائل الأعمال، إنما العقوبات هي في القانون، أي في الشريعة التي تنظم العلاقة بين الناس وتضع لهم ضوابطها وأحكامها، فالسرقة لها عقاب والزنا كذلك وباقي الجرائم، منها ما ورد بخصوصها حدود ومنها ما ترك الله أمر تقديرها للحاكم، بل إن لنا أن نضع العقوبات التي نراها وفقًا لتطور الحضارة والمدنية، وما كان للإخلال بالعلاقات الإنسانية الرشيدة عقوبات مدنية أو جزائية إلا لكي تنتظم العلاقة بين الناس وتختفي المظالم، فيا أهل اللسان العربي، يا من بزغ نجمكم من خلال اللسان والبلاغة والفصاحة، هل تعرفون أن «على» لها مدلولها اللساني الذي يختلف عن مدلول حرف «في»، أظنكم تعرفون أن «في الدين» تعني أن في داخله ليس هناك إكراه يا علماء ديننا.

أما تارك الصيام فعلى المذاهب الأربعة يكون منكر فرضيتها كافرًا ويُقتل، أما الذي يترك الصيام كسلاً فقد خففت المذاهب من غلواء العقوبة، وجعلوها «العزل عن المجتمع» والعزل يعني السجن[١٢].

أما ابن تيمية فيستحق وحده دراسة كاملة عن العقوبات التي وضعها بخصوص النسك التعبدية، ولكي نلخص فقه ابن تيمية في هذا الشأن فيكفينا أن نقول إنه وضع القتل عقوبة لمعظم من خالف رأي مذهبه في العبادة. ففي كتابه الفتاوى الكبرى يقول ابن تيمية: «مسألة: في أقوام يؤخرون صلاة الليل إلى النهار، لأشغال لهم من زرع أو حرث أو جنابة أو خدمة أستاذ، أو غير ذلك. فهل يجوز لهم ذلك؟ أم لا؟

الجواب: لا يجوز لأحد أن يؤخر صلاة النهار إلى الليل، ولا يؤخر صلاة الليل إلى النهار لشغل من الأشغال. لا لحصد ولا لحرث ولا لصناعة ولا لجنابة. ولا نجاسة ولا صيد ولا لهو ولا لعب ولا لخدمة أستاذ، ولا غير ذلك؛ بل المسلمون كلهم متفقون على أن عليه أن يصلي الظهر والعصر بالنهار، ويصلي الفجر قبل طلوع الشمس، ولا يترك ذلك لصناعة من الصناعات، ولا للهو ولا لغير ذلك من الأشغال، وليس للمالك أن يمنع مملوكه، ولا للمستأجر أن يمنع الأجير من الصلاة في وقتها. ومن أخَّرها لصناعة أو صيد أو خدمة أستاذ أو غير ذلك حتى تغيب الشمس وجبت عقوبته، بل يجب قتله عند جمهور العلماء بعد أن يستتاب فإن تاب والتزم أن يصلي في الوقت ألزم بذلك، وإن قال: لا أصلي إلا بعد غروب الشمس لاشتغاله بالصناعة والصيد أو غير ذلك، فإنه يقتل».

ترك هؤلاء الرحمة، والدعوة، وكان من تحريفهم للدين أن جعلوا القتل وسيلتهم لكل من خالفهم، وكأنه لا رحمة في الإسلام!

****

ويبدو أن الخوف إنتاب أعداءَ «رحمة الله» وثقلت جفونهم من الهم لأن رحمة الله ممتدة بلا منتهى، فأرادوا حجبها والتحكم فيها، فكان أن جعلوا مناط الرحمة مرتبطًا بقدرتهم هم، لا بطلاقة قدرة الله تعالى، برغبتهم هم، لا بوحدانية إرادته، ثم بوحي من

١٢ كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، عبد الرحمن الجزيري.

شياطين الإنس والجن خلطوا بين مجال الرحمة ومجال المغفرة، وغفلوا وهم لاهون في غيهم عن أن الله عفو، وأنه هو القائل عن نفسه في سورة النساء «فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا»، فجعل قدرة العفو عائدة إليه وحده دون غيره، سبحانه العلي القدير، وقال أيضًا في سورة النساء «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا»، وللعفو دائرته التي لا منتهى لها، ينالها من لم ينل الرحمة، ومن لم يحظ بالمغفرة، فإننا إن لم ننل المغفرة نلنا الرحمة، وإن لم ننل الرحمة نلنا العفو، وإن لم ننل هذا ولا ذاك ولا تلك دخلنا في كرمه، وكلنا نحيا على كلمة «لعل» نتحرك بها بين رجائنا وفيض كرمه، أفلا يستجيب لـ «لعل» لأنه عند ظن عباده به، سبحانه نحن عباده نحيا تحت مشيئته يفعل بنا ما يشاء.

فما ظنكم برحمة الله وعفوه ومغفرته، هل تُعرض عن والدي النبي عليه السلام وتنصرف عنهما؟! ولكن أعداء الرحمة لن يعدموا حيلة، وتحريف الكلم عن مواضعه أصبح بضاعتهم التي يتقنونها فكأنما قالوا لأنفسهم: هيا بنا نحجب رحمة الله عن والدي النبي!!

****

يقول أغلب الفقه منذ قرون طويلة ومن خلال المنابر والدروس والمجلدات وكتب السيرة وكتب الحديث إن أبا الرسول، عليه السلام، في النار! هذا الأب الذي كان خير شباب مكة قذف به هؤلاء في النار!! وأضافوا إلى أبيه أمه، فأدخلوها هي الأخرى في النار، وكلاهما من أهل الخلود في نار جهنم، أأمه التي حملته ورأت قبل أن تلده أن نورًا خرج منها أضاء العالم ستكون في النار؟!، أأمه التي ماتت أمامه في رحلة عودتها من زيارة لأهلها في يثرب وهو بعد طفل صغير، فرآها تلفظ أنفاسها الأخيرة، فبكى عليها وانفطر قلبُه حزنًا على فقده أحن قلب عليه في الوجود، أهذه الأم ستكون في النار؟! أأمه التي بفقدها وفقد والده الذي لم يره أبدًا أصبح يتيمًا ضعيفًا فقيرًا يعيش في كنف جده، ثم عمه من بعد ذلك، هذان الأبوان على عهدة أعداء الرحمة في النار!!.

هذا الأب الذي كان أرق وأجمل وأطيب أبناء عبدالمطلب، وتلك الأم التي أنجبت لنا نورًا أضاء الدنيا ألقاهما هؤلاء في النار! لماذا؟ لأنهما لم يكونا مسلمين من أتباع الرسالة التي أنزلها الله بعد موتهما بزمن على سيدنا محمد عليه السلام!! ولكن الإسلام لم يكن قد جاء بعد، وأهل الجزيرة العربية كلها لم يكن الله قد أرسل لهم رسولًا مصداقًا لقوله:

«لتنذر قومًا ما أنذر آباؤهم»، فيقول هذا الفريق من التراثيين: ولو، سندخلهما النار وبئس المصير، فإذا قلت لهم: إذن، هل من الممكن أن نستثنى أم الرسول، عليه السلام، السيدة آمنة بنت وهب، سيقولون لك هي أيضًا في النار، وسيقولون لك ذلك وعلامات السعادة الشديدة تبدو عليهم لأنهم استطاعوا بسهولة إدخال والديَّ المصطفى عليه السلام إلى النار! وعذرًا يا رب العزة سننحي جانبًا ما قلته في القرآن من أنه «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا»، لأن أعداء الرحمة قد راودتهم أنفسهم على إدخال والديَّ الرسول اللذين لم تصل لهما رسالة إلى النار، ومن أجل ذلك سنتغاضى قليلًا يا الله عن قولك «لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ»، لن نفهم يا رب أن والديَّ الرسول، عليه السلام، هما من ضمن «مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ»، إذ المهم أن ندخلهما النار حتى يرضى أتباع «صحيح مسلم» الذي زعم أن رجلًا قال: «يا رسول الله أين أبي؟ قال في النار، قال فلما قَفَّا دعاه فقال إن أبي وأباك في النار»، ومن أجل التوفيق بين هذا الذي زعموا أنه حديث وبين آيات القرآن التي تنفي العذاب حتى يبعث الله رسولًا لا مانع من أن يقول الحافظ بن كثير «إنه يمكن الجمع بين هذه الأدلة وبين الحديث، بأن يكون الله تعالى أعلم نبيه، عليه السلام، أنهما لا يؤمنان إذا امتحنا يوم القيامة وبهذا يستوجبان النار»، فالحافظ بن كثير هنا يستنتج أمرًا ظنيًا، ويدخل في دائرة الاحتمال والتخمين ليؤكد به ما يخالف القرآن! ويزعم أن الله سيجري «امتحانات ملحق» في الآخرة لمن لم تصل لهم الرسالة!! وهذا من أعجب ما قاله أحد، وهو يفتقر لأدنى درجات المنطق والفهم الصحيح!.

ولنا الآن أن ننسى من أجل عيون أعداء الرحمة أن العقل مناط التكليف، وأنه لا يكلف الله نفسًا إلا ما أتاها في استعدادها الأزلي، فهو خالقها، وهو الذي يعلم بواطنها وخوافيها، فلا تكليف على من عجز عقله عن الوصول إليه، فإذا كان ذلك كذلك، فليعلم أتباع «عدم جواز الترحم» أن من قال إن عبدالله بن عبدالمطلب والد الرسول في النار، فقد أخطأ وضل وذل، فوالد الرسول من أهل الفترة، إذ قال الله سبحانه في سورة المائدة «قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ»، والرسول ليس هو صاحب الرسالة فقط، ولكن الرسول أيضًا هو الدليل، فكل نبي أرسله الله كان يأتي قومه بآية أو علامة، فيعرفون أنه مرسل من قبل الله. وكون أن أبا الرسول ليس في النار هو من تمام عدل الله، فالله سبحانه، قال: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا»، فهو بعدله الذي منع التعذيب قبل إرسال

الرسل، ولكن لكي يتقن أعداء رحمة الله «حَبْك» إدخال من يريدون إلى النار، لذلك زعموا أن الله سيمتحن أهل الفترة، وسيكون هذا الامتحان الملحق يوم القيامة! في دار الجزاء لا في دار الاختبار، فيسندون للرسول عليه السلام، أنه قال: «يؤتى بأربعة يوم القيامة بالمولود وبالمعتوه وبمن مات في الفترة وبالشيخ الفاني كلهم يتكلم بحجته، فيأخذ الله مواثيقهم، فيرسل إليهم رسولًا أن ادخلوا النار، قال: فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومن لم يدخلها يسحب إليها».

روى فريقٌ من التراثيين هذا الحديث اللامنطقي وغيره مع اختلاف بعض الألفاظ ليضيقوا رحمة الله الواسعة، فقد شق عليهم أن يفلت أحدٌ فيدخل الجنة دون إرادتهم، فنسبوا إلى الرسول عليه السلام، أن المجنون الذي ليس له عقل، والطفل الذي مات ولو كان ابن ساعة أو أقل، والرجل الذي ولد أصم فلم يسمع عن دين، وغيرهم ممن يقال عنهم «أهل الفترة» سيأتي الله بهم يوم القيامة، ويبدو أن الله سيحكم عليهم حكمًا صوريًا بدخول النار! وهذا الحكم هو الاختبار الذي سيتعرضون له!! فيجادلون الله: كيف ندخل النار ونحن كذا أو كذا، أي لم نعلم شيئًا عن الدين من الأصل! فيرسل الله لهم رسولًا يقول لهم أنا رسول الله لكم وأقول لكم ادخلوا النار، فمن استجاب لهذا الرسول ودخلها كان آمنًا، ثم يخرج منها معززًا مكرمًا ليدخل الجنة، ومن رفض فسيسحب إلى النار لتكون مثواه!.

هذا الذي زعموه حينما نسبوه إلى الرسول، تغاضوا فيه عن أن الدنيا وحدها هي دار اختبار وابتلاء مصداقًا لقوله تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ»، الله يقول لنا إنه خلق الموت والحياة في الحياة الدنيا للاختبار، ثم اسمعوا قوله «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»، هل نسوا أن الدنيا هي دار العمل، أما الآخرة فهي دار حساب وجزاء ومسئولية، وليست دار امتحان مصداقًا لقوله «فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ»، والإنسان سيسأل عن عمله، سواء كان مؤمنًا أو جاهلًا غافلًا، فالله قال:

«فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ»، وقال: «مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ»، وهذا من تمام عدل الله.

ثم يا سادة يا أعداء رحمة الله يا من تقسمون جميعكم بصحة حديث الامتحان هذا، أو بصحة حديث والديَّ الرسول في النار، ألم تعرفوا شيئًا عن منهج الله في تكليف الناس؟! الله عدل، وطلب منا أن نعبده بالعدل، وإذا كان الامتحان التكميلي الملحق هذا صحيحًا ـ من باب الجدل ـ فكان من الواجب أن يكون الامتحان متفقًا مع النوازع التي خلقها الله في النفس البشرية، والفطرة التي فطره عليها، وأن يكون هذا التكليف من التكاليف المستطاعة لا المستحيلة، إذ «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا»، سواء كان هذا التكليف في الدنيا أو في الآخرة، فهذا من طبائع الأمور، ولذلك يجب أن يكون تكليف دخول هؤلاء في الآخرة النار للامتحان مساويًا لتكليف الله للناس في الحياة الدنيا، فهل طلب الله منا في الحياة الدنيا أن نلقي بأنفسنا في النار لندخل الجنة في الآخرة؟! هذا يتنافى مع حكمة الله، سبحانه ننزه عن ذلك، فقد يقول الواحد ممن سيُمتحنون في الآخرة: يا رب هذا ليس عدلًا، أعدني إلى الحياة الدنيا وهب لي عقلًا أفهم به، وأرسِل لي رسولًا، ثم حاسبني كما حاسبت من وهبت لهم عقلًا، أو يقول آخر يا رب هات كل البشر الآن وأرسل لهم رسولًا يطلب منهم دخول النار! ولكن ماذا قال الله في الرد على هذا البعض من التراثيين من أصحاب الامتحان التكميلي؟ قال لهم «يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»، أي أن الناس، كل الناس، المسلم وغير المسلم، سيخرج من قبره يوم القيامة ليرى عمله، ليرى عمله يا أهل التراث، والله العادل الرحمن الرحيم قال إن الذي يعمل مثقال ذرة خيرًا من كل الناس سيأخذ خيرًا، وإن الذي يعمل مثقال ذرة شرًا من كل الناس سيأخذ شرًا، مما يعني أنه لا يوجد امتحان ولا ملحق ولا غيره، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

«إنما الإسلام دعوة لا دعوى، فالدعوة تقوم على الحُجة والمعرفة والبيان، أما الدعوى فتقوم على القوة والغلبة والإذعان، فمن جعل الدعوة دعوى يكون قد حرَّف اللسان، ومن حرَّف اللسان يكون قد خرج عن طريق الرحمن إلى دين الشيطان»

«7»

تحريف الجزية إلى احتلال

((كان الإسلام دينًا للرحمة، فإذا بالرسول عليه السلام يقوم فجأة بالغزوات الدموية! وإذا بالله يأمره بأن يحرض المؤمنين على القتال! ثم يتنزل القرآن الذي يأمر المسلمين بقتال المشركين كافة «وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ» لا تتركوا هؤلاء الكفار ولكن «فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ»، وبعد أن كان الله يقول للنبي «أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ»، ويقول له «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ»، إذا بالله ينسخ حكمه ويغير قوله ويقول له «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ»، يقول أنصار احتلال الدول باسم الدين ما سلف دون أن يتبينوا مواقع الآيات وأسباب نزولها، وبذلك أخضع هؤلاء الواقع الذي يتغير بتغير الزمان والمكان إلى نصوص لا تناسبه ولم تتنزل له من الأصل. هذا ما قاله كل أنصار النسخ، وإن أردت الحق فقد قالوا أبشع وأفظع من ذلك، إذ كانوا في الحقيقة يعرضون علينا نفسياتهم، فقرأوا القرآن على أنه قصيدة شعر طويلة كتبها أحد شعراء العصر الجاهلي، لا ترابط فيها ولا تجانس، وكل آية منه كأنها بيت شعر منفصل عن باقي الأبيات، فإن وضعت بيتًا مكان بيت فكأنك لم تغير شيئًا في القصيدة، وإذا وضعت آية مكان آية فكأنك لم تفعل شيئًا، ونسي هؤلاء أن الله أنزل القرآن بلسان عربي مبين، وأن القرآن له لسانه الخاص به وقاموسه الذي لا يقاس على غيره، وأن القرآن يفسر نفسه، فكل آيات القتال جاءت من باب الدفاع لا الاعتداء، وهي تحكي جزءًا من سيرة النبي وهو يذود عن دينه وأصحابه، ولها أسباب نزولها المرتبطة بواقعها والمتفاعلة معه، فإذا أردتم المقاربة بينها وبين حياتنا فاجعلوها كما نزلت، آيات للدفاع لا للقتال، هي آيات للنبوة وليست للرسالة، موجهة لسيدنا محمد بصفته

نبي لا بصفته رسول، أي أنها مرتبطة بحركة النبي بين قومه.ولله المثل الأعلى: تخيل يا صديقي دولة فيها وزارة دفاع ووزارة خارجية ووزارة ثقافة ووزارة تعليم ووزارة سلام وتضامن اجتماعي وغيرهم.

وجاء عدو يريد أن يعتدي على تلك الدولة ويقضي على وجودها، فإذا برئيس الدولة يصدر قرارًا لوزارة الدفاع بقتال العدو المعتدي ورد عدوانه ويحذر في الوقت ذاته وزير دفاعه من أن يكون هو المعتدي. فإذا بعد سنوات يأتي واحد من الناس يجتزأ تعليمات الرئيس لوزارة الدفاع ويقول إن وجود وزارة خارجية تعقد اتفاقات سلام ووجود وزارة سلام وتضامن اجتماعي كان محض خرافة، لأن رئيس تلك الدولة أصدر قرارًا بقتال المعتدين، فماذا تقول له؟))

****

أصحاب العقول «المبرمجة» نحن في غَنَاء عنهم، ولا يعنينا أن تتحرك الأحجار التي في رؤوسهم فتنبض بالفهم، إذ أنني أخاطب أصحاب القلوب الحية والعقول النابضة، أما أصحابنا الذين يعيدون لنا قول أصحاب القرون الأولى « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ»، أي أن هؤلاء بحثوا عن أعمال أسلافهم فاتبعوها فكانوا من أهل السلف! فهؤلاء هم من قال عنهم الشاعر لقد أسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي، فما بالكم لو كتبت أنه لا يوجد في الإسلام تشريعُ رسالي اسمه الجزية أصلاً! لن ينظر أحدهم للقرآن، ولن يضبط فهمه على لسان القرآن، ولكنه سيقول لك: قال ابن فلان، وروى ابن ترتان، أما آيات القرآن فنحن نضبطها على عقول هؤلاء، ولا نضبط عقول هؤلاء على القرآن!.

ولكننا الآن سنضبط الكل على القرآن، فهو الميزان، أنزله الله بلسان عربي مبين، لذلك قال الله «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ» ويبدو أنُ جيل النهضة الحديثة في مصر كانوا يفقهون هذا الاختلاف لذلك عندما أنشأوا مدرسة تدرس لغات الأمم أطلقوا عليها «مدرسة الألسن»، في حين أن الأزهر عندما أنشأ كلية لهذا الغرض أطلق عليها «اللغات والترجمة»!

هذا القرآن الكريم يا صديقي الذي جاء بلسان عربي مبين جعل الله له لسانًا خاصًا به، له قاموسه ومفرداته، ولا يمكن أن نفهم كلماته بمجرد أن نمررها فقط على اللسان العربي، ولكننا يجب لتمام فهمها أن نمررها على باقي القاموس القرآني، أو قل باقي اللسان القرآني،

ولكننا عرفنا من الفصول السابقة أن الشيطان جعلنا نقع في الخلط بين اللسان واللغة، ثم جعلنا نتبع اللغة وننسى اللسان، ثم أنسانا من بعد ذلك اللسان القرآني الفريد الذي أعجز العرب أصحاب اللغة، إذن لا يقل لي أحد أن القرآن فيه مترادفات، فهو ليس قصيدة شعرية يعبر فيها الشاعر عن أفكاره بكلمات مختلفة تؤدي نفس المعنى، لا يعنيه أن يقول في موقع من القصيدة كلمة مِلة، ثم يغيرها إلى كلمة دين وفقًا للبحر الذي يكتب فيه أو القافية التي يرتجيها، ولكن كل كلمة في القرآن الكريم تؤدي كما كتبت سابقًا دورًا محددًا دقيقًا غاية ما تكون الدقة، وهذه الكلمة نستطيع معرفة معناها من خلال لسان القرآن الكريم وقاموسه.

فما هي قصتنا مع الجزية؟، تلك الجزية التي تعني وفقًا للسان القرآني الجزاء، سواء كان هذا الجزاء سيئًا أو حسنًا، فالله يقول «مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ» ويقول أيضًا «أوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»، هذا جزاء سيئ، ويقول «أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا »، وهذا جزاء حسن، فإذا ما أخذت مالاً أو بضاعة من واحد من آحاد الناس قهرًا دون إرادته وهو صاغر فإنما يكون هذا قد أخذ صورة الجزاء والعقاب، فلماذا إذن أخذ الجيل الأول من الصحابة جزية من أهل الأمم الأخرى؟ ولماذا دخلنا من الأصل إلى بلاد تلك الشعوب؟! قال فقهاء الأمة من أولها إلى آخرها إننا قمنا بذلك لأن الله أمرنا في القرآن بهذا الغزو، وطلب منا أن نأخذ منهم الجزية قهرًا وإجبارًا، وسيقرأون علينا قول الله تعالى «قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ» نعم، هذه آية من سورة التوبة، وهي عن حالة خاصة في زمن خاص لفئة بعينها دون غيرها، وهي آية نبوية وليست آية رسالية، أي أنها للنبي وقومه في زمنه، وليست رسالة للمسلمين إلى أن تقوم الساعة، ولكن من حرفوا الكلم عن مواضعه جعلوا الحكم يشمل أهل الكتاب جميعًا، هذه هي لعبة الشيطان معنا منذ فجر الإسلام، بل منذ فجر الوجود الإنساني في الدنيا.

أعرف أن أهل هذا ما وجدنا عليه آباءنا سيصخبون ويجهرون بالقول رفضًا، ولكننا لن نلتفت لهم، أما موضوع هذا الفصل فهو عن أنه «لا جزية في الإسلام» وأن الجزية من تحريفات الشيطان للكلم عن مواضعه، نعم لا جزية في الإسلام! وليس الذي أعنيه أن مبررات الجزية لم تعد موجودة أصلاً، ولكن الذي أعنيه هو أن الله سبحانه لم يفرض جزية من الأصل على أهل الكتاب! والحقيقة أن هذا ليس من عندي أو من عند الشيخ

فلان، أو الفقيه علان، ولكنه محض كلام الله رب العالمين! ولذلك فإننا سنحتاج إلى نقرأ مرة أخرى قول الله تعالى في سورة التوبة «قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ»، وحينما نقرأها معًا قد يصيح صائح: ها هي الآية تلزمنا بأن نقاتل أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، أين أنت من هذه الآية؟.

ولكن هل يصمد صياحهم أمام الحقيقة القرآنية! القرآن لمن لم يعلم تحدث عن أربعة أصناف من أتباع الأديان السماوية، هم «أهل الكتاب» وهم عموم جمهور أتباع الأديان السماوية، وصنف قال الله عنهم» الذين آتيناهم الكتاب»، وصنف ثالث قال الله عنهم « الذين أوتوا الكتاب»، وصنف رابع قال عنهم «الذين آتيناهم نصيبًا من الكتاب»، وكل صنف من هذه الأصناف له حكمه، ونظامه، والله عندما أمر النبي بالقتال في هذه الآية أمر بقتال صنف من هؤلاء الأصناف، حددهم وحدد مواصفاتهم حتى لا يختلط الأمر أمام أعيننا فنساوي بين الجميع، ثم بعد أن حدد مواصفاتهم قال إن القتال سيكون لبعض وليس لكل «مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ»، النص القرآني يحدثنا عن «من الذين أوتوا الكتاب» وليسوا من جموع أهل الكتاب، والقتال سيكون ضد فريق من الذين أوتوا الكتاب، وليس كل الذين أوتوا الكتاب، فماذا قال الله عن هؤلاء؟ قال سبحانه «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ»، وفي آية أخرى قال الله عنهم «وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ» ويقول الله عنهم أيضًا «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ»، والله هنا يا صديقي لا يضعهم كلهم في إناء واحد، لذلك يقول «فريقًا من الذين أوتوا الكتاب»، وليس كل الذين أوتوا الكتاب، ولذلك أيضًا كانت آية الجزية تفرض القتال على فريق منهم قالت الآية عنهم «من الذين أوتوا الكتاب»، ومن كما ذكرنا جاءت للتبعيض، أي بعض وليس كل، ولذلك نجد الله يروي لنا في القرآن عنهم أنهم أهل اختلاف وتفرق، منهم المؤمن بالله حقًا ومنهم من اتخذ الدين تجارة، فيقول «وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ»، ويقول أيضًا «وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ».

نحن الآن أمام أهل الكتاب، والذين آتيناهم الكتاب، والذين أوتوا الكتاب، التفاصيل في الجزء القادم، ولكن قبل ذلك أدعوكم للبحث معي في أي قاموس قرآني عن الآيات التي جاء فيها

«أهل الكتاب» والآيات التي جاء فيها «الذين آتيناهم الكتاب» والآيات التي جاء فيها «الذين أوتوا الكتاب» والآيات التي جاء فيها «الذين آتيناهم نصيبا من الكتاب»، وابحث وتفكر معي، ففهم الإسلام ليس حكرًا على فئة بعينها من المسلمين، ولكن كلنا سنأتيه يوم القيامة فردًا، وكل إنسان سيحمل طائره في عنقه، ولن يستطيع أحدنا إلقاء مسئولية فهمه لدينه على آخرين.

****

نعود إلى أتباع الديانات السماوية لنضع الفروق بينهم، فما كان لنا أبدًا أن نخلط بين الجميع ونضعهم في إناء واحد ثم نقول لأنفسنا والفرحة تحتوينا: هيا بنا نلقي هذا الإناء في النار، وكأن مهمة المسلم في العالم هي أن يكون قيّمًا على النار ومسئولاً عنها، يضع فيها من يشاء، ثم يضع نفسه وحده في الجنة! والله سبحانه هو الذي نبهنا لجريمة إبليس الكبرى حينما ادعى الخيرية لنفسه فقال «أنا خير منه» أو ما قالته الأمم السابقة بأنه «وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ»، كما أن الله نبهنا وقال لنا «بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ»، المسألة هنا متعلقة بالذي يُسلم وجهه لله، أي يخضع له ويتجه إليه، ثم الأمر بعد ذلك عند الله وحده هو الحَكَم، كما قال «فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ»، فلا أنت أيها العبد البائس ولا أنا ولا كل من في الأرض يستطيع أن يحكم على ما في قلوب العباد، هو الله وحده «يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى»، لا شريك له في معرفة القلوب، لذلك قال سبحانه «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ».

وحين تحدثنا عن أهل الكتاب عرفنا أن «الأهل» هم كل أتباع الديانات السماوية، عالمهم وجاهلهم مؤمنهم وكافرهم، من عمل صالحًا ومن عمل شرًا، سواء كانوا من اليهود أو النصارى أو الصابئين، ولكن الله سبحانه تحدث أيضًا عن فئة سماها «الذين آتيناهم الكتاب» والمتحدث هنا هو الله سبحانه، أي أنه هو الذي آتاهم الكتاب، وقد ذكرهم الله حصرًا في سورة الأنعام حينما قال بدءًا من الآية ٨٣ «وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ» ثم قال بعدها «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»، الآن معنا إبراهيم، ثم إسحاق، ويعقوب، ونوح، وداوود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، ثم من بعد ذلك؟! يقول الله «وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ» هل تقومون بالعد معي؟ عِد لأنني قلت لك إن الله ذكرهم حصرًا، إذن مَن بعد هؤلاء الأنبياء؟ قال رب العزة «وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ»،

هؤلاء هم الأنبياء يا صديقي ولكن هل معهم أحد؟ نعم اقرأ باقي الآيات لتجد الله يقول «وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»، مع الأنبياء آباؤهم وذرياتهم وإخوانهم، و»مِن» هنا تفيد التبعيض وليس العموم، أي بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، مَن كل هؤلاء؟ وما هي التسمية التي أطلقها الله عليهم؟ هؤلاء يا أخي كما جاء في الآيات هم «أوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ».

الآن عرفنا من هم «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ» هم كما جاء بالآيات الأنبياء والرسل السابقون على سيدنا محمد عليه السلام، ومعهم بعض ذرياتهم إلى أن تقوم الساعة، ولا شك أنهم بهذه المثابة فئة مميزة جدًا لذلك ستجد الله عندما يتحدث عنهم يقول «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ»، ويقول أيضًا «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»، أي أن فريقًا من ذريات الأنبياء الذين ذكرهم الله في الآيات يعرفون الحق ويكتمونه، وهذا الذي يعرف الحق ويكتمه نطبق عليه صفة الكفر، أي أن مَن عرف الحق وأنكره هو الذي يعتبر كافرًا، ويقول الله أيضًا «وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ»، ويقول عنهم أيضًا «وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ»، وهكذا في كل الآيات التي تتحدث عن «الذين آتيناهم الكتاب» تجد أن الله ذكرهم مدحًا وتزكية، والغريب أن معظم التفاسير القديمة والحديثة لم تلتفت لحقيقة أولئك، فقالت عنهم تارة إنهم عموم أهل الكتاب، وتارة أخرى قالت إنهم علماء اليهود، وتارة ثالثة قالت إنهم أهل الكتاب الذين أسلموا!. مما سلف عرفنا أن الذين قال الله عنهم «آتيناهم الكتاب» هم الأنبياء وذرياتهم وإخوانهم، أي الذريات التي تنتسب للأنبياء والرسل وإخوانهم، ومنهم الأبناء والأحفاد وأحفاد الأحفاد وهلم جرا.

نأتي إلى فئة أخرى، هم «الذين أوتوا الكتاب»، هؤلاء ليست بينهم وبين الأنبياء والرسل علاقة نسب، وهم ليسوا من الأحفاد أو أحفاد الأحفاد، ولكنهم أهل الدعوة التي وجهت لهم الأنبياء والرسل دعواتهم ورسالاتهم، والمعنى الواضح هو أن الذين أوتوا الكتاب هم الذي أخذوه من الذين أتاهم الله الكتاب، أي من الأنبياء وذريات الأنبياء، وهؤلاء وفقًا للمعنى الظاهر هم فئة من علماء أهل الكتاب، يدخل فيهم علماء اليهود الذين كانوا في خيبر، ويدخل في هؤلاء الفئة التي فرض الله على المسلمين في عهد النبوة قتالهم وأخذ الجزية منهم، ونكرر أن تلك الفئة فرض الله على المسلمين قتالها في عهد النبوة، لا بعدها، كما أنه لم يطلب منهم دعوتهم للإسلام، فموضوع قتالهم لا علاقة له بالإسلام، ولكنه يرتبط بجريمة ارتكبوها ويجب أن يدفعوا للمسلمين بسببها جزاء ما اقترفت أيدهم، فهذه

الآية محل النقاش والتفكر والتدبر نزلت في سورة التوبة، التي نزلت على النبي عليه السلام أثناء خروجه لقتال الروم، وهي من أواخر السور التي نزلت على النبي وهو في المدينة، إذ نزلت في السنة التاسعة من الهجرة، وهي أيضًا السورة التي كشف بها الله تعالى أحوال المنافقين ومكائدهم، كما أورد فيها الله عزّ وجل ما جرى في غزوة تبوك من وقائع، وإذا أمعنت التدبر في الآية ستجد أنها لم تفرض على المسلمين قتال تلك الفئة حتى يسلموا، ولكن حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وقد ارتبط سداد الجزية هنا بطريقة دفعها وهو دفعها عن صغار، أي تدفعها تلك الفئة وهي مجبرة عن ذل وهوان، وهذه طريقة لا يبين منها أنها طريقة دعوة، أو طريقة تحبيب في الدين، ولكنها لغة قتال، ولكن قتال من؟ هل قتال أهل الكتاب؟ لا، لم يرد ذلك في الآية، فالآية لا تتحدث عن أهل الكتاب ولكن تتحدث عن فئة اسمها «من الذين أوتوا الكتاب»، ولكن ماذا نفعل لأولئك الذين حرَّفوا الكلم عن مواضعه فوضعوا أهل الكتاب كلهم جميعهم بلا استثناء مكان فئة صغيرة قليلة لها أسبابها اسمها «من الذين أوتوا الكتاب»، وفوق هذا وذاك فإن هذا الأمر لا يستهدف كل هذه الفئة، ولكنه يستهدف فريقًا منهم أوجز الله لنا صفاتهم وهي «لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق»، وهؤلاء قطعًا يختلفون عن فئات أخرى من أهل الكتاب قال الله سبحانه عنهم: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»، والمعنى لا غموض فيه، بل إنه أكثر وضوحًا من الوضوح نفسه، فالذين هادوا والنصارى والصابئون طالما أنهم آمنوا بالله واليوم الآخر، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لأنهم في معية الله. إذن، من هم هؤلاء الذين طلب الله من المسلمين الأوائل قتالهم وفرض الجزية عليهم؟ الأمر هنا مرتبط بسبب نزول الآية، فسورة التوبة كما قلنا نزلت على الرسول، عليه السلام، بمناسبة غزوة تبوك التي نعلم جميعًا أنها كانت ضد الروم الذين دخلوا إلى الجزيرة العربية واتخذوا تبوك شمال الجزيرة العربية موقعًا لجيشهم تمهيدًا لغزو المدينة، وقتال الرسول والمسلمين والقضاء عليهم، فما كان من النبي إلا أن جهز لهم جيشًا أطلقوا عليه جيش العسرة، وانطلق الجيش لدحر جيش الروم الذي تكوَّن من قبائل الغساسنة التي كانت تسيطر على فلسطين وبلاد الشام، والسورة بأكملها مرتبطة بوقائع حياتية وجهادية مرت على النبي وعلى المسلمين الذين معه، والأمر الذي أصدره الله سبحانه في الآية الكريمة للمسلمين خاص بقتال قبائل الغساسنة الذين كانوا ملوك الشام، وقادة غزوة تبوك ضد المسلمين والذين دخلوا غزاة محتلين إلى بلد آمن ليقضوا على أهل الإسلام ويحتلوا بلاد العرب، وقد ارتكبوا أثناء دخولهم جرائم

وعاثوا في الأرض الفساد، ذلك الجيش الرومي الغساسني وقادته كانوا ينتمون للمسيحية «اليعقوبية» وقد كانت الكنيسة اليعقوبية هي التي قامت بتمويل جيش «غزوة تبوك» لأسباب استعمارية وبتحريض من الروم للقضاء على هذا الدين الجديد الذي بدأ في توحيد الجزيرة العربية، وكانوا قد بدأوا في قتل المئات من أفراد القبائل المتاخمة لحدودهم والذين كانوا قد أسلموا وأجبروا الآخرين على الارتداد عن الإسلام، وكانوا من قبل قد قتلوا بعض الصحابة الذين كان الرسول قد أرسلهم إلى الأردن للدعوة للإسلام، وكانوا من قبل أيضًا قد قتلوا الصحابي «الحارث بن عمير الأزدي» والذي كانت بسبب قتله غزوة مؤتة.

وإذا كان القرآن أورد لنا قصص الأنبياء والأمم السابقة، فإنه أورد لنا أيضًا جوانب من سيرة الرسول وما مر به وبالمسلمين الذين معه للعبرة «مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، ولم تكن هذه القصص تشريعية، ولكنها كما قال للعبرة، فما كان أمر الله للمسلمين بقتال قبائل الغساسنة المعتدين وفرض غرامة مالية عليهم اسمها جزية جزاء لما ارتكبوه أمرًا تشريعيًا لعموم المسلمين إلى أبد الآبدين، بمعنى أن علينا عندما نقابل بعض الغساسنة أن نقاتلهم، حتى نأخذ الجزية منهم، ولكن الأمر الرباني هنا كان مرتبطًا بحرب كانت قائمة بالفعل، وكان على المسلمين الاستمرار في قتال هؤلاء حتى يخضعوهم ويلزموهم بدفع الغرامات المالية التعويضية والتهديدية التي تجعلهم صاغرين أذلاء يكفون عن تهديدهم للجزيرة العربية والمسلمين، والذي سيدفع الجزية هنا ليسوا عموم أهل الشام، ولكن قادة القبائل، أو «نظام الحكم» هناك لا الشعوب التي يحكمها هذا النظام. أما غير هؤلاء، فقد قال الله سبحانه عنهم: «لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»، أي أن الذين لم يقاتلونا ولم يخرجونا من ديارنا، فليس لنا إلا أن نبرهم ونقسط إليهم ويكون بيننا حسن جوار وعلاقات دبلوماسية، فالجزية إذن هي الغرامة الدولية التي تفرض على المعتدي، وحسن الجوار يكون للمسالم غير المعتدي، ولننتبه مرة أخرى إلى أن القتال والجزية هنا لم يكونا على «أهل الكتاب»، ولكن على الروم والغساسنة «الذين أوتوا الكتاب»، وتوافرت فيهم الصفات التي أوردتها الآية، لذلك كان الرسول، بعد تبوك قد جهز تنفيذًا لهذا الأمر الرباني جيشًا ولى عليه أسامة بن زيد، وقال له: «وطئ بجيشك أرض الشام ثم عد»، أي لا تحتل البلد ولكن ادخل لإخضاع هؤلاء المعتدين، ثم توفى الرسول وكان ما كان، ولنا عودة للحديث عن الغزو والاحتلال.

****

ولكن من هم الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب؟ هم فئة لم تؤمن بكل الكتب السماوية التي نزلت قبل الإسلام، بل آمنت بكتابها فقط، وكفرت بالكتاب الذي جاء بعدها، والمعروف أن اليهود لم يؤمنوا بسيدنا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وبالتالي لم يؤمنوا بالإنجيل، فهم بهذه المثابة يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، وكل آيات «الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب» كانت أسباب نزولها مرتبطة بيهود المدينة، ومنها مثلاً أنهم جاءوا للرسول عليه السلام أكثر من مرة وطلبوا منه أن يطبق فيهم القرآن، وقالوا نحن نؤمن بما ستطبقه علينا، وعندما حكم الرسول عليهم بما في القرآن، ماذا فعلوا؟ أخبرنا الله سبحانه بقوله «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ».

فما قصة الغزوات والاحتلال؟ وهل كان ذلك كله فتوحات إسلامية، تهتز مشاعرنا طربًا وفرحًا من أجلها، ونصيح قائلين بخصوصها: الله أكبر الله أكبر، فلنستمر معًا لنعرف.

****

هل تحب أن نستمر في حديثنا السابق لكي ندلف منه إلى الاحتلال والغزو اللذين أطلقنا عليهما فتوحات؟ فليكن، كنا نتحدث عن الجزية، فقلنا هل فَرَضَ الإسلامُ جزية؟ وعلى من؟ وانتهينا إلى أن هذه الجزية كانت حكمًا خاصًا بجزاء عقابي أمر الله المسلمين في زمن النبي بتطبيقه على أمة الروم التي دخلت إلى الجزيرة العربية لتحتلها وتقتل أهلها، ولم تكن وسيلة للدعوة إلى الإسلام، فالقتال هنا دعوى وليس دعوة، وأصل الموضوع أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل أن يعبده الناس جبرًا، فقال سبحانه «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» وقال «فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ»، وحينما وجد الله سبحانه أن الرسول عليه السلام يلح على المشركين ليؤمنوا بالله أراد أن يعلمنا جميعًا أن هذا الإلحاح هو «إكراه»، وأن دور المسلم فقط هو «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ» لذلك قال الله رب العزة للنبي «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جميعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ».

لماذا قال الله للنبي صلى الله عليه وسلم ذلك؟ لماذا قال له: «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين»؟ هل تظن أن الرسول كان يمسك بعصا ليكره المشركين على الإيمان بالله؟ لا والله، ما كان يفعل ذلك! ولكنه كان فقط يجهد نفسه ويلح على المشركين أن يؤمنوا بالله، وقد اعتبر الله سبحانه أن هذا الجهد وهذا الإلحاح هو إكراه! لذلك في موضع آخر

من القرآن قال الله سبحانه «فلعلك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا»، وكلمة باخع هنا معناها «مُهلك نفسك من الجهد والإلحاح والحزن إن لم يؤمنوا، معنى هذا أن الإيمان يجب أن يكون عن إرادة حرة لا تشوبها أي شبهة إكراه، حتى أن المبالغة في الجهد والإلحاح اعتبرها الله سبحانه «إكراهًا» فإن قام أحدنا حماسًا وغيرة وحمية بإجبار أحدهم على الإسلام فإنه يكون قد ارتكب معصية كبرى تحدى فيها إرادة الله!.

فما الإيمان الحقيقي إلا عن شهادة حرة، فهل يكون مؤمنًا حقًا من شهد بأنه لا إله إلا الله وهو تحت وطأة خوف؟هل شهادته صحيحة؟ وما جدواها؟! أتكون مهمتنا هي الحصول على الأغلبية في «ماراثون الأديان» أو على الأقل الحصول على الأكثرية! ومن ذا الذي قال للناس إن الله يريد أن يحصل على الأغلبية؟! أعلم أن الأحزاب التي تبحث عن البرلمان هي التي تريد أن تحصل على الأغلبية أو الأكثرية، لا يهمها في شيء أن تكون أغلبيتها تتكون من أصوات التافهين أو السطحيين أو المجرمين أو الصالحين والعلماء، فصوت المجرم يتساوى في الديمقراطيات مع صوت الصالح، ولكن الإيمان بالله ليس كذلك، ليس فيه برلمان، ولا نبحث فيه أبدًا عن العدد، ولكن الله يريد المؤمن الحق حتى ولو كان واحدًا، فسيدنا نوح عليه السلام لم يحصل على أكثرية، وسيدنا إبراهيم كذلك، وسيدنا يونس لم ينجح في البداية في أن يحصل ولو على مؤمن واحد فثار على قومه وتركهم مهاجرًا فالتقمه الحوت في القصة التي تعرفون، وكذلك كل الأنبياء لم يكن أيهم صاحب أكثرية أو أغلبية، فلماذا ظل المسلمون بعد وفاة النبي عليه السلام يبحثون عن الأغلبية والرقم الأكثر في العالم، وكأن الله طلب منا ذلك وجعله فريضة علينا!.

****

هل تريد أن أصدمك؟ رغم أنني لا أحب سياسة الصدمات ولا الأفكار الصادمة ولكن مجبر أخوك لا بطل، وإذا لم يكن من الموت بد فمن العار أن تخفي ما عرفته، أو ما دار في عقيدتك من أفكار، من أجل هذا إذن فاعلم أن الإسلام الذي قدموه لنا عبر قرون ليس هو الإسلام الحقيقي الذي أنزله الله على محمد بن عبد الله رسول الإسلام ونبيه! الإسلام الحقيقي تم إخفاؤه في مغارة سرية، لأنه لم يكن على هوى الملوك والسلاطين، وقد كان من اليسير على جمهرة من الفقهاء ممارسة الإخفاء عن طريق التحريف للكلم عن مواضعه، ومن خلال هذا التحريف ظهر «إسلام الغزوات والقتل والإكراه والحرق والتعذيب»، ولكن لتخفيف وقع تلك الأشياء على القلوب تمت تسميتها بـ«الفتوحات» و«نشر الإسلام وإجبار الطواغيت على إعطاء الناس حرياتهم»! وما أعظم الفتوحات،

خاصة إذا ما اقترنت بنشر الإسلام، ألم يقل الله تعالى «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا »؟ نعم، كان الفتح الحقيقى هو عودة النبي عليه السلام إلى بلده فاتحًا لا غازيًا، كان الفتح هو النور الذي دخل إلى القلوب ففتح مغاليقها، كان الفتح هو الدخول في معية الله طواعية واختيارًا لأنه يستحق أن يُعبَد، ولكن فتح النور هذا تحول على يد القدماء إلى «احتلال» لبلاد وإكراه أهلها على الإسلام! وظللنا عمرنا كله نفتخر بتلك الأيام التي كانت فيها جيوشنا قوية نغزو بها العالم، نستعمرها ونأخذ خيراتها، ونفرض عليها ديننا، ونقول ونحن نتوق شوقًا لتلك الأيام: «ليتها تعود»! من الآن يجب أن نقولها صراحةً دون خوف من الجماهير التي تجهل، أو طواغيت الدين التي تريد احتكاره، يجب أن نجاهر بها مهما كانت النتائج فقد بلغ السيل الزبى، ولم يعد في قوس الصبر منزع، إذن فاعلموا أن الإسلام الذي بين أيدينا ليس هو الإسلام الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على سيدنا محمد عليه السلام، بل هو دين مختلف جد الاختلاف، لذلك أنا لا أعتبر أن تلك الأفهام التي استقرت عليها معظم أو غالبية العقلية الجمعية للأمة هي الفهم الصادق للإسلام النوراني العظيم، بل أعتبرها ليست من الإسلام في شيء، إذ هي تفاسير القدماء وأعمالهم ومواقفهم، هي التراث وحده دون غيره، وينبغي أن ننسبها لمن فكروا فيها لا للإسلام، ولعلنا نتذكر ما قلناه آنفًا من أنه لم يكن من أهداف الإسلام الانتشار في كل بقاع الأرض وإلا لطلب الله منا ذلك، نعم أرسله الله رحمة للعالمين، لمن يؤمن به ولمن لا يؤمن به كلاهما سواء، لم يطلب الله منا أن نصل لنتيجة مؤداها أن يكون الإسلام هو صاحب الأغلبية في العالم، أو حتى صاحب الأكثرية، بل إن الأكثرية في الإسلام مذمومة، ألم يقل الله تعالى «وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله»، وقال أيضًا «بل أكثرهم لا يعلمون»، وقال «وأكثرهم لا يعقلون»، و«ولا تجد أكثرهم يشكرون»، و«ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم».. وهكذا تقابلنا عشرات الآيات من القرآن الكريم، ليظهر لنا أن المسألة عند الله سبحانه ليست بالكثرة بدليل أنه قال «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا».. أما عن القلة فقال الله سبحانه عنهم «وقليلٌ من عبادي الشكور»، وقال أيضًا «وقليلٌ من الآخرين»، وقال أيضًا «وما آمن معه إلا قليل»، بل إن كل الرسل تقريبًا لم يتبعهم إلا قلة من أقوامهم؟! إذن، ما هي القصة الحقيقية، القصة باختصار أن الله طلب منا أن ندعو للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وطلب منا أن نجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وطلب منا فقط أن يقتصر دورنا على التبليغ، فقال للرسول عليه السلام إن الأمم من الممكن أن تكذبكم، فماذا ستفعلون آنذاك؟، هل ستذهبون لهم بالسلاح؟، هل ستقاتلونهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا قالوها عصموا منكم

دماءهم وأموالهم؟ لا والله، إن الله قال «وإن تُكَذِّبوا فقد كذَّبَ أممٌ من قبلِكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين».. البلاغ المبين فقط يا عباد الله، وتأكيدًا لهذا قال الله سبحانه «فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر».. لا سيطرة لك على قلوب العباد فإنك لا تهدي من أحببت ولكن الله أيها العباد يهدي من يشاء، والمشيئة هنا وإن كانت عائدة على الله إلا أنها أيضًا تعود إلى الإنسان نفسه، فلو شاء العبد أن يهتدي لهداه الله، أما أنت أيها المسلم فكل دورك هو أن تدعو إلى الله على بصيرة كما قال رب العباد لرسولنا الكريم «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني». هي الدعوة لله على بصيرة يا أخي المسلم، وإذا أردت أن أسترسل لك في ذكر آيات القرآن التي تكلفنا بالدعوة والبلاغ المبين فقط ما وسعني الكتاب كله.

****

معظم العرب لم يسلموا، مات الرسول ومعظمهم لم يؤمن برسالته! هذا هو ما أنبأ اللهُ به نبينا عليه السلام، أنبأه بهذا منذ أن بعثه، فقال له: « لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»، ثم قال له: «وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ»، ومع ذلك ظل نبينا يدعو لأن الله أخبره بأنه «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» مهمته البلاغ فقط «وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ» مهمتك هي البلاغ أما الحساب فهو لله وحده.

****

كل مهمتنا هي الدعوة والبلاغ، وعلى هذا فلا تعوّل كثيرًا يا أخي على ما نقله لنا التراث من فهم القدماء لـ«آية الجزية»، فالدين كما قلنا ليس فيه إكراه، ولكن القدماء استخدموا هذه الآية في غير موضعها، ومن أسف أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه، بقصد أو بجهل وعدم إدراك للسان القرآن المبين، لذلك تحولت الجزية من عقوبة على من يغزو بلادك، إلى وسيلة في يد المسلمين يغزون بها بلاد العالمين تحت «مُسمى إسلامي»: «فتح، وجزية، وسيف، ومصحف، والله أكبر»، وتحت راية الله أكبر تراق الدماء! الآن، لك أن تعلم أن فكرة الفتوحات هي فكرة اعتنقتها إمبراطورية عربية جديدة، أرادت أن تجد لنفسها مكانة عظيمة في العالم، وكانت إمبراطوريات العالم وفقًا للتاريخ تقوم على غزو بلاد وضمها إلى ممالكهم، وما فعله العرب لم يكن إلا تطبيقًا لقواعد عصرهم ورغبتهم في الاستحواذ على العالم، وكما جاءت الحروب الصليبية إلى المنطقة بنزعة استعمارية واضحة تتخفى وراء

الصليب، خرجت جيوش العرب في عهد الصحابة والتابعين تريد الاستحواذ على معظم العالم بنزعة استعمارية اختفت وراء القرآن والإسلام ونشر الدين، وأطلقوا عليها الفتوحات تشبّهًا بفتح مكة! ومن هذا التعسف في فكرة نشر الإسلام والخروج بها من سياقها الصحيح ظهر إسلام السيف والقتال والإكراه وحد الردة، واختفى إسلام لا إكراه في الدين، و«أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين»! أما محاولات التجميل التي أجراها فريق «المبرراتية» لتلك الغزوات فهي التي أدت إلى ظهور الإخوان والقاعدة وداعش وغيرهم، ومن إسلام هؤلاء المبرراتية خرجت أفكار التعذيب وقطع الرؤوس والقتل بالحرق للمخالفين أو لغير المسلمين.

****

نعود مرة أخرى إلى آية الجزية التي وردت في القرآن الكريم في سورة «التوبة» نعود ونحن نتجرع الحسرة على ما قام به أجدادنا من المسلمين القدماء، أولئك الذين فرضوا الجزية على البلاد التي دخلوها تحت مسمى الفتح، وبأنها من شريعة الله! ولأن الذين فرضوها هم الصحابة! لذلك أصبحت الجزية بهذه المثابة إرثًا تاريخيًا ودينيًا لا يمكن لعاقل أن ينكر فرضيتها، أو على الأقل يصبح الذي ينكر فرضيتها مغامرًا، أو كافرًا، أو فاسقًا، ولكننا ونحن في طريقنا إلى قراءة جديدة للإسلام يجب أن نتحرر من قراءات القدماء مهما كان تقديرنا لهم، نحفظ لهم سبقهم، ونغبطهم على رؤيتهم لنبينا الحبيب عليه السلام، ولكن الإسلام لم يعط قداسة لأحد في تبليغ الرسالة إلا للنبي وحده، وبعده فالكل لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، فلا تقل لي هذا شيخ الإسلام، ولا ذاك حجة الإسلام، حتى الذي يكتبه حكماء أمتنا وأعظم من فيها يُنسب إليهم لا للإسلام، والذي أكتبه في كتابي هذا إنما أنسبه لنفسي ولا أنسبه للإسلام، ولا أقول إلا أن هذا هو ما فهمته، وهو يلزمني ولا أُلزم به أحدًا.

****

وأثناء قراءتنا للتاريـخ وأحداثه اكتشفنا أشياء كثيرة، إذ وجدنا أن القدماء قرأوا النص القرآني على نسق لغوي معين وفقًا لمعارفهم البيئية والمجتمعية والإنسانية، وعلى منوال الأفكار التي توارثوها من أمم سابقة، بل إن واقع العالم وقتئذ كان له الدور الأكبر في فهم القدماء للقرآن، كما أنهم لم ينتبهوا للفرق بين اللسان القرآني ولغتهم العربية، وعلى مدار قرون ظللنا نعيش أسرى فهم هؤلاء القدماء للدين مع تغيُّر الأزمان والأحوال، ومع استمرار

تأخر الأمة وتراجعها الحضاري أصبح فهم القدماء في ضميرنا هو الفهم المثالي، وأصبحت دولتهم هي «يوتوبيا» الفاضلة المثالية، حتى إنهم قالوا عن جيل الصحابة مثلًا إنه «جيل قرآني فريد» لا يتكرر في مثاليته ولن يتكرر، أليس هو الجيل الذي تربّى على يد النبي! ومن هنا أصبحت دولتهم مقدّسة، وتطبيقهم للدين مقدسًا، ومن خرج عنه خرج عن الإسلام، وبذلك تم تجميد عقل المسلم وجعله أسيرًا لعقول ناس ماتوا منذ قرون طويلة! فكان أن نشأت الظواهر «المتأسلمة» التي تعيش بيننا بعقليات «ماضوية» سلفية بامتياز، وكانت المفارقة أننا حينما نحاول إحياء فهم جديد للإسلام إذا بالمجددين من أصحاب المدرسة الماضوية يعيدون الفهم، ولكن بعقلياتهم الماضوية، فكانوا كأنهم يقلبون القماشة على وجهها الآخر! أو على أعلى تقدير يقدمون لنا نفس القديم، ولكن بثياب جديدة. ورغم أننا كما قلنا وسنظل نقول نحمل التقدير لا التقديس للسادة القدماء، صحابة كانوا أو تابعين، فإننا يجب أن نتعامل مع أفهامهم للدين وتطبيقاتهم له على أنها نماذج لتطبيق بشرى يرد عليه الخطأ والصواب، وصوابه من الممكن أن يكون خطأً في أزمنة أخرى، إذ لكل واقع حال، ولكل حال مآل، وفي طريقتنا نحن لإحياء فهم جديد للدين رأينا أن نضبط الألفاظ والكلمات على اللسان القرآني، فاكتشفنا أن الله تحدث عن فئات من أتباع الكتب السماوية، هم أهل الكتاب، والذين آتيناهم الكتاب، والذين أوتوا الكتاب، والذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، ثم اكتشفنا بعد ذلك أن آية الجزية لم تُفرض على أهل الكتاب، وهم عموم أتباع الأديان السماوية، ولم تفرض أيضًا على «الذين آتيناهم الكتاب» ولم تفرض على «الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب» ولكنها فُرضت فقط على «الذين أوتوا الكتاب»، كما أنها لم تفرض عليهم جميعًا ولكنها فُرضت على فريق منهم وفقًا لما جاء بالآية الكريمة «مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ» وحرف «مِن» هنا للتبعيض أليس كذلك؟!.

ثم كان أن توفى النبي عليه السلام وترك لنا معنى الجزية الذي ورد في القرآن واضحًا بينًا، فقانون الجزية ليس فيه أي غموض أو إبهام، وهو لا يستلزم توقيعها على كل شعب الشام أو كل الغساسنة أو كل الروم في كل بقاع الأرض، ولكنها غرامة مالية على «نظام الحكم» الذي تعدى على أرض العرب في مؤتى وتبوك ليظل دائمًا تحت السيطرة لا يستطيع قتالًا ولا تعديًا، ولكن ما الذي حدث بعد وفاة النبي؟ قامت دولة الخلافة، وأصبح الصحابة رضوان الله عليهم، هم أصحاب الحكم، وقام سيدنا أبوبكر، ومن بعده باقي الخلفاء الراشدين بإنشاء جيوش الفتوحات، وفي ظل الخلافة تم فتح بلاد الشام والعراق والقوقاز ومصر وليبيا وتونس وبلاد فارس، وهكذا دواليك، ثم تم فرض الجزية على أهل البلاد المفتوحة!

وفقًا للقواعد التي وضعوها للجزية، وفي علوم القدماء قالوا إن الذي يُسلم تسقط عنه الجزية! فكان فرض هذا المبلغ المالي يحمل شبهة إكراه تجبر المواطن المصري أو الشامي والعراقي على الدخول في الإسلام حتى يتجنّب دفع الجزية، وهذا ما يخالف صريح القرآن الكريم الذي قال «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ»، والذي اعتبر أن إلحاح الرسول عليه السلام على الكفار حتى يسلموا هو الإكراه بعينه «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جميعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ». ومن الغريب أنه تم تلبيس الجزية التي كانت غرامة على قوم بأعينهم، ثوب الدين، فقالوا إن الجزية إنما فُرضت لأن جيش المسلمين سيحمي أهل هذه البلاد، وهذا المبلغ هو مقابل الحماية!.

ومن ذا الذي طلب منا أن ندخل إلى بلاد الناس فنحتلها ثم نفرض على أهلها غرامة، ثم نقول إن هذه الغرامة لحمايتهم؟!

ولماذا دخلت جيوش المسلمين أصلًا إلى هذه البلاد؟!

والإجابة التي عندهم هي: لينشروا الإسلام، ألم يقل الرسول «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإن قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها».

ولكننا لا يمكن أن نقبل صحة هذا الحديث لأننا إن عرضناه على القرآن وجدناه يخالف مخالفة صريحة آية «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ»، وآيات أخرى كثيرة على نفس المعنى.

فيردون: يا أخي إننا لن نقاتل كل الناس، ولكننا سنقاتل فئةً من الناس تمنعنا من الدعوة لله.

- هذا عظيم، فطالما حاربنا من يمنعنا من الدعوة، لماذا فرضنا غرامة على من لا يمنعنا؟!.

- لنحميهم.

- ممن؟.

- من الذين يمنعوننا!!.

تخيلوا معي أننا في دنيا أخرى، وأننا نعيش في بلادنا في ظل نظام حكم نقبله أو نرفضه، وإذا بدولة أخرى تغير علينا وتحتل بلادنا لتنشر دينها، ثم تفرض غرامة على من لم يتبع دينها، ثم تقول لنا إن سبب هذه الغرامة هو أنها ستحمينا من الدول الأخرى! أيحتاج الحق إلى ذلك؟! الله سبحانه طلب منا أن نتعامل مع أهل الكتاب بطريقة أخرى غير الطريقة التي فعلها القدماء حيث قال لنا «لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»، ثم طلب منا أن نجادلهم فقط للدعوة، فقال «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»، أي أن الجدال نفسه يجب أن يكون بالتي هي أحسن، ويجب أن نقول لأهل الكتاب: «آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ» ثم ماذا؟ «وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ». إلهنا وإلهكم واحد؟! الله يقول لنا أن نقول لأهل الكتاب إننا نؤمن بالذي أنزل إليكم والذي أنزل إلينا، وكل ما طلبه منا الإسلام مع أهل الكتاب أن نقول لهم «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ»، بمعنى أن نطلب منهم أن يطبقوا التوراة والإنجيل على أنفسهم، ثم أخبرنا الله أن أهل الكتاب ليسوا شيئًا واحدًا، فقال لنا «لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ». هذا هو المطلوب منا تجاه أهل الكتاب، وطلب الجزية أو الغرامة لم تكن إلا في سياق تاريخي معين على قوم بأعينهم هم «من الذين أوتوا الكتاب» ارتكبوا جريمة غزوة على بلاد العرب في زمن النبي، وهي من القصص المحمدي في القرآن الكريم وليست للتشريع.

ولكي يتم لهم ما أرادوا فيجب أن يتهموا كل من لم يتبعهم بالكفر، وبذلك أصبح للكفر عندهم تعريف «لغوي» وتعريف آخر قالوا عنه إنه تعريف «اصطلاحي»، وفي تعريفهم الاصطلاحي قالوا إن كل من لم يؤمن بالإسلام ورسالة نبيه محمد عليه السلام فهو كافر!! فأصبح عدم الإيمان عندهم مرادفًا للكفر، وفي مستقبل الأيام أصبحنا نرى شيخًا مسلمًا يقول: أنا كافر بدين النصارى، وهو يظن أنه يعني أنه غير مؤمن به، فتبدل الحال، ووضعوا لهذا الكفار أحكامًا، ثم انتقلوا بنا من مرحلة كفر الأغيار الذين يخالفوننا في الدين، إلى كفر المسلمين أنفسهم، كيف هذا؟ هذا ما سنعرفه في الفصل القادم.

«سيقرأون كتب الله المقدسة كما نقرأها، ثم سيطرح الواحد منهم لكل كلمة وردت في كتب الله عدة معاني بعيدة كل البعد عن المعنى الحقيقي، وسيوحي لهم الشيطان بأن يتبنوا المعنى البعيد، لذلك سيسهل على الإنسان «تحريف الكلم عن مواضعه».

«8»

تحريف الإيمان والكفر

((اعلموا أيها الناس أن خَلـق الله أربعة هم أهل الإيمان، وأهل الجهل والغفلة، وأهل الكفر، وأهل النفاق، أما أهل الإيمان فهم من عرفوا الحق فاتبعوه، وأهل الجهل هم من لم يعرفوا الحق فلم يتبعوه، وأهل الكفر هم من عرفوا الحق فجحدوه وأنكروه، وأهل النفاق هم أتباع للشيطان، جحدوا الحق، ثم تسللوا إلى الإسلام ليقوموا بمهمة الشيطان بالقعود على الصراط المستقيم ليخرجوا المسلمين من دينهم، هذا الفريق الأخير ظهر بمظهر المحب المتشدد لدينه، ولما لا والله قال عنهم في كتابه الكريم «وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ. .» هؤلاء الذين مردوا على النفاق. أي تمرنوا عليه وأتقنوه. حتى أنهم كانوا يبكون في الصلاة خلف النبي، ظلوا على مدار أجيال المسلمين، يورِثون فهمًا منحرفًا للمسلمين، وما استطاع أحدنا أن يكذب فهمهم، أو يرده، أو يرد عليه، لأنهم كانوا مع نبي الله، فظننا أنهم كانوا من صحابته المؤمنين الصالحين، ألم يقل الله إن النبي لم يكن يعلمهم، وأن الله وحده هو الذي يعلمهم، وأنه سيعذبهم لنفاقهم مرتين)).

****

.أ.

عباد لا عبيد

كان من تحريف الكلم عن مواضعه، وعن بعض مواضعه، القضاء على حرية الإنسان، والتلاعب في الأفهام عن العلاقة التي تحكمنا بالله رب العالمين، وهذه العلاقة عقدية، نعم هو عقد نشأ بيننا وبين الله منذ بداية الخليقة، لم يكن هذا العقد بين الله سبحانه من جانب، وآدم وحواء من جانب آخر، ولكنه كان بين الله والإنسان، والإنسان الذي أعنيه هو كل إنسان جاء إلى الحياة الدنيا، ونشأ فيها وكان عاقلاً مدركًا ولم يمت إلا بعد اكتمال عقله واستواء فهمه، سواء كان موته وهو في مقتبل الشباب أو في أرزل العمر، هذا هو الإنسان الذي أعنيه، أما بداية العلاقة التعاقدية فتبدأ يوم أن عرض الله الأمانة على الخلائق فتهيبوها وأبين أن يحملنها، ثم أدرك الإنسان طبيعة هذه الأمانة وظن أن أمرها سهل فقبلها «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا».

وبما أنه أمانة فتكون بطبيعة الحال هي من أمور الألهوية أو الربوبية، هي لله، ونحن قبلنا أن يودع الله عندنا هذه الأمانة، إذن ما هو هذا الشيء الذي من حق الله تعالى؟ هل هو شكر الله؟ إنما الشكر يكون عندما يقدم الله لك نعمة وقتئذ وجب عليك شكره، فهو يقول «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» قدَّم لك فشكرته، ولكن الله يستحق الحمد والعبادة حتى ولو لم يقدم لك شيئًا، هو يستحق أن يحمد، لقد أعطانا الله الحرية في الإيمان والكفر، وقال «لا إكراه في الدين» ولتمام هذه الحرية جعلنا الله في الدنيا عبادًا له لا عبيدًا، وإذا كانت قواميس اللغة تقول إن جمع كلمة عبد هي عباد أو عبيد دون أن تضع تفرقة بين هذا وذاك، إلا أن هذا خطأ ولم يرد هذا في اللسان القرآني على هذا النحو، فلا يمكن أن يقول أحد الناس على ناسٍ يعملون عنده: هؤلاء عبادي!! فيكون الجمع على هذا النحو جائزًا، ولكنه يقول: هؤلاء عبيدي، ولكن كلمة عبد تُجمع على عباد عندما ننسبهم لله، وعبيد عندما ننسبهم للناس، ثم إننا إذا أردنا أن ننسب أنفسنا لله في الحياة الدنيا فنقول: نحن عباد الله، لا عبيد الله، ولكن كلمة عبد تُجمع على عبيد عندما تنسب لله

يوم الحساب، وتجمع على عبيد لمن دخل النار، وتُجمع على عباد ونحن إن شاء الله في الجنة، أي أننا في الجنة عباد الله لا عبيد الله.

ما سبب هذا؟ هذا في الحقيقة ليس كلامي ولكنه كلام الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، إذ أنه عندما تحدث الله عن الناس في الحياة الدنيا وصفهم بالعباد، وحين وصفهم بالعباد أعطاهم هذا الوصف سواء كانوا طائعين أو عاصين، وعلى سبيل المثال قول الله «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» هؤلاء من العاصين الذين أسرفوا في المعصية، الله يقول لهم «يا عبادي» ولم يقل لهم: يا عبيدي..وقال أيضًا «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا.

هؤلاء من الطائعين المتواضعين، وقال «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ. ”

كل الوصف الذي وصفه الله لنا في الدنيا هو العباد لا العبيد، أما في الآخرة وقت الحساب أراد الله أن يزرع الطمأنينة في نفوسنا فقال عن موضع الحساب وقت وزن العمل الصالح والعمل السيئ «من عمل صالحا فلنفسه* ومن أساء فعليها* وما ربك بظلام للعبيد».

وقال عن هؤلاء الذين يختصمون بغير حق وهم في النار «لا تختصموا لديَّ وقد قدمت إليكم بالوعيد* ما يبدل القول لديَّ وما أنا بظلام للعبيد” .

وقال عن أولئك الذين سيذوقون عذاب الحريق «ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد”.

ثم إذا بالله سبحانه يقول لنا إننا سنكون في الجنة عبادًا لا عبيدًا، كيف هذا؟!

اقرأوا قوله ”يا أيتها النفس المطمئنة * إرجعي إلى ربكِ راضية مرضية* فادخلي في عبادي* وادخلي جنتي” .

هذه النفس المطمئنة لن تقف في موقف الحساب فتكون من العبيد، ولكنها ستدخل مباشرة إلى الجنة دون سابقة حساب أو عذاب، فتدخل في دائرة العبادية مباشرة.

ولكن ما سبب تلك التفرقة اللسانية؟ السبب أن الله أرادنا في الدنيا أحرارًا، نذهب إليه بحريتنا دون إكراه، نختار الطريق إليه دون تخويف أو إرهاب، لا يريدنا أن نشهد بوحدانيته والسيوف على رقابنا، ولكن يجب أن نذهب إليه بكامل حريتنا، لذلك وصفنا بالعباد ونحن في الدنيا..

أن تذهب إليه حرًا بعيدًا عن كل صور الإكراه، ما أعظم ذلك إن فعلت، ما أروع أن تذهب إليه بعيدًا عن أي تأثيرات تؤثر على إرادتك، سواء من مجتمعك أو أسرتك أو بلدك أو المنقول لك عن آخرين قدماء أو جدد، جعلوا أنفسهم وسائط بينك وبين الله.

أنت في الدنيا من العباد، من أهل العبادية، والعبادية لا تكون جبرًا أبدًا، ومع ذلك فإنك لو أردت أن تخرج من دائرة العبادية وتدخل في دائرة العبودية فعليك أن تضع نفسك في موضع العبودية لله، وهو موضع الطاعة التامة بلا نقصان أو زيادة، وهذا ليس في استطاعتك، فهذه هي مرتبة الرسل وهم يبلغون رسالة الله، لذلك قال الله عن رسولنا «وما على الرسول إلا البلاغ» وقال (ولو تقول علينا بعض الأقاويل*لأخذنا منه باليمين*ثم لقطعنا منه الوتين) الرسول هنا يكون في موضع العبودية لا العبادية، فهو ليس حرًا، عليه أن يُبلغ رسالة الله بلا نقصان أو زيادة.

ثم سنكون في الآخرة وقت الحساب «عبيد الله» وحينما يدخل الجنة فريقٌ سيكون في جنة الخلد «عباد الله» أما من سيدخلون النار فسيكونون «عبيد الله»، ولن تجد في اللسان العربي كلمة أكثر جذبًا للانتباه ولإعمال الدهشة من كلمة «عبد الله»، فهي تجمع ونحن في الحياة الدنيا على «عباد الله» وتجمع ونحن في الحياة الآخرة وقت الحساب على «عبيد الله».

نحن في الدنيا يستعبد بعضنا البعض، فتكون مجموعة من الضعفاء المغلوبين على أمرهم عبيدًا لطاغية، ولكننا لا نقول عنهم أبدًا إنهم عبادٌ للطاغية، نحن عباد الله فقط، ولأن الله أعطانا الحرية فإنه وضع لنا بعض الضوابط التي تنظم هذه الحرية حتى لا يعتدي أحدٌ على أحد، ويا لسوء الخلق حينما يقول المعتدي هذا هو دين الله!!.

****

. ب .

الإيمان والانتماء

خلاصة القول الذي أعرفه أن الدين هو النص الإلهي المطلق الذي أنزله الله علينا، أما التدين فهو الاعتقاد بهذا الدين، والاعتقاد لا يشترط فيه العلم بالمعنى الاصطلاحي، ولكن يشترط فيه المعرفة أولاً ثم الإيمان ثانيًا، فلكي أؤمن بشيء يجب أن أعرفه أولاً، ثم يأتي الإيمان به بعد ذلك، معنى هذا أن الإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، ولكي يستقر في القلب يجب أن يتعرف القلب إليه أولاً.

والإيمان أبسط من تعقيدات بعض المتدينين لأنه حالة قلبية معرفية شعورية نورانية، لذلك أشار الرسول إلى قلبه وقال «التقوى هاهنا»، وقال لأحد الصحابة «قل آمنت بالله ثم استقم» هذا هو ما ينبغي أن يكون عليه التدين والإيمان.

لكن هناك فارقًا بين الإيمان الحقيقي والإيمان الوراثي، فمعظم الناس آمنت بدينها ليس عن طريق الاختيار الحر الذي يصدر عن تفكيرٍ وتدبرٍ وإعمالٍ للعقل، ولكن بالوراثة من الآباء، ثم يصبح هذا الدين الوراثي جزءًا لا يتجزأ من شخصية صاحبه، وطريقة تفكيره، بمعنى أنه يحدد مسارات تفكير الإنسان التي تخضع في المقام الأول والأعلى للعاطفة، هذا النوع من الإيمان الوراثي يجعل من صاحبه ليس مؤمنًا بدينه بالمعنى الصحيح للإيمان، ولكن يجعله منتميًا له، فالانتماء للدين هنا يسبق قدرة الإنسان على التفكير والاختيار، في حين أن الإيمان يتطلب الاختيار الحر الذي يستلزم وجود العقل القادر على التمييز والنقد والرفض والقبول، لذلك فإن الفرد الحر صاحب العقل القادر على الاختيار هو الذي يختار دينه لأنه يعتقد أنه الصواب نفسه، ولكن الفرد مهما كانت رجاحة عقله لا يختار وطنه، فسواء كان وطنه هو أعلى الأوطان قدرًا في العالم أو أقلها شأنًا إلا أنه ينتمي له، لذلك فإن الإيمان الصحيح شيء، والانتماء النفسي والعاطفي شيء آخر."

ولنا أن ننظر إلى واقعنا في كل العالم، ليس في حاضرنا فقط، ولكن عبر التاريخ الإنساني كله، ستجد أن الأسرة التي تؤمن بالبوذية دينًا لها على سبيل المثال، تبدأ بتعليم أطفالها تعاليم البوذية، وتصطحبهم في الاحتفالات الدينية، وتحكي لهم مدارسهم عن بوذا، بصفته المعلم المستنير، وتلقنهم أن هناك مسارات سبعة تعطي للبوذي الإلهام، وتقوم بتدريس كتاب الدارما المقدس لهؤلاء الأطفال، ويجب أن تصطحبهم الأسر لزيارة المعابد، ولقاء الكهنة، وأخذ البركة منهم، كل هذه الأشياء يتلقاها الصغير الذي لا يملك القدرة على الموازنة والترجيح والنقد والتفكير الناضج، ويعيش على فكرة تخلب لبه هي فكرة تناسخ الأرواح، ويظل يعيش مع فكرة التناسخ بحسب أنها وسيلة انتقال الإنسان من هيئة إلى هيئة أخرى، فيتحول من إنسان إلى حيوان ما! أو إنسان آخر، ومن هذا التصور يدخلون في تصوره أن طبيعته القادمة ستتحدد وفقًا لما كان يفعله في الدنيا، فإن قام بالخير سيتحول إلى صورة أفضل في حياة مستقبلية، وإن كان مسيئًا سيتحول في حياته المستقبلية إلى طبيعة تجلب عليه الشقاء، ويظل يعيش في تلك الدائرة التي لا تنتهي أبدًا، وتظل المفاهيم البوذية تنغرس غرسًا في ضميره، فيصبح متعصبًا لها، مدافعًا عنها، كل هذا يتم قبل أن يتكامل لديه الفهم والدراية، إذ يعيش مع أهله وأقاربه وجيرانه من البوذيين نفس الحياة ويتشارك معهم في صلواتهم، ويحلق شعر رأسه كما يفعل الكهنة، ويلعب في ساحات المعابد وهو طفل صغير، فيصبح كل هذا جزءًا من تكوينه، وتتشكل من خلاله مفاهيمه، ولك أن تتخيله وهو ذاهب معهم وهم يشيعون الأموات بطقوسهم الغريبة، فبعضهم يقوم بتكفين الأموات بثوب أبيض، ثم يصلون عليه، ثم يقطعون أجزاءه ليقدمونها للطيور الجارحة، فإذا أكلته الطيور كاملاً فإنه يكون طاهرًا، وإن تركت شيئًا منه يقومون بجمعها وحرقها.

ومع مرور الوقت وتعدد حالات الدفن تصبح هذه الطريقة هي الطريقة الطاهرة في خيال الطفل لتشييع الميت، هذا الطفل البوذي عندما يصبح شابًا سيكون قد عاش فترة من الزمن منتميًا لذلك الشكل الديني، محبًا له، يرتبط معه بالمشاعر والذكريات، فلا يرى فكاكًا من هذا الدين، بل سيكون «هذا ما وجدنا عليه آباءنا» هو الانتماء ذاته، هذا الطفل الذي أصبح شابًا مكتمل العقل لن يمرر على عقله قصة بوذا وتعاليمه، وكتابه، وعدم وجود إله خالق للكون، وطريقة تقطيع الموتى وتقديمهم للطيور طعامًا وحرقهم، بل لن يفكر في

عبثية بعض أفكارهم وعبثية تناسخ الأرواح التي أصبحت عندهم بديلة لوجود الخالق، وسيظل ملايين من البوذيين يعيشون مع انتمائهم لتلك الصورة الكلية، وسيجذبون إليهم العديد من الأتباع عن طريق بعض التعاليم مثل ما يطلقون عليه «النيرفانا» أو الصفاء الروحي المتمثلة في عدم حب الدنيا والبعد عن الشهوات والبعد عن الأنانية، وهي ما يطلقون عليه القواعد الأربع النبيلة.

وفي الإسلام نجد مثل ذلك، فقد دخل الطفل إلى الإسلام قبل أن يتشكل وعيه، ولم ينتظم عقله، ويجد مظاهر الإسلام من حوله في كل مكان، المسجد يذهب إليه مع أبيه أو أمه، والقرآن يسمع قراءته في كل مكان، ويدخل في سباق حفظ القرآن في الكُتَّاب أو المدرسة فيحفظ ما تيسر له، وتروى له القصص الدينية، ويقال له إن المسلمين كانوا سادة الدنيا وأنهم فتحوا بلاد العالم قديمًا، وأن الله أجرى المعجزات على يد النبي، وأن جبريل استخرج قلب النبي من جسده وهو طفل ليستخلص منه حظ الشيطان، ويفتخرون أن النبي كان يجامع زوجاته في اليوم الواحد بغسل واحد، وأن هذه فحولة لا يقدر عليها إلا المئات من أهل الجنة!! فإذا بلغ سن المراهقة يسمع في خطب الجمعة الدعاء ضد الكفار والنصارى واليهود، ويلقنونه تعاليم توجب على المسلم أن يقاتل في سبيل الله، وأن الإسلام يجب أن يحارب كل العقائد الأخرى، ويقرأون له آيات من القرآن تدل على ذلك، ويشرحون له أن الله نسخ أو ألغى آيات الرحمة من القرآن، وأنه لا يوجد في الدين إلا قتال الكفار والاسترقاق واستعباد ملك اليمين، وأنه بهذه الطريقة سيدخل الجنة ويتقابل مع الرسول عليه السلام، والمسلم الشيعي يتلقى منذ طفولته قصة مقتل الحسين وموقعة كربلاء وما حدث فيها، ويزرعون في قلبه كراهية معظم الصحابة، فينمو على تلك المشاعر.

لن يمرر أحدٌ منهم تلك الأفكار على عقله، فقد عاشت معه منذ أن كان صغيرًا، وكما يقولون فإن «التعلم في الصغر كالنقش على الحجر»، وقبل أن يكون لديه عقل يصلح لكي يفكر به ويؤمن من خلاله سيكون قد انتمى لدينه الذي لقنوه إياه، وسيصبح وقتئذ متعصبًا لهذا الدين غاية ما يكون التعصب، وإذا أراد أحد أن يصحح له تلك المفاهيم، ويدله على الطريق الصحيح للفهم، سيحاربه وسيعتبره محاربًا للدين، هذا هو الانتماء بعينه، هذا هو «حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا».

ويدخل المسيحي دينه منذ أن يتم تعميده بعد أن يتطهر من الولادة ومخاضها، ويتم تغطيسه في الماء أو رش الماء على جبهته، وعندما يفتح عينيه يجد نفسه في الكنيسة، فينظر فيجد صورة لسيدة فائقة الجمال والنورانية والطهر، فيقولون له إن هذه هي السيدة مريم أم المسيح عليه السلام، أما هذا التمثال لهذا الرجل المصلوب الذي لا تستره إلا خرقة ملابس تغطي سوءته فهو المسيح عليه السلام، وهو ابن الله، وأن الله أنزله من السماء ليخلص البشر من خطيئة آدم الأولى عندما أكل من الشجرة المحرمة، وأن الناسوت الإنساني اختلط باللاهوت الإلهي في صورة المسيح، وأن اليهود صلبوه، يعيش الطفل في أجواء هذا الدين، ويظل معظم عمره الطفولي داخل الكنيسة التي تصبح جزءًا من شخصيته، حينما عاشت تلك المفاهيم في عقل الطفل المسيحي كان مسيحيًّا بالفعل، ولم تكن لديه ملكة التفكير المستقل، لذلك سيظل منتميًا لدينه مدافعًا عنه، ومتعصبًا له غاية التعصب، حيث لا تفكير.

هذا هو الانتماء بعينه، فالانتماء لا يقوم إلا على المشاعر، أما الإيمان فلا يقوم إلا على العقل، وكل الأديان والعقائد يؤمن معظم أفرادها بها بتلك الطريقة الميلادية، لذلك فإن هذا هو إيمان الميلاد، وهو إيمان زائف غير حقيقي.

الإيمان الحقيقي يقتضي إعمال العقل أولاً، ثم له أن يؤمن بما اختاره عقله، فالانتماء يكون بالميلاد، أما الإيمان فيكون بالاختيار، والطفل الصغير الذي دخل دينه دخله قبل أن تكون لديه القدرة على الاختيار. لذلك فإن المسيحي أو المسلم أو اليهودي أو البوذي الذي يختار دينه للمرة الثانية عن إرادة حرة وعن اقتناع وإعمال عقل بعد أن عاش عمرًا في معية الإيمان الميلادي، فإنه يكون وقتئذ قد أصبح مؤمنًا بدينه حقًا، ولأن التفكير يرد عليه التغير والتطور والزيادة والنقصان، فمن الوارد أن يؤمن الإنسان بدينه عندما ينضج، ثم يتغير فكره ويؤمن بدين آخر بعد فترة، فالله هو الصمد الذي لا يتغير أما ما عداه فالكل متغير.

فإذا آمن الإنسان بدينه عن طريق العقل أولاً كان من الضروري أن تنشأ بينه وبين هذا الدين صلة حب، هنا ترتبط المشاعر بالعقل، أما إذا كانت محض مشاعر فقط، فهذا ليس إيمانًا، والذين ينتمون فقط قال الله عنهم «كلُ حزبٍ بما لدِيهم فرحون» لم يقل مؤمنون أو معتقدون.

وقد واجه الرسلُ أصحابَ الانتماء، فكل رسول كان يواجه بمن عاش عمره منتميًا إلى عقيدة فاسدة، فأحبها وأصبحت جزءًا من شخصيته، فعندما أرسل الله موسى لفرعون والملأ من قومه قالوا له «أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَا» هذا الذي وجدوا آباءهم عليه هو الانتماء الذي شبوا عليه قبل أن يتشكل وعيهم.

وإبراهيم عليه السلام عندما واجه قومه وقال لهم «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ» رفعوا أمامه رايات الانتماء، وقالوا «وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِين» انتموا لها منذ أن كانوا صغارًا لذلك يرفضون ما عداها.

كل أقوام الأنبياء كانوا كذلك وفيهم جميعًا قال الله تعالى «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ»، كيف يتركون ما تعودوا عليه، وما عاشوا معه وما أصبح مألوفًا لديهم، يحملون معه الذكريات والأحداث، كيف يتركون هذا كله ثم ينفضون عنهم غبار الاتباع ويعملون عقولهم؟! إن هذا يحتاج إلى تربية تعليمية ومجتمعية ترفع من قدر العقلية النقدية، والعقلية الإبداعية، ولكن التعليم في بلادنا لا يقوم إلا على التلقين.

ومع ذلك فإن الانتماء ليس أمرًا مكروهًا، بل هو من أهم الأشياء في حياة الإنسان، هذه مشاعر خلقها الله فينا، ولكننا نقوم بتوجيهها إلى مسارات خاطئة، ثم نخرجها من مضمونها الرائع لنجعلها تعصبًا وكراهية.

نحن ننتمي لبلادنا ونحبها حتى ولو لم تكن أوطاننا هي أفضل الأوطان، وينتمي بعضنا لأندية رياضية فيقومون بتشجيعها وهكذا، الانتماء أمر فطري، وعظيم أن ننتمي لديننا ولكن بعد أن نؤمن به أولاً إيمانًا صحيحًا.

هذا الانتماء يجعل من يشترك معه في الوطن يتماثل معه في كل الحقوق والواجبات، ولذلك فإن علاقة الانتماء للوطن تختلف حتمًا عن علاقة الإيمان بالدين، وبسبب الخلط بين الانتماء والإيمان استخرج الفقهاء الأوائل ما يسمى «بالولاء والبراء»، وهو يجعل علاقة المسلم بدينه هي علاقة انتماء لا إيمان، وجعلوا من علاقة المسلم بتاريخه وماضي أسلافه أقوى بكثير من علاقته بمستقبله، فهو منسحق أمام أسلافه، يراهم الأعلى والأفضل في

كل الأمور، ومنهزم في حاضرِه لعجزه عن أن يكون مثل أسلافه، وليست لديه القدرة على التخطيط لمستقبله، أو إنتاج المعرفة، والاشتراك مع بني وطنه في صنع مستقبله، لأنه يسير إلى الأمام وهو ينظر إلى الوراء، فيقع بين الحين والآخر، لذلك فإن خطاب جماعات الإسلام السياسي يجعل من العلاقة بين مسلم الهند ومسلم مصر هي أقوى وأبقى من علاقة مسلم مصر بمسيحي مصر الذي يجاوره في السكن ويشترك معه في تاريخ مشترك، إذ هو ينتمي للمسلمين في العالم، وليس منتميًا لوطنه، ولذلك أيضًا قال مرشد الإخوان السابق مهدي عاكف إنه يقبل أن يحكم مصر مواطن ماليزي، ولذلك أيضًا أصبحنا نعرف جميعًا أن الإخوان وجماعات الإسلام السياسي يعتبرون الوطن حفنة تراب عفنة.

ولكن دعك من هؤلاء ولنعد إلى مفهوم الإيمان مرة أخرى لنجد أن القرآن وصف لنا ثلاث فئات من المؤمنين، الفئة الأولى هي: من آمن بالله واليوم الآخر، وقد ورد هذا المعنى في كثير من الآيات القرآنية، ومنها على سبيل الله قول الله تعالى: «وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِم عَلِيمًا»، ومنها أيضًا قوله تعالى «وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وهناك فئة أخرى من المؤمنين هم أولئك الذين آمنوا بأنبيائهم ورسلهم ومثل ذلك قول الله تعالى «فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ. ..».

أما الفئة الثالثة فهم الذين آمنوا بالرسالة التي أنزلها الله على سيدنا محمد عليه السلام، خاطبنا الله بقوله: «إن الذين آمنوا»، وبقوله: «يا أيها الذين آمنوا» ومن ذلك قول الله تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ...» لم يخاطبنا الله أبدًا بـ: يا أيها الذين أسلموا، أو: يا أيها المسلمون، أو مثل ذلك، ولكننا عند الله من المؤمنين، إذ أننا آمنا برسالة الله التي أنزلنا على سيدنا محمد، أما الأصل فهو الإسلام الذي يعني الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذه هي دعوة الأنبياء والرسل، الإيمان بالله واليوم الآخر، لذلك كان إبراهيم عليه السلام حنيفًا مسلمًا، وكذلك كل نبي كان كذلك، كلهم

أدركوا طبيعة حركة الشيطان في الكون ودأبه على إخراج الناس عن الصراط المستقيم فوقفوا ضده واتخذوه عدوًا، ونحن أيضًا من المسلمين، ولكننا بعد إسلامنا آمنا بالرسالة المحمدية.

لذلك عندما قالت مجموعة من الأعراب للرسول عليه السلام إنهم آمنوا بالرسالة المحمدية أخبرنا الله أنهم لم يؤمنوا بالرسالة، ولكنهم أسلموا فقط، أما الإيمان بالرسالة المحمدية فلم يدخل قلوبهم بعد «قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ..».

وإذا كان الظن عند عموم الناس أن الإيمان هو درجة أعلى من الإسلام فإن هذا خطأ شائع، ذلك أنه من البيان الجلي في القرآن أن الإسلام هو الدائرة الأوسع أما الإيمان بالرسالة المحمدية فهي الدائرة الأضيق، أي ليس هناك أعلى وأدنى، والله سبحانه خاطب المؤمنين بقوله « لِمَ تقولون ما لا تفعلون»، ولو كانوا على درجة أعلى ما نهاهم الله عن هذا الفعل المشين، وخاطبهم بقوله «لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي»، ولو كان الإيمان درجة عليا ما خطر على قلب مؤمن أن يرفع صوته فوق صوت النبي، وغير ذلك كثير، إنما كان الوصف هنا لمن آمنوا بالرسالة المحمدية بغض النظر عن درجة اعتقاده.

****

· ج ·

بطلان بيعة الإيمان

كان من تحريف الشيطان للكلم عن مواضعه أن جعل للإيمان بالله بيعة، وقد ألقى الشيطان في روع أتباعه من شياطين الإنس خبر هذه البيعة فوضعوا لها قواعد، وألفوا لها صيغة كلامية، كيف كان ذلك؟ منذ ما يقرب من قرن من الزمان خرجت جماعات إلى الوجود، تنسب نفسها للإسلام وتدعي أن المسلم لكي يكتمل إيمانه ينبغي أن يبايع شخصًا ما على الإيمان بالله، فكأنما هو يبيع نفسه لهذا الشخص وتلك الجماعة، على أن يشتري هذا الذي بويع تلك النفس ويضمن لها الجنة، وهذا من أعجب ما رأينا من تلك الجماعات التي وصفت نفسها بالإسلامية، فالإيمان هو أمرٌ حر يقوم في النفس البشرية بحرية تامة، بعد معرفة وإدراك، فالمجنون ليس له إيمان، والمكره ليس له إيمان، الإيمان حرية شخصية، وهو حالة فردية، ولكن الذي رأيناه أنه يدخل الواحد من الشباب الصغير الذي ليست له معرفة ولا علم، يدخل إلى جماعات التأسلم السياسي، فينخرط في الإخوان أو في جماعات الجهاد، أو القاعدة أو داعش أو غيرها، فيعلمونه أول ما يعلمونه: يجب أيها العضو الجديد أن تبايع المرشد، أو الأمير، وإذا نكثت عن بيعتك، أي خالفتها فإنما تنكث على نفسك، ويحل لنا أن نفعل فيك كذا وكذا!! فبيعتك هذه بيعة دين وإيمان يا فتى وليست بيعة دنيا، ولا يصح إيمانك إلا بها، أنت تبيع لله نفسك، والله يشتري تلك النفس ويهب لك الجنة، ثم يحرفون الكلم عن مواضعه ويشرحون له بيعة العقبة التي كانت للنبي، والبيعات الأخرى التي أداها بعض الصحابة للنبي. نصلي ونسلم عليه. وهي بيعة يعتبرونها نصف الدين، ويقولون إن من مات وليس في رقبته بيعة فقد مات ميتة جاهلية، وتكون الطاعة ملزمة لكل من بايع، يطيعه ولا يعصاه، والبيعة عندهم أولى وأعلى من طاعة الأخ للدولة ورئيسها وقانونها.

يخلطون بين هذا وذاك من باب التلبيس على عباد الله، مع أن هناك فرقًا بين بيعة الحكم والرئاسة للأمة، وبيعة الإيمان والتبعية التي تؤدى للجماعات المتأسلمة أو لأمير يتحكم فيها، فبيعة الحكم نحن نمارسها حاليًا بالطرق الدستورية التي توافقت عليها الأمة

عن طريق «انتخاب الرئيس»، فانتخاب الرئيس هو بيعة، وانتخاب من يمثلنا في البرلمان بيعة، وبيعة الرئاسة هذه قد تغيَّر مضمونها القانوني عبر قرون، فقد كان حاكم البلاد فيما مضى هو الرئيس الأعلى للشعب كله، سواء من كان فيهم يعمل في مؤسسات الدولة أو لا يعمل فيها، ولذلك كانت البيعة عقدًا بالرئاسة، بايعته رئيسًا، فأصبح رئيسًا عليَّ، هذا العقد سُمي بيعة لأن فيه بائعًا ومشتريًا، الحاكم سيبيع جهده ووقته وأمانته وإخلاصه للمحكوم، الذي سيكون في هذا الموضع مشتريًا، والمحكوم سيبيع للحاكم طاعته وتنفيذ أوامره، والحاكم هنا سيكون مشتريًا، ثم تغيَّر مفهوم الرئاسة نفسها من الناحية القانونية عبر الدساتير في كثير من أنحاء العالم ومنها دستور مصر، فأصبح الرئيس الذي يتم انتخابه وكيلاً عن الشعب الذي انتخبه في إدارة شئون البلاد لا رئيسًا عليه، ولكنه بصفته هذه أصبح من ناحية أخرى رئيسًا لمن يعمل في مؤسسات الدولة، إذ أن الرئيس هو الرئيس الأعلى لكل تلك المؤسسات ولكل من يعمل فيها، هذا طالما أن نظام الحكم «رئاسي» أما صلته بالشعب فهي صلة وكالة.

ولذلك فإن الفتاوى التي كانت تخرج من المفتين بأن اختيار الرئيس هو بمثابة شهادة يحاسب عليها المواطن أمام الله إذا كان قد أبدى شهادته . أو اختياره . خطأ، أو نكل عن إبداء الشهادة، فلهؤلاء نقول: إن اختيار الرئيس في الانتخابات هو بمثابة إبرام توكيل من الشعب للرئيس الذي تم اختياره، فالرئيس هنا يحمل صفة الوكيل عن الشعب الذي هو الأصيل، وبالتالي لا مجال للقول بفتاوى الشهادة التي عفا عليها الزمن، إنما هو عقد وكالة ليس إلا، وللشعب أن يوكل من يشاء، وبذلك أصبح الرئيس موظفًا لدى الشعب.

أما البيعة الدينية لأي واحد من آحاد الناس مهما كان، حتى ولو كان حاكمًا للدولة أو ملكًا عليها أو شيخًا لأزهرها فهي لا تجوز شرعًا، هي بيعة باطلة، هي من باب تحريف الكلم عن مواضعه، إذ أن البيعة بمفهومها الحقيقي كانت بمثابة عقد ديني أباحه الله للنبي وحده، فقط، ولم يوكل النبي أحدًا من أصحابه في أخذ بيعة من أحد، اللهم إلا ما قيل عن أنه أناب عنه عمر بن الخطاب في بيعة النساء وفقًا لحديث الصحابية «أم عطية".

أما لماذا لا ينبغي أن تكون البيعة الدينية إلا للنبي؟ فذلك لأن البيعة أصلاً لم تكن للنبي، ولكنها لله، لله وحده يا عباد الله، لذلك قال الله «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ

اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ»، والمعنى في الآية واضح كما ينبغي أن يكون الوضوح، فالله يقول للنبي لا تظن أن البيعة لك يا محمد يا نبي الله، إنما البيعة لله، لله وحده، وأنت من تتلقى البيعة نيابة عن الله سبحانه، فوضك الله في ذلك.

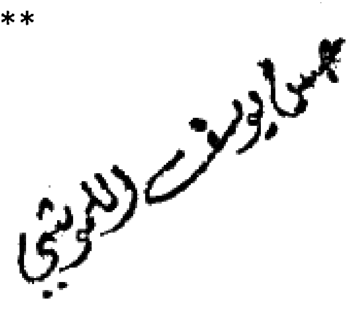
والبيعة هنا من البيع والشراء، البائع هو الإنسان الذي آمن والمشتري هو الله، ستبيع يا من بايعت، نفسك ووقتك وعملك وجهادك وإخلاصك لله وحده، لذلك قال الله في موضع آخر «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ»، من أجل ذلك عندما أخذ عمر بن الخطاب البيعة من نساء المدينة لم يقل لهن:

بايعنني أنا، ولكنه قال: أنا رسول رسول الله أتيت لأخذ البيعة منكن، فكان أن تمت البيعة، إذن فلم يذهب عمر بن الخطاب من تلقاء نفسه ليأخذ بيعة من نساء المدينة، ولكنه كان مفوضًا من نبي الله، لذلك فالبيعة الدينية هنا في هذا الموقف لم تكن للنبي ولا لعمر بن الخطاب، وإنما كانت لله، ولأن وحدانية الله منزهة عن الحلول. أي أن يحل الله في جسد أحد من الناس. لذلك كان النبي وكيلاً عن الله في تلقي البيعة، وقد كانت هذه البيعة بمثابة العقد الذي دخل به هذا الشخص حرًا ومختارًا إلى الإسلام، وللعلم لم يبايع النبي كل المسلمين، أو كل من دخل إلى الإسلام في زمن النبي، فدخول الإسلام تلزمه الشهادة فقط لا البيعة.

ولكن على يد حسن البنا وأتباع جماعات التأسلم السياسي حدثت بدعة البيعة، ولم يقل البنا ولا المرشدون الذين جاءوا بعده من هو الذي فوضهم في أخذ البيعة الدينية هذه؟ هل فوضهم نبي الله وأرسل إليهم تفويضه عبر الرؤى والأحلام؟! أم أن الله أنزل لهم جبريل عليه السلام ليخبرهم أن الله فوّضهم في تلقي البيعة الدينية؟! ومع عدم وجود هذا التفويض الإلهي أو النبوي فقد كان كل من يدخل تلك الجماعات يجب أن يبايع البنا المرشد الأول، ثم ظل الإخوان يبايعون مرشديهم، ومنهم أخذت جماعات التأسلم فكرة البيعة، وأصبحت تلك البيعة ليست بيعة رئاسة وحكم، ولكنها بيعة دين وإيمان، وهي أعلى من الرئاسة، إذ لو قال لهم من بايعوه: أيها الإخواني الفلاني، أو يا كل من ينتمي لجماعات التأسلم السياسي، اقتل نفسك في سبيل الله فسيفعل، سيقتل نفسه وسيقتل غيره طاعة وامتثالاً للبيعة وهو يظن أنها دين وأنها من تمام الإيمان بالله، وهو ينظر لغيره

من المسلمين الذين لم يبايعوا على أنهم ناقصو الإيمان، وما هي بدين ولا إيمان، بل هي انحراف عن الدين، أما كيف تحولت إلى عقد ديني منحرف يسيطر به واحد من الناس على مئات بل آلاف من البشر! فذلك لأن معظم فقهاء الدين ومن أطلقوا على أنفسهم علماء دين من العصور الأولى إلى عصرنا الحالي يظنون أن بيعة الدين من الممكن أن تكون لغير النبي، ويعتقدون أن حديث «من مات وليس في رقبته بيعة فقد مات ميتة جاهلية»، هو خاص ببيعة الدين، في حين أن المقصود هو الرئاسة والحكم، فقبائل العرب لم تكن تعرف تلك البيعة على هذا النحو، وكان زعيم القبيلة يتم فرضه فرضًا بالقوة والنفوذ والمال، لذلك فإن المجتمع الذي لم يضع ضوابط لاختيار من يحكمه عن طريق تلاقي إرادة الحاكم والمحكوم، هو مجتمع يشبه مجتمعات العصر الجاهلي التي لم تضع لنفسها تلك الضوابط، وهذا هو المقصود بالميتة الجاهلية.

****



. د .

الكفر الاصطلاحي

المسلم هو الذي على يقين بأنه لا إله إلا الله، يجب أن تكون هذه قناعته، هذا اليقين بالله وبوحدانيته اسمه «شهادة» هذه هي شهادة الإسلام، ثم هناك شهادة أخرى اسمها شهادة الإيمان بأن سيدنا محمد هو رسول أرسله الله لهداية الناس، فإذا آمنت برسالته وكانت هذه هي قناعتك، وشهد بها قلبك قبل لسانك، فأنت مؤمن بهذه الرسالة، لذلك خاطبنا الله في القرآن بـ «أيها الذين آمنوا»، ولم يخاطبنا بـ: يا أيها الذين أسلموا، فهل يكون مسلمًا لله، ومؤمنًا برسالة سيدنا محمد حقًا من شهد أنه لا إله إلا الله، ثم شهد بأن محمدًا رسول الله وهو تحت وطأة خوف أو حاجة أو إكراه؟ هل شهادته صحيحة؟ وما جدواها؟! لا والله لن تكون لها قيمة، لأننا سنكون قد صنعنا مجتمعًا منافقًا، يقول بلسانه شيئًا لا يعتقده ولا يؤمن به، ثم يتصرف ظاهرًا أمام الناس بما لا يعتقده، وبما لا يؤمن به، فهل أراد الله من سيدنا محمد أن يصنع مجتمعًا منافقًا؟! حاشا لله.

وإذا كان القانون يقرر بأن شهادتنا التي نشهد بها أمام المحكمة تحت إكراه لا قيمة لها، ويجب على القاضي أن يردها فورًا عندما يعلم أن الشاهد قالها تحت وطأة إكراه حتى ولو كانت شهادته صحيحة، أو صادفت الصواب، فما بالك بشهادتنا القلبية بأن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، هل المطلوب أن ندفع الناس دفعًا لقولها بألسنتهم دون أن تستقر في قلوبهم؟! وما كان النبي عليه السلام يمارس إكراهًا ماديًا على أحد، بل إنه كان يشق على نفسه في الدعوة فقال الله له:» «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا» ويقول أيضًا «لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ»، أي خفف على نفسك، ولا تُهلك نفسك وتشق عليها في دعوة الناس.

ولذلك ومن أجل أن نفكر لأنفسنا اقرأ معي ما سيأتي، وبعد أن تقرأ فكر، ثم حكّم عقلك، فالله خلق لنا عقولنا لكي نستخدمها، لا لكي نسلمها لغيرنا، وحين أراد الله أن يكلفنا قال لنا إنه لن يكلف نفسًا إلا وسعها، إذن فلن يلزمها بما لا يطيقه عقلها، وهذا من تمام

عدل الله سبحانه، ولكن الأجيال التي ورثنا منها فهمها للدين وأخذناه منها بالحرف، هذه الأجيال ابتكرت لنفسها نظرية دينية عن الإيمان والكفر غاب عنها العدل، ثم وضعت هذه النظرية تعريفات للإيمان، وتعريفات للكفر، ثم نسبت هذه النظرية زورًا وبهتانًا إلى الله رب العالمين، أما أنا فأطالبك بأن تترك تلك التعريفات التي ورثناها عن الكفر والإيمان واسمع معي ثم ناقشني.

ظللنا نسمع أن من لا يؤمن بالله فهو كافر، ومن لا يؤمن بالإسلام فهو كافر، ثم تطور الأمر وأصبح من لا يؤمن بما قال البعض إنه معلوم من الدين بالضرورة فهو كافر! ولأن الكافر مآله النار، لذلك أمسى معظم البشر من أهل النار، وكأن الله قد خلق البشر ليدخلهم النار، ويعذبهم بشكل سرمدي إلى ما لا نهاية، ثم كان أن أعطى الله بعض البشر الحق في وصم غيرهم بالكفر، وأظننا نعيش منذ قرون في خلط أحدثه البعض قصدًا، وظلت الأجيال تنهل من هذه الخربطة واللخبطة، فاختلط الحابل بالنابل.

ومن ذلك أن قام القدماء باختراع معنى لكلمة «الكفر» يخالف المعنى اللغوي الذي يعرفه العرب، ويخالف أيضًا المعنى اللساني الذي في لسان العرب، ومن باب أولى فإنه يخالف لسان القرآن وفقًا للقاموس اللساني القرآني الذي يعرفه الجميع، وقد أطلقوا على هذا المعنى المنتحل «المعنى الاصطلاحي»، وبما أنه اصطلاحي فلا يجوز لك أن تناقشه أو تفكر في صحته أو تسبر غوره! وفي هذا المعنى الاصطلاحي تم التغاضي عن آيات القرآن الكريم عن الكفر، تلك الآيات التي توافقت مع المعنى اللساني، أما السبب الذي من أجله تم اختراع المعنى الاصطلاحي فقد كان لأسباب سياسية، حيث قام القدماء بإعمال تلك التفرقة الشاذة ليكون التكفير سلاحًا تحت يد من يريد إقصاء الآخر وخلعه من ربقة الإيمان! وليكون مبررًا لهم وهم يغزون بلاد العالم تحت زعم نشر الإسلام، إذ لا يمكنهم وفقًا لتخريجاتهم الفقهية غزو بلاد هم في الأصل أهل إيمان بالله واليوم الآخر.

أما الكفر في اللسان المبين فهو ستر الشيء وتغطيته، وأما في الاصطلاح فهو «عدم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وعدم الإيمان برسالة الإسلام، أو أن يكون الشخص قد عمل عملًا يخرجه من الإيمان، ولذلك فإن الكافر هو من مات على غير ملة الإسلام الذي أنزله الله على سيدنا محمد عليه السلام، وأفهام القدماء التي وصلت إلينا عبر الأجيال تقول «إن من سمع عن الإسلام ولم يتبعه فهو كافر، وكل من سمع عن الإسلام يجب أن

يبحث وينظر! فإن لم يفعل وكان قادرًا على البحث والنظر فهو كافر مخلّد في النار، فكل من كان في أقاصي الجنوب والشمال والمشرق وجزائر البحور والمغرب، وأغفال الأرض فسمع بذكره صلى الله عليه وسلم، ففرض عليه البحث عن حاله والإيمان به». وسنسير مع القدماء خطوة خطوة فنقول لهم: ما الذي يُلزم غير المسلم بالبحث في الإسلام؟

ويطرح ابن تيمية مفهومًا شديد الاتساع عن الكفر فيقول: الكفر هو عدم الإيمان بالله ورسوله، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب، بل شك وريب. أي بمجرد الشك فقط يقوم الكفر!!

سيقول لك أتباع القدماء: دين الحق يا رجل هو الذي يلزمهم بهذا، الإسلام يلزم الجميع، أليس في هذا شك؟ ألا تؤمن بالإسلام يا رجل؟!

لا والله أنا مسلم مؤمن بالله الواحد الأحد العدل الرحمن الرحيم، ولكن هؤلاء الذين تقول عنهم إن الإسلام يلزمهم بالبحث عن الإسلام لا يؤمنون بالإسلام أصلاً، فكيف يلتزمون من خلال دين لا يؤمنون به، فالإسلام يا مولانا لا يُكلف إلا من اعتنقه، اعلم يا شيخ أنت ومن معك أن الإسلام تكليف ودعوة، تكليف لمن اعتنقه، ودعوة لمن لم يعتنقه؛ لذلك فإن الداعية هو من يدعو غير المسلمين إلى دخول الإسلام. ولتقرأوا معى بهدوء: كيف يستوى الشاهد والغايب، والشاهد يرى ما لا يرى الغايب «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» الذي يعلم هو الذي تلزمه الحجة، والذي لا يعلم لا إلزام عليه، هكذا قال الله في كل كتابه الكريم، كلماته واضحة تعبّر عن نفسها، فكيف غفل هؤلاء عنها، ألم يقل «وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ»، هذا هو ما يؤاخذ عليه الإنسان، إذا جاءه العلم ثم أهدره واتبع الهوى فهو إذن لمن الظالمين، أما من لم يأته العلم فهل يكون من الظالمين؟! فما هو غيب إلا لأنه غُيّب عن عقولهم وأفئدتهم، فهل يحاسب المرء على ما غاب عنه! يا أيها التكفيري، ليس كل من لا يؤمن بالله كافرًا، وليس كل من لم يؤمن بالرسول، عليه السلام كافرًا، وليس كل يهودي أو نصراني يعيش بيننا سيكون مآله النار، وليس كل من أنكر أمرًا اشتهر في الدين وتطلقون عليه «معلوم من الدين بالضرورة» كافرًا، وليس لنا أن نحكم بكفر أحد أيًا كان، فالعقل مناط التكليف، ولا يكلف الله نفسًا إلا ما أتاها في استعدادها الأزلي، فهو خالقها وهو الذي يعلم بواطنها وخوافيها، فلا تكليف على من عجز عقله عن الوصول إليه. إعلم أيها التكفيري

أن مِن خَلق الله ثلاثة، هم، أهل الإيمان، وأهل الجهل أو الغفلة، وأهل الكفر، أما أهل الإيمان فهم من عرفوا الحق فاتبعوه، وأهل الجهل والغفلة هم من لم يعرفوا الحق فلم يتبعوه، وأهل الكفر هم من عرفوا الحق فجحدوه وأنكروه، فالكافر حاجب وساتر للحق، أما الجاهل فهو مستور عنه ومحجوب عنه الحق، وهذا غير ذاك، لذلك يقول الحق سبحانه «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا»، في هذه الآية وفي غيرها يتحدث الله ليس عن أهل الكتاب جملة، وليس عن المشركين جملة، ولكن يحدثنا عن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، أي عن أولئك الذين عرفوا الحق، فكفروه أي حجبوه وستروه، أما غيرهم من أهل الكتاب والمشركين ممن لم يعرفوا الحق، ولم تهدهم عقولهم إليه فهم مكفور عنهم وليسوا كافرين، والكفر الأصغر الذي لا يُخرج من الملة، كلكم يصيبه، تعرف أن حجة من يناظرك هي الأصح فتكفرها، أي تحجبها، عن الناس كبرًا أو بطرًا أو غرورًا، فأنت بجحدك تكون قد دخلت إلى الكفر الأصغر، فكل مسلم عرف أمرًا من أمور الصواب فحجبه بطرًا أو عنادًا فهو كافر أصغر، أما إذا حُجب عن عقله أمر من أمور الصواب فهو مكفور عنه لا كافر أصغر. فكل نبي أرسله الله كان يأتي قومه بآية أو علامة، فيعرفون أنه مرسل من قِبل الله، فكانت لإبراهيم آياته، ولموسى آياته، ولعيسى آياته، ولمحمد آياته، هذه الآيات لأقوامهم، فإذا رأوها عرفوا أنها فوق إمكانية البشر، آمنوا بهم، ولكن كان هناك من أقوامهم من يرى الآيات، ومع ذلك يجحدونها ويقولون «إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا» فهؤلاء هم كفار «الشهود والمعاينة»، ومن هؤلاء من قال فيهم الله سبحانه في سورة النمل «فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا»، هنا مولانا جاءت آية الله مبصرة، واضحة، جلية، ولكنهم قالوا للناس حتى يفتنوهم «هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ» رغم أن أنفسهم استيقنت الحق، فهؤلاء هم الكفرة.

فإذا وصلت أخبار هذه الآيات لأمم بعد أمة الشهادة، فآمن بها البعض فهو مؤمن بالاتباع، وأيقن بها البعض الآخر وجحدها، فهو كافر، ولم يصدقها البعض ولم تدخل إلى عقله، فهو مكفور عنه لا كافر، ويُعذر لأنه لم يكن من أهل الشهادة والمعاينة، لذلك عندما تحدث الله سبحانه عن قوم سيدنا محمد، عليه السلام، قبل أن يتنزل عليهم الإسلام قال «لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ»، لم يصفهم الله بالكفر، ولكن وصفهم بالغفلة، ولكن وصف الكفر لحقهم بعد أن بُعث فيهم الرسول وأيقنوا برسالته ثم

جحدوها، ولكن ما موقف هؤلاء «المكفور عنهم» الذين كانوا من أهل الغفلة أو الجهل، هل هم من أهل النار أو الجنة؟.

****

وفقًا للسان العربي المبين فإن عدم الإيمان يعني «عدم التصديق»، وقد يعود عدم التصديق لأسباب كثيرة منها غياب العلم والمعرفة، وغياب العلم هذا جرّ على أمتنا آفات كثيرة، وعدم قدرتنا على إنتاج المعرفة أوقعنا في الجهل، وقد كانت آفة أمتنا هي عدم القراءة، لذلك كانت أول كلمة نزلت في القرآن «اقرأ» هي في حقيقتها رسالة كاملة من رب العالمين لنا، ولذلك أيضًا أقسم الله سبحانه بالقلم وما يسطرون، والأمم التي تريد أن تأخذ مكانتها في الحضارة الإنسانية يجب أن تقرأ، ولكي نقرأ يجب أن نكتب، من أجل هذا فإنني أدعوكم للقراءة الكاملة، ثم التفكير والتدبر، ولكم بعد أن تقرأوا أن تقبلوا أو ترفضوا أو تقبلوا بعضًا وترفضوا بعضًا، لكم كل الحرية وفقًا لإمكاناتكم العقلية وخبراتكم الإنسانية، وملكاتكم الذهنية، فلسنا سواء، وفي كل الأحوال يجب أن نعلم أن ما نقوله ونكتبه هو بضاعتنا نحن، منسوبة لنا، أنتجتها عقولنا النسبية، سواء كان الذي كتب أو قال هو الحبر العلامة، أو الصحابي أو التابعي، أو الذي قال وكتب هو الأستاذ «عادي» الذي يعيش بيننا، كل ما هو مطلوب منا هو أن نطرح أسماء السادة الكتاب جانبًا، وتنظر بروية وعمق وتؤدة إلى ما كتبوه.

لكل ما سلف فإنني أدعو منذ زمن إلى ضرورة ضبط مصطلح «الكفر»، وتوحيد المعنى اللساني لكلمة الكفر مع المعنى الاصطلاحي، والحقيقة أنني كنت أطالب بضبط مصطلح «الكفر» على القرآن الكريم، فكل آيات القرآن الكريم تتحدث عن معنى واحد للكفر هو «الستر والتغطية»، وقد جاء إطلاق الكفر في اللسان العربي على عدة تسميات، كلها ترجع إلى هذا المعنى فأُطلق على التراب، لأنه يستر ما تحته، ومنه تسمية المُزارع كافرًا، قال تعالى: «كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ» أي الزراع، وذلك لأن المزارع يستر البذر في الأرض كما أُطلق الكافر في اللغة على الليل، لأنه يستر بظلمته كل شيء. ومنه تسمية الكفارات بهذا الاسم، لأنها تكفر الذنوب، أي تسترها مثل كفارة الأيمان، وكفارة الظهار، هذا هو المعنى اللساني، ستر وتغطية.

أي أن الكافر هو من علم الحق ثم أنكره ولم يتبعه، وهذا معنى يختلف عن معنى «عدم الإيمان»، لأن غير المؤمن هو واحد من بني البشر خلق الله له عقلًا، أي أنه لم يخلق عقلاً

نفسه، وعقله هذا الذي خلقه الله له لم يقتنع بالإيمان، سواء بالله أو بالإسلام، رأى هذا المسكين دعاة يدعون للإيمان بالله وهم يقطعون رقاب عباد الله ثم يُكبرون «الله أكبر الله أكبر»، ثم رآهم يشرحون الإسلام للناس فيقولون عنه قولًا بشعًا لا يقبله عقل أو قلب سليم، هذا المسكين الذي لم يخلق عقل نفسه، ولم يسمع عن الإسلام من أهله إلا الشر لم يؤمن، فإذا بالله يقضي عليه بدخول النار أبد الآبدين بلا انتهاء، لأن الشيخ فلان والحبر علان والتابعي زيد قالوا عنه إنه كافر! أين العدل في هذا القول والله هو العدل، ألستم معي في هذا؟

وإذا قرأنا آيات القرآن عن كفار العرب، كفار مكة والحوارات التي كانوا يديرونها سنكتشف أنهم كانوا يعرفون يقينًا أن الله أرسل سيدنا محمدًا نبيًا ورسولاً، ولكنهم جحدوا هذا الأمر ظلمًا وعلوًا، فالله سبحانه يقول في القرآن للنبي عن كفار قريش «قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ»، المسألة عندهم ليست متعلقة بعدم تصديقهم لك، إذ أنهم يعلمون أنك نبيٌ أرسلك الله بالهداية، ولكنهم جحدوا هذا العلم جحودًا، وعندما دخلوا معك يا نبي الله في جدل أقروا لك بالنبوة فقالوا «إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا» أي أنهم يعلمون أنك رسولٌ مرسل من عند الله برسالة الإسلام، ولكنهم يخافون على مصالحهم أن تتهدد لو آمنوا بك، وقالوا أيضًا إنهم يعترضون على شخص النبي لا على القرآن «وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» فقد أدركوا أن هذا الدين سيجعل للنبي سيادة عليهم وهم كانوا يريدون السيادة لهم.

لذلك فإن «الكفر» من الأمور الكامنة في نفس صاحبها هو وحده الذي يعرفها، اللهم إلا إذا جاهر بها قائلاً: أنا أعرف هذا الحق ولكنني لن أتبعه، أو قال مثل هذا، ولا يمكن لأحد وفقًا لهذا أن يطلع على ما في النفس البشرية ويطلق حكمًا بالتكفير بناء على هذا، لأن الله وحده هو الذي «يعلم السر وأخفى»، ولكن واقع أمتنا يقول إنه بعد وفاة المصطفى عليه السلام حدث خلاف كبير بين الصحابة، ظل هذا الخلاف مستترًا حينًا من الدهر ثم أصبح فتنة، ومن هذه الفتنة صرنا إلى ما صرنا إليه حاليًا، وأصبح أحدنا يكفر الآخر لمجرد عدم الإيمان برأي البعض أو عدم الاقتناع به أو إبداء رأي آخر يختلف عنه، ثم حدث أن ابتكر الفقهاء تعبير:

إن «إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة» يُكَفِّر صاحبه! مع أن الإنكار وفقًا للسان العرب لا يعني الكفر على الإطلاق، فهذا غير ذاك كما قلنا سابقًا.

ولله المثل الأعلى، ولكنني سأضرب لكم مثلًا، أتقبل أن يخلقك الله ضعيف الفهم، ثم يدخلك النار لأنك لم تفهم؟! الله سبحانه قال عن الكفر «فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا..»، هؤلاء جاءتهم الآيات والعلامات فأدركوا الرسالة والنبوة، واستيقنت أنفسهم أنها صحيحة، ولكنهم مع ذلك جحدوا بها وأنكروا صحتها لمجرد الظلم والعدوان، ولذلك يقول الله للرسول، عليه السلام، عن كفار قريش «قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ »، أي أن المسألة هنا ليست متعلقة بعدم تصديقهم لك، إذ أنهم يعلمون أنك نبيٌ أرسلك الله بالهداية، ولكنهم حجبوا هذا العلم جحودًا، وعندما دخلوا معك يا محمد في جدل استخدموا طريقة التعجيز لا طريقة الاستبيان والاستيضاح، فقالوا «لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا..»، هيا يا محمد اضرب بعصاك الأرض لتفجر لنا ينبوعًا كبيرًا من الماء، ثم خافوا أن يفعلها الرسول فزادوا في الطلب وقالوا «أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا » أي أننا نريد أن تضرب لنا الأرض فتكون لك حدائق غناء فيها الأشجار والنخيل وتجري فيها الأنهار! ثم وجدوا أن الأمر قد يكون في استطاعته فأرادوا تحديًا من نوع آخر هو «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا..» ثم استصغروا هذا التحدي فقالوا «أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلًا»، أي عليك يا محمد أن تأتي لنا بالله والملائكة هنا في أرضنا فنقابلهم ونشاهدهم! ثم رأوا أن يصلوا إلى نهاية المطاف فقالوا له «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ» أي من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، ثم قالوا « أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ» تصعد أمامنا الآن في السماء فنراك وأنت تصعد، ومع ذلك فإننا «وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ..» أي هات لنا رسالة من الله موقعة منه ومختومة بخاتمه تقول إنك الرسول! لذلك ولأن جدالهم كان فارغًا ولمجرد الكفر، وليس هدفه الإيمان قال الله للرسول، عليه السلام: «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولًا».

****

. هـ .

هجر القرآن وتكفير من أنكر معلومًا عند الفقهاء

فإذا قرأنا القرآن على مهل وبروية، قراءة خاصة لنا، سنجد أن كل الآيات التي تتحدث عن الكفر والكفار تسير على المنوال نفسه، وهو أمر مختلف تمامًا عن عدم الإيمان، عدم الإيمان هذا ينطبق عليه ما يخص أهل الفترة، أي الذين لم تصل لهم الرسالة، سواء قبل الإسلام أو بعده، وإذا قرأنا القرآن أيضًا بتؤدة وإمعان فكر سنجد أن الإسلام أكثر رحابة من الفهم الذي استقر في أذهاننا، فالله سبحانه قال «إن الدين عند الله الإسلام»، وقال أيضًا «ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه»، فالإسلام هنا هو التسليم لله، لذلك قال سبحانه عن إبراهيم إنه «كان حنيفًا مسلمًا»، وقال الله أيضًا «ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون».

وهكذا تجد كل آيات الله، فالإسلام إذن هو التسليم والخضوع لله، لذلك فإن الإنسان محاسب على خضوعه لله وحده، والعمل الصالح، فالإسلام إذن هو الإيمان بالله ثم الاستقامة.

هل هناك أبسط من ذلك؟! هذا هو دين الله الذي فهمناه من آيات القرآن الكريم، والقرآن بيننا ولكننا اتخذناه مهجورًا، وسبحانك يا الله يرتجف قلبي فيهتز بدني وأنا أقرأ الشكوى التي سيقدمها الرسول، عليه السلام، لله رب العالمين يوم القيامة، إذ يقول «وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا »، وحين قرأت التفاسير وجدتهم يبعدون الأمر عن أنفسهم ويتحدثون عن كفار مكة على أنهم قوم الرسول، في حين أن المعنى الواضح من هذه الآية هو أن قوم الرسول، عليه السلام، هجروا القرآن، والهجر لا يأتي لغة قبل الاندماج، أي أن هؤلاء اتخذوا القرآن، ثم هجروه وقطعوا الصلة بينهم وبينه، والقوم هم من يقومون على أمر الرجل، وطالما أن الرسول، نسب القوم لنفسه بكلمة «قومي» فيكون المقصود هنا المسلمين، نحن الذين هجرنا القرآن وغفلنا عن تدبره، ثم

كان أن وضع بعض المسلمين الذين هجروا القرآن أحكامًا ما استخرجوها من خارج القرآن، أطلقوا على بعضها أنها أصبحت من المعلوم من الدين بالضرورة، وهذه الأحكام هي نتاج فكرهم البشري، والأحاديث التي بشأنها هي أحاديث ظنية، ثم ألقوا بالكفر في وجه من ينكر أو يناقش أو ينتقد هذا المعلوم عندهم.

وإذا عنَّ لك أن تقرأ في التاريخ فستجد أغرب ظواهر التكفير تطل عليك بسبب «ما هو معلوم من الدين بالضرورة»، وإذا عنَّ لك أن تقرأ التاريخ فستجده وكأنما يسخر من ظاهرة «المُكفرين» تلك الظاهرة التي يجب أن نخرجها من حياتنا وندع شأنها لله رب العالمين، أما لماذا التكفير هو أغرب الظواهر الإنسانية وأكثرها جدلاً فذلك لأن الواحد من الناس ينصب نفسه عالمًا بالقلوب وما فيها ثم يأخذ في إطلاق الأحكام، ولأن الكفر كما قلنا أيها الأصدقاء هو حالة عقلية وقلبية خاصة تصيب إنسانًا ما لسبب ما، يكون فيها قد عرف الحق ثم عنَّ له أن ينكره علنا، أي أنه في داخل نفسه يعلم الحقيقة ثم يقول للناس:

كلا إنها باطل، أما الذي نتهمه بالكفر فقد يكون الحق لم يصل إليه أصلاً، ولم يستقم له فهمه، وقد يكون أمره البادي أمام الناس ناتجًا من اختلاف في الفهم أو اختلاف في التأويل أو قصور في الإدراك، وليس بالضرورة أن يكون من نال «صك التكفير» كافرًا حقًا وفقًا للمعاني التي شرحناها، ومع ذلك فإنك ستجد في التكفير ظاهرة في منتهى الغرابة، هي ظاهرة «التكفير المتنقل»، وقد اكتسب التكفير الذي أعنيه صفة «التنقل» لأنه يتجول ويرحل من مكان لمكان، ومن زمان لزمان، ولكنه دائمًا يصيب صاحبه، كيف هذا؟!

خذ عندك، شيخنا الجليل الراحل محمد متولي الشعراوي كان قد دخل في صراع عقائدي مع الراحلين الكبار توفيق الحكيم وزكي نجيب محمود ويوسف إدريس على خلفية عدة مقالات كان الحكيم قد كتبها في جريدة الأهرام، مقالات الحكيم كانت من وحي خياله حيث تحركت حاسة الأديب عنده وجعلته يتخيل حوارًا دار بينه وبين الله رب العالمين، ولم يكن هذا الأمر معتادًا في الأدب العربي، وإن كان معروفًا في الآداب الغربية، وكان الحكيم في حواره له نظرات فلسفية عميقة، ولكن الدنيا قامت ولم تقعد، وبدأ عدد من الشيوخ في تكفير الحكيم، وفورًا دخل الراحل الجليل الشيخ الشعراوي في خط التكفير واتهم الحكيم ومعه زكي نجيب ويوسف إدريس بالكفر، وأنه مستعد للدخول في مناظرة

معهم لكشف كفرهم، وأوقفت الأهرام مقالات الحكيم، ولكن التكفير «المتنقل» تحرك من مكانه ليصيب الشيخ الشعراوي بعد ذلك، إذ قال الشعراوي في البرلمان المصري في السبعينيات ذات مرة إن الأمر لو كان بيده لقال إن السادات لا يُسأل عما يفعل، وهذه مقاربة مع الآية الكريمة عن الله سبحانه «لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون»، فما كان من بعض المشايخ إلا أن كفروا الشيخ الشعراوي رحمه الله بسبب هذا القول!.

لم يكن الشعراوي وحده، ولكن الشيخ الراحل عبد الصبور شاهين الذي اتهم الكاتب الكبير الراحل نصر حامد أبو زيد بالكفر على خلفية أبحاث كتبها أبو زيد، دار معظمها حول أنسنة النص المقدس من حيث الفهم، فالنص الإلهي مقدس لا شك في ذلك، ولكن هذا النص يتحول إلى نص إنساني من حيث فهم الناس له، وكلنا يعرف الذي حدث لنصر أبو زيد، من إقامة دعاوى ضده للتفريق بينه وبين زوجه التي تمسكت به، وكانت هذه الدعوى من أغرب القضايا في تاريخنا، زوجان يعيشان على توافق، يدينان لله بالإسلام، يرفع بعضهم دعوى بالتفريق بينهما لأن الزوج في ظنهم كافر، وبذلك لا يجوز له أن يظل مرتبطًا شرعيًا بزوجته المكلومة والمغلوبة على أمرها أمام أساطين الإسلام السياسي، ويصدر الحكم فعلاً بما أراده المكفرون، وعلى رأسهم الراحل عبد الصبور شاهين، وتدور الأيام ويكتب عبد الصبور شاهين كتابًا اسمه «أبي آدم» يقول فيه إن آدم ليس هو أول البشر وإنه مولود من أم وأب، فقامت الدنيا على الشيخ واتهمه أهل السلف والتأسلم بالكفر! ومع الكاتب الراحل جلال كشك كانت رحلة تكفير أخرى، حيث قام هو الآخر بتكفير نصر حامد أبو زيد، فإذا بكشك يكتب كتابًا عنوانه (خواطر مسلم في المسألة الجنسية) يقول فيه إنه يباح لأهل الجنة إتيان «الولدان المخلدين» من أدبارهم، أي أن الشذوذ مباح لهم في الجنة وأن «الولدان المخلدين» قد خلقهم الله لهذه المهمة، فقامت جمهرة كبيرة من الشيوخ والعلماء بتكفير جلال كشك!.

وحين وقف الكاتب الكبير فرج فودة يواجه المتأسلمين ويبهتهم بأفكاره الثورية، قام الشيخ محمد الغزالي رحمه الله بتكفيره، ودارت الدائرة دورتها، فعندما كتب الشيخ الغزالي كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» أنكر فيها أحاديث وردت في البخاري ومسلم، وقال عن الذي روى هذه الأحاديث إنه: «نطع ومنافق وكذاب»، قامت ثورة

تكفيرية من المتسلفين وعلماء الوهابية وألقوا باتهامات الكفر والزندقة على رأس الشيخ الغزالي رحمه الله، أما الأغرب فهو سيد قطب ذات نفسه، فقطب قام بتكفير العالم كله، بمسلميه وغير مسلميه، ثم دارت الأيام وقرأ العلماء تفسير سيد قطب عن مسخ الله بعض اليهود إلى قردة وخنازير، فإذا بقطب يقول في تفسيره إن مسألة المسخ هذه مجرد أساطير لا أصل لها! ثم يتطرق إلى إماتة الله لليهود لما طلبوا رؤية الله جهرة ثم أحياهم الله بعد ذلك، فيقول في تأويله إن مسألة الإماتة والإحياء هي أساطير، فقام علماء المدرسة السلفية بتكفير قطب الذي كَفَّر الدنيا! وغير ذلك كثير مما يحتاج إلى موسوعة، ومن كَفَّر غيره ناله الكفر ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكما تدين تدان.

****

ثروت الخرباوي

.9

إيمان أهل الكتاب

ولكن ما حال أهل الكتاب الذين اتهمناهم بالكفر؟ وما بال هذا الشيخ المسلم الذي يقول لأهل الكتاب إنه كافر بدينهم؟ وكأنه يقول إنه يعرف يقينًا أن دينهم هو الحق ولكنه ينكره ويجحده بطرًا وظلمًا وعلوًا!! وهذا غير ذاك، ولكنه الخلط الذي أحدثوه بسبب تحريف الكلم عن مواضعه، فأصبح الكفر هو عدم الإيمان وليس الستر والتغطية، أما عن أهل الكتاب فالله قال عنهم «لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ» أما البعض الآخر فقال الله عنهم «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا» في هذه الآية وفي غيرها يتحدث الله ليس عن أهل الكتاب جملة، وليس عن المشركين جملة، ولكن يحدثنا عن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، أي عن أولئك الذين عرفوا الحق فكفروه أي حجبوه وستروه، ومن ناحية أخرى فإن الله تعالى قال في كتابه الكريم «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» هذا قول الله لا قولي أنا، الذين هادوا والنصارى والصابئون طالما أنهم آمنوا بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون لأنهم في معية الله.

أما الفرقة التي قالت إن الله ثالث ثلاثة فقد قال الله عنهم «لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ» وقوله أيضًا «لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...» فهذا عن الذين قالوا وليس عن الذين يقولون، ليس هناك من شك في أن وحدانية الله منزهة عن الاجتماع، والافتراق، والامتزاج بالناسوت، والحلول، سبحانه عن هذا وتعالى علوًا كبيرًا، نعم جاءت صيغة الكلمة عن الماضي وليس عن المضارع المستمر، نال الكفر الذين قالوا وليس الذين يقولون، والفارق بين هذا وذاك كبير، فالذي قال هو الذي ابتدع القول إذ أنه كان يعلم أن قوله باطل، ولكنه كان من أتباع الشيطان، قعد لهم

على الصراط المستقيم وأراد أن يبعدهم عنه، فخاتلهم وخدعهم، فابتدع فريقٌ من الأولين عندهم هذا القول، ولكن هناك من ابتدع وهناك من اتبع، فالذي ابتدع وكان يعلم الحق ومع ذلك قال بالامتزاج بالناسوت والحلول فيه فهو الذي قال، وهو الذي كفر، أما من اتبع ظنًا منه أنه الحق فهو المقال له لا القائل، إنما الذنب على القائل لا المقال له الذي غاب عنه الحق لجهل أو غفلة.

ثم هل تعرفون أن المعتصم بالله، وكان من أنصار المعتزلة وفلسفتهم، اعتبر ابن حنبل مشركًا لأنه قال إن القرآن كلام الله وليس خلقًا لله، الاختلاف في ذات الله حدث في الإسلام نفسه، ولكن لتعلم أن هذا الاختلاف في عقائد الناس هو اختلاف المحبين لا اختلاف الكارهين، المسلم يحب الله وأخذ يبحث في النصوص التي لديه ليتصور حبيبه، وأهل الكتاب الذين يعيشون بيننا، أحبوا الله واختلفوا في تصوره، فلندع أمرهم إلى من أحبوه.

وقد جاء في تاريخ أحمد بن حنبل أنه مر ومعه جماعة من أصحابه بقبر رجل في طرسوس فقالوا له هذا كافر، فقال أحمد: الكافر هو أول من بدأ هذا الأمر، وقد امتنع ابن حنبل عن تكفير الخليفة المأمون لشبهة في تكفيره ووجود من يُلبِس عليه، فهو من المقال له فاتبع ظنًا أن هذا القول هو الحق.

****

أظنك ما زلت معي مستمرًا في القراءة، لذلك فإنني أطرح علينا جميعًا سؤالاً هو: هل سبق وأن قرأت في القرآن أن الله خاطب أهل الكتاب باعتبارهم من الذين آمنوا؟ ستقول لي وأنت تسترجع ما حفظته: نعم، هذا بالنسبة للجيل الذي كان معاصرا لأنبيائهم وآمن بهم، فهم بهذه المثابة من المؤمنين، وهذا شيءٌ طبيعي، لكن الذين حرَّفوا بعد ذلك كتبهم هؤلاء من الضالين والمغضوب عليهم، ولا يمكن بالقطع أن يصفهم الله بالذين آمنوا.

ولكني سأقول لك: نعم إن الذين حرَّفوا دينهم، ونسبوا إلى الله أشياءً لم يقلها، هذا المُحَرِّف ليس مؤمنًا لأنه لو كان مؤمنًا ما حرَّف، هذا يريد أن يغطي على الحق، هذا يريد أن ينتصر لهواه، هذا يريد أن يُبْعِدَ المؤمنين عن الرسالة التي جاء بها رسولهم، هذا للأسف الشديد نسب إلى رسوله أشياء لم يقلها، ثم قال للناس: هذا هو ما قاله رسولنا، فصدَّقه أولئك الذين آمنوا بهذا الرسول لأنهم كانوا يُحسنون الظن به.

أنا معكم جميعًا أن هذا حدث ويحدث، ولا يظن أحدٌ أن الشيطان سيتركنا نتجه إلى صراط الله دون أن يقعد لنا على هذا الصراط ليجعلنا ننحرف عن مساره المستقيم، بل إن الله أخبرنا بذلك، وحذرنا، ونبهنا، وقال لنا في كتابه الكريم إن إبليس سيقعد لنا على الصراط المستقيم، وقد تحدثنا عن تفصيل هذا سلفًا، وهذا هو منهج هذا الكتاب، أن نتعقب الشيطان وهو جالس على الصراط المستقيم ونراقب انحرافاته، فهو لن يقعد على طريق الشرور، فهذا تركه للنفس البشرية، ولكنه سيقعد لنا على طريق الدين، ليجعلنا ننحرف عنه، وإذا ظننت أنه سيقول لنا: هيا انحرفوا؛ فستكون من الغافلين أو الجاهلين، إبليس سيرسل لنا أتباعه من شياطين الإنس، يرتدون العمامة ويطيلون اللحى، وسيوحي لهم زخرف القول، ثم سيأخذونك برفق بعيدًا عن صراط الله وأنت تُحسن الظن بهم، هكذا حدث مع كل أتباع الرسالات، كلنا هذا.

ولكن اعذروني فقد استطردت إلى موضوعات أخرى لم أكن أقصد التحدث فيها الآن ولكن الشجون التي تحتويني، هي التي دفعتني لهذا الاستطراد، ولذلك فلنعد إلى ما كنّا نتحدث فيه، فقد كنا نقول إن الله خاطب أتباع الرسل الذين آمنوا به وكانوا معاصرين لهم بـ«يا أيهاالذين آمنوا» ولكن الذين جاءوا بعد ذلك خاطبهم بكلمة «أهل الكتاب» وليس بالذين آمنوا.

إذن سنسأل سؤالاً آخرَ: هل تحريف الكلم هو تغيير جسم الكلم؟

- لا، فقد علمنا أن التحريف غير التغيير، فالتحريف ينصرف للمعاني لا للمباني، وشياطين الإنس حرَّفوا كتبهم، أي غيروا معاني الكلم، وقد كانت المعاني مُحَرَفة، ولكن هل أهل الزمن الذي كان فيه سيدنا محمد هم الذين حرَّفوا كتبهم؟

ستقول: لا، لقد كانت محرفة من قبل، ولكنهم هم الذين حُرِّفت عليهم كتبهم.

سأقول: إذن هل تصدق أن الله خاطبهم وقت تنزيل القرآن قائلاً لهم «يا أيها الذين آمنوا»، فقد قال الله لهم ما معناه إن لكم أجرًا على إيمانكم بالله ورسوله الذي أرسله الله إليكم، ولو آمنتم بالرسالة التي أُنزلت على محمد عليه السلام ستأخذون أجرًا مضاعفًا.

ولتسمع قول الله تعالى في سورة الحديد «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

الله يقول لهم يا أيها الذين آمنوا، اتقوا الله، ثم ماذا؟ ثم: آمنوا برسوله؛ ولكن ما هو أجرهم إذا آمنوا برسوله؟: يؤتكم كفلين، أي نصيبين، من رحمته، أما الرحمة الأولى فهي لأنهم آمنوا بالله ورسوله الذي أرسله الله إليهم، والرحمة الثانية ستكون من نصيبهم إذا آمنوا برسالة الإسلام التي تنزلت على سيدنا محمد.

أعلم أن السؤال الآخر هو: من الذي قال إن الذين آمنوا في هذه الآية هم أهل الكتاب؟! إنهم المسلمون الذين آمنوا بالإسلام والرسول.

حينئذ سنقول: هل تظن أن الله سبحانه سيقول للذين آمنوا بالرسول، آمِنوا بالرسول؟! الله هو الحكيم الخبير، ولكن هناك دليل يثبت أن الله يخاطب في هذه الآية أهل الكتاب.

اقرأ معي الآية التي تلي الآية السابقة وهي آخر آية في سورة الحديد، ستسمع قول الله «لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم»، هذه الآية معناها باختصار أنكم يا أهل الكتاب لا تملكون توزيـع رحمة الله على من تريدون، ولكن الفضل كله بيد الله، بيد الله وحده، يؤتيه من يشاء، الأمة التي تظن أنها وحدها هي الأمة الناجية أو الفرقة الوحيدة التي ستدخل الجنة هي أمة واهمة ظنت أنها تتحكم في فضل الله، لذلك فإن سياق الآيات كلها يدل على أنها موجهة إلى أهل الكتاب.

وإذا كان الله سبحانه قد وصف أهل الكتاب بأنهم أهل إيمان إلا أنه لم ينسب أحدًا من خلقه إلى الإسلام مباشرة، فلم يكن سيدنا محمد عليه السلام إسلاميًا، ولكنه كان حنيفًا مسلمًا على ملة أبينا إبراهيم، وكان إبراهيم عليه السلام مسلمًا، وكذلك الأنبياء، وكذلك من أطلقنا عليهم وصف «الصحابة» كل أولئك كانوا مسلمين مؤمنين، ولم تخرج إلى الدنيا جماعات تسمي نفسها إسلامية إلا منذ قرن، وما انتشرت كلمة إسلامية إلا منذ أن تم تسييس الإسلام فأصبح وكأنه حزب أو مشروع بشري، فما هي قصة هؤلاء الإسلاميين؟ وهل يختلفون مع المسلمين؟ وما هو دورهم في تحريف الكلم عن مواضعه؟ هذا ما سنقرؤه في الفصل القادم.

كلنا يتكلم باسم نفسه، لذلك كل لفظ نتلفظ به لديه رقيب وعتيد، «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد».

«9»

إسلاميون والله أعلم

((كان من تحريف الأديان أن وضع لها أصحابها من يُسمى رجل الدين، وهو رجل ليس له عمل إلا الدين، وتكون له قداسته أحيانًا، وإذا فقد شروط ترسيمه تقوم قياداته الدينية بشلحه، أو خلعه، وعندما يتم ترسيمه يتخذ اسمًا آخر غير اسمه لأنه يخلع دنياه القديمة، إذ هو في الكنيسة أو المعبد يقوم بدوره في توصيل عباد الله بالله، وهو الذي يقوم بتعميدهم، وأخذ الاعتراف منهم، وتوقيع عقوبات دينية عليهم، ولا يتم الزواج إلا من خلاله، وهو يعيش حياة روحية خاصة به قد ينقطع بها عن الدنيا، يوجد مثل هذا في المسيحية واليهودية ومعظم الأديان الهندية والصينية، ولكن الدين الإسلامي لا يوجد فيه مسمى رجل الدين، إذ طلب الله من كل مؤمن برسالة الإسلام أن يسعى إلى فهم دينه بنفسه، وهو مسئول أمام الله تعالى عن هذا الفهم، فالمسلم له أن يتجه إلى الله مباشرة دون أن يقف موقف الاعتراف لأحد من الناس عند توبته، وليس هناك تعميد، ولم يكن أحد من صحابة رسول الله يرتدي زيًّا خاصًا ليتميز به عن باقي الناس، وظل التابعون ومن جاء بعدهم يعيشون كما يعيش باقي الناس، ولم تكن هناك وظيفة تسمى وظيفة الداعية أو عالم الدين، بحيث ينقطع فيها الرجل عن دنياه ولا يقوم إلا بالدعوة أو دراسة الفقه، كان الفقهاء الأربعة لهم أعمالهم الخاصة، وكانوا يتعيشون منها، ولم يكن أحدهم يرتدي زيًّا خاصًا يميزه عن باقي الناس. عرف الكل أن الكاهن في الأديان الأخرى هو الذي يرتدي زيه الخاص، وعرف الناس أنه لا كهانة في الإسلام، ولم يحدث أن أصبح الفقه أو علم الحديث أو علوم تفسير القرآن مهنة يقوم

صاحبها بها ويُعلم الناس ما علمه في مقابل أن يتقاضى أجرًا، حتى أنه يُنسب للإمام الشافعي أنه قال: « لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين"..

وشيئًا فشيئًا بدأ الأمر يتغير، وجاء العهد العثماني بما فيه ليصبح الدين مهنة كباقي المهن، وأصبح لأصحاب هذه المهنة زيهم سواء كانوا في الأزهر أو في جامع الزيتونة في تونس، أو في الشام، وأصبح أصحاب هذه المهنة أصحاب فضيلة وقداسة، وأصبح للإسلام كهنته، وعامة الناس تعتبر صاحب هذه المهنة كأنه الدين نفسه، أو حتى كأنه هو الذي يمثل الدين، مع أن الذي كان يمثل الدين هو سيدنا محمد عليه السلام، وحده، وحده فقط، وبموته أصبح كل إنسان يمثل نفسه، ولا أحد يمثل الإسلام،)).

****

وأنا في طريقي للبحث عن تاريخ مصطلح «الإسلامي» قرأت بحثًا قيمًا لكاتب مغربي هو الدكتور عبد الفتاح أفكوح عن هذا المصطلح ومشتقاته التي انتشرت في أوطاننا منذ الربع الأول من القرن العشرين، وخارج نطاق البحث فإنني أود أن أشير إلى أن علماء المغرب العربي قفزوا قفزات واسعة في نقد مشروع الإسلام السياسي تفوقوا فيها على علماء مصر والشام، ولنعد إلى بحث الدكتور المغربي عبد الفتاح فكوح الذي قال فيه (مسألة جد مهمة يجب أن ننبه إليها، ويتعلق الأمر بضرب من الاشتقاق اللفظي استشرى أمره في القرن العشرين داخل البلاد العربية الإسلامية بوجه خاص، وهو اشتقاق غريب بالنظر إلى حمولته، ونحن نعتبره من قبيل الاشتقاق الاصطلاحي العشوائي، الذي لا تقوم أركانه على قاعدة دلالية سليمة، وقد سعى المتلبسون به إلى إقحام إفرازاته من المباني والمعاني الدخيلة، سواء عن جهل أم عن قصد، في منظومات الاشتقاقات الشرعية الخاصة بلفظ «الإسلام". إننا نقرأ مثلاً في كثير من الكتابات: الذات الإسلامية، والأديب، والمؤرخ، والمفكر الإسلامي، ثم نقرأ الإسلاميات، والأسلمة، والإسلامولوجيا، وغيرها من الألفاظ المثيرة للاستفهام عن أساسها وقاعدتها؟ وكذا الغاية من توظيفها؟ فما أن تعرض جميع هذه التسميات في مختلف المجالات: الأدبية، والفكرية والتاريخية. على محك النقد اللغوي والدلالي، حتى ينكشف ويتضح توظيفها الشاذ في سياقات معينة، ومبلغ الخلل الذي تلحقه بمضمون هذه السياقات؛ فنحن لا نعثر في القرآن الكريم، ولا في الحديث النبوي الشريف على هذه «الألفاظ/ المباني»؛ بل نجد الكلمات التالية: مسلمًا، ومسلمَيْن.

ثم إننا لا نعثر في المعاجم العربية القديمة على هذه الألفاظ، فهي مستحدثة باستثناء لفظتي: «الإسلامي» و»الإسلاميين»، التي عرف توظيفها مع علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبي الحسن الأشعري، وابن تيمية المتوفى والجاحظ وابن خلدون، ولكن تم توظيفهما قديمًا في سياقات مختلفة، خاصة في مجالات الأدب، وعلم الكلام، والفلسفة.

فلفظ «الإسلاميين» استعمل في مجال الأدب، مثلاً، نقيضًا للفظ «الجاهليين»، وذلك للتمييز بين من عاشوا في الإسلام ولم يدركوا الجاهلية، ومن عاشوا في الجاهلية ولم يدركوا الإسلام، أما في العصر الحديث، فقد صار، في عرف طائفة من الناس، كل من اللفظين التاليين: «الإسلامي» و«الإسلاميين» صفتين للمسلم وللجماعة المسلمة التي تؤمن بمشروع سياسي قائم على أساس الإسلام، وإذا كانت كلمتا: «المسلم» و»المسلمين» وصفًا إلهيًا، فإن لفظتي: «الإسلامي» و«الإسلاميين» وصف وضعي بشري، ولذلك فإنه وفقًا للقرآن والحديث فإن الكاتب، والأديب، والإنسان، والمجتمع فلهم صفة «المسلم»، وليس الإسلامي)[١٣]. انتهى ما اقتبسناه من الكاتب المغربي أفكوح، ولنا عودة.

****

الإسلام السياسي والإسلام الاجتماعي والإسلام التعبدي والإسلام الاقتصادي، هذه تقسيمات غريبة ومريبة وليست من الإسلام في شيء، فالإسلام شيء واحد لا ينقسم ولا يتجزأ، أما كلمة إسلامي ومشتقاتها فهي من الكلمات الدخيلة علينا، وهي من تلبيس إبليس الذي أراد أن يحوّل ديننا السهل البسيط الذي يتجه فيه العبد إلى ربه مباشرة دون وسيط، إلى دين كهنوتي معقد، فيه طبقة تسمى طبقة الإسلاميين وهي شبيهة بطبقة الكهنة، وطبقة أخرى اسمها طبقة العلماء، فيحذرونك من التعرض لطبقة الإسلاميين لأنهم يمثلون الإسلام!! وبالتالي فهم مثل السفراء ومثل السفارة، فأنت إذا قمت بالاعتداء على سفير دولة أجنبية في بلدك، أو تعديت على أرض السفارة فكأنك اعتديت على الدولة الأخرى نفسها، وكذلك إذا انتقدت الإسلاميين فكأنما تكون قد انتقدت الإسلام نفسه، ويحذرونك أيضًا من التعرض لطبقة العلماء بالنقد، ويلقون في وجهك عبارة مرعبة هي «إحذر يا أخي فإن لحوم العلماء مسمومة» فيظن العامة أن هذه العبارة حديث وما هي

---

١٣ «الإسلامي والإسلاميون»، عبد الفتاح أفكوح.

بحديث، وإنما هي مقولة قالها عالم من العلماء هو الحافظ بن عساكر، وكان ابن عساكر «الشافعي المذهب»، قد نشبت بينه وبين الحنابلة خلافات فقهية فوجهوا إليه سهام نقدهم فأراد أن يضرب على أيديهم ويمنعهم من نقده فقال لهم هذه العبارة، والغريب أن الحنابلة الآن هم الذين يستخدمون هذه العبارة!! وبها أصبحوا طبقة من الكهنة من أصحاب القداسة، وهم الذين يملكون فهم الإسلام، إذ ليس لك أن تفهمه وحدك دون «مناولة» من العالم، وليس لك أن تفهمه كما فهمه البدوي البسيط الذي قال له الرسول صلى الله عليه وسلم « قل آمنت بالله ثم استقم».

نحن مسلمون، الله قال لنا ذلك، إذ قال في كتابه الكريم «هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ» ولم يقل هو سمَّاكم الإسلاميين، وقال «وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»، ولم يقل واشهد بأنا إسلاميون، لذلك فإن مصطلح الإسلاميين لم يكن معروفًا في عهد الرسول عليه السلام، ولا في عهود الصحابة إلى نهاية القرن التاسع عشر، إذ كان كل من يجتهد فإنما كان ينسب الاجتهاد لنفسه، لا للإسلام، فهذا حنفي وذاك مالكي، وذلك شافعي وهكذا، لم يجرؤ أحدهم على أن ينسب الإسلام لنفسه أو لمذهبه، فيقول مثلاً أنا صاحب المذهب الإسلامي، ولذلك كانت تعبيرات «المذاهب الإسلامية» تعبيرات حديثة لم يقل بها أصحابها، وكذلك مصطلح «الفقه الإسلامي» فالصحيح أنه «فقه المسلمين» والحضارة الإسلامية لا ينبغي أن ننسبها للإسلام إذ هي حضارة المسلمين لا الإسلام، وتاريخ الإسلام هو تاريخ المسلمين لا الإسلام، تاريخ الإسلام لم يكن إلا في عهد الرسالة فحسب وقت أن كانت الرسالة تتنزل على سيدنا محمد، فإن صح أن نطلق تعبيرًا علميًا على هذا الحدث فليس لنا إلا أن نقول:

تاريخ التنزيل الرسالي، إذ هو يرتبط بالحدث، أما الذي يدور خارج هذا الحدث فهو يرتبط بأشخاصه ووقائعه، ولذلك فإن ما حدث بعد وفاة النبي كان تاريخ أجيال من المسلمين.

ثم إنه من باب العلم بالشيء لا ينبغي أن يختلط «الإسلام» في أذهاننا بـ «المسلم» فثمة مسافة بينهما، لذلك كان من الخطأ أن نُسمي ابن تيمية «شيخ الإسلام» إذ يجوز أن يكون شيخًا للمسلمين إن أرادوا أن يشيخوه عليهم، ولكن لا توجد مرتبة دينية في الإسلام اسمها «شيخ الإسلام»، وكذلك من يقولون على أبي حامد الغزالي «حجة الإسلام»، فهو ليس

حجة الإسلام، فالحجة هي الدليل، وحجة الإسلام هي القرآن، وهي الرسول عليه السلام، ولكن لا توجد مرتبة دينية اسمها «حجة الإسلام»، يجوز أن نقول عنه فقط إنه «حجة المسلمين» فالمرتبة الوحيدة في ديننا هي مرتبة النبوة والرسالة.

وليرفع الناس قدر رجالهم كما يحبون، ولكنهم وهم في حبهم لشيخهم لا ينبغي أن يخفضوا الإسلام ليتساوى مع رأس شيخهم، فرغم حبنا للمصطفى عليه السلام فإننا لا نستطيع أن نقول إنه هو الإسلام، نعم كان قرآنًا يمشي على الأرض، وكان خلقه القرآن، ومع ذلك لم يقل أحد أن الرسول هو الإسلام، ولكنه كان كما قال عن نفسه «إنما أنا بشر فما حدثتكم به من عند الله فهو حق، وما قلت فيه من قبل نفسي فإنما أنا بشر أصيب وأخطئ»، وقال لكفار مكة وهو يحاورهم «سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا».

ومن رحم تلك التعبيرات المحرفة خرجت علينا جماعات أطلقت على نفسها «جماعات إسلامية» نسبت نفسها للإسلام مباشرة، ومن الأبواب التي شرعتها لنفسها أخذت ترتكب الجرائم باسم الإسلام، وفي معظم ما قامت به تستند إلى التراث، وكأن هذا التراث هو الإسلام نفسه، وقد شاعت تلك المفاهيم بين عامة الناس فأصبح القديم عندهم هو المرادف للدين، حتى ولو كان خرافات لا أصل لها، خلطنا هذا بذاك دون أن ندرك أن هناك فارقًا بين الإسلام وبين تراث المسلمين، فالدين مقدس لا شك في ذلك، ولكن التراث هو ذلك الإنتاج البشري الذي وصلت إليه عقول بعض المسلمين الأوائل في فهمها للدين، فإذا فهم القدماء تلك النصوص قطعية الثبوت وفق ثقافاتهم وخبراتهم وزمنهم وواقعهم الذي يعيشون فيه، فليس معنى هذا أن باقي المسلمين على مدار العصور مجبرون على أن ينتظموا في نفس هذا الفهم، وإلا لكان معنى هذا أن الله لم يخلق إلا عقلاً واحدًا ثم استنسخ منه نسخًا بقدر عدد البشر إلى أن تقوم الساعة! ولذلك فإن التراث قد يلقى تقديرًا من المسلمين ومن غير المسلمين بحسب أنه جهد بشري، ولكنه لا ينبغي أبدًا أن يلقى تقديسًا أو تنزيهًا، هو مجرد صورة من صور ثقافات الأزمنة التي انتجت هذا التراث، به نستطيع أن نعرف طريقة تفكير المسلمين القدامى وطرق استدلالاتهم، ومدى تأثير ثقافات الحضارات الأخرى فيهم، وكيف نظروا بثقافاتهم هذه للقرآن وكيف تصوروا الله سبحانه، وهل أثرت فيهم ثقافة العرب وهم يكتبون سيرة النبي عليه السلام، أم أنهم تأثروا بثقافات أخرى ليست من بيئاتهم، فالإنسان في كل العصور لم يكن بمعزل عن الثقافات الأخرى

المجاورة له أو البعيدة عنه. ولأن ثقافة التقديس أصبحت راسخة في حضارتنا العربية لذلك أصبح عالم الدين عند عامة الناس وكأنه هو الدين، فاحذر من أن تقترب منه نقدًا أو تعقيبًا أو تعييبًا، فلحوم العلماء مسمومة، ثم أصبح التراث كله «بعجره وبجره وأعلاه وأرقاه» دينًا، فإن اقتربت منه ناقدًا لا ناقلًا، فأنت في بحر الظلمات.

ومع ذلك فإن أحدًا لا يمكن أن يفكر في نفي التراث أو حذفه، فلا توجد أمة في العالم تحذف من تاريخها تراثها، ولكنها تتعامل معه باعتباره تاريخًا، ولذلك فإن تراثنا المتعلق بفهم الدين يجب أن يقف في صف واحد مع تراثنا في باقي المعارف الإنسانية، فمن ناحية فإننا لا يمكن أن نُضيف طريقة تفكير المسلمين الأوائل إلى العلم، ولكن نضيفها إلى تاريخ العلم، فلا شك أن ما أبدعوه وقتها كان علمًا، ولكنه الآن بمقاييسنا وبما وصلنا إليه من حداثة وعلوم لا يمكن أن نعتبره علمًا، فمن قاموا بتفسير القرآن فسروه وفق علوم عصرهم أو الشائع بينهم أو الذي وصل لهم من أصحاب الديانات السابقة، ولكننا الآن إذا قمنا بتفسير القرآن، فلا يمكن أن نقف عند من قال إن الأرض ثابتة وإنها مركز الكون وإنها مسطحة، وقالوا إن طول إنسان الأمم الموغلة في القدم كان يتجاوز الخمسة أمتار! أو إن إبليس نكح نفسه فأنجب أمته!.

ولأننا وقعنا أسرى لحبائل الشيطان فإننا جعلنا للإسلام ممثلاً رسميًا، مثله كبابا الفاتيكان، أو كممثلي الأديان الأخرى، نراهم حين يلتقون في المجمعات التي تجمعهم، ونرى كل واحد منهم وهو يرتدي مسوحه ويعلن أنه يمثل دينه، ولكن عندنا لا يوجد أحد يمثل الإسلام، فكل واحد مهما علا شأنه إنما يمثل نفسه فقط أو يمثل مؤسسته، وسنرفض دائمًا أن يقول البعض: إن الذي يمثل الإسلام هو رئيس أي هيئة تنسب نفسها للإسلام، أو أن الذي يمثل الإسلام هو أمير أكبر جماعة تقول إنها جماعة إسلامية، أو هو رئيس أي جامع أو جامعة معنية بتدريس العلوم الشرعية.

****

ستتفق معي أيها المسلم الغيور على دينه على أن سيدنا محمد عليه السلام كان هو الوحيد الذي يمثل الإسلام، وبموته أصبح كل واحد من المسلمين يمثل نفسه مهما كان قربه من نبينا. كان يمثل الإسلام فكان نموذجًا لا يتكرر، وكيف يتكرر وهو الذي كلفه الله

تعالى بتبليغ الرسالة، قارنوا بين أخلاقه ورحمته، وبين أخلاق وسلوك من يدعون أنهم يمثلون الإسلام، أولئك الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، وستعرفون أنهم لا يمثلون الإسلام يقينًا، بل يسيئون إليه، ومن عجب أنهم فرحون بما هم فيه، والفرحة لا تعني الإيمان، فالفرحة أمر مشاعري أما الإيمان فأمر عقلي، لذلك قال الله عن مثل هؤلاء «مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»، لاحظ أن الله تعالى لم يقل: كل حزب بما لديهم مؤمنون، أو مصدقون، ولكنه قال «فرحون» هذه فرحة جماعية يشترك فيها المجموع الداخل في نطاق تلك العقلية الجمعية، هؤلاء لا تعنيهم الحقيقة، ولا يحركهم الإيمان، ولا يهتمون بصدق الاعتقاد، ولكن جل همهم الانتصار لحزبهم مهما كان باطله.

****

الآن آن لنا أن نغلق هذا الفصل وننتقل إلى فصل آخر نقرأ فيه مناطق التحريف التي قام بها أتباع الشيطان، ويا لهول ما فعلوا حينما جعلوا من الرق والرقيق والعبيد والإماء دينًا!!.

النفس السوية ترفض العبودية حتى لو كانت قيودها من ذهب، أو كانت جدرانها قد شُيّدت من لافتات الأديان.

«١٠»

تحريف العبودية من الإنهاء إلى الإبقاء

«ليس للدين سلطة القهر والإذعان على عباد الله، ولكن قوانين السلطة البشرية هي التي تُجبر وتُلزم حتى ينتظم الناس في علاقاتهم ببعض دون أن يتسلط أحدهم أو يطغى على الآخرين، أما علاقة الإنسان بالله فقد أرادها الله لنا حرة، لذلك إذا كان الإيمان بالله يشكل نصف الحرية، فإن عدم الإيمان بالله والكفر به يشكل النصف الآخر من الحرية، وإذا كانت الطاعة تشكل نصف الحرية فإن المعصية تشكل النصف الآخر من الحرية، وبذلك يتحقق لا إكراه في الدين، ويتحقق فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فنحن عباد الله في الدنيا لا عبيده، ونحن عبيد الله يوم الحساب لا عباده، وبعد الحساب من يدخل الجنة يسترد عباديته فتكون له الإرادة الحرة ويكون صاحب القرار والرغبة، ومن يدخل النار يُردُ إلى العبودية، فلا إرادة ولا قرار ولا رغبة، ولو انتظم الناس جميعًا في حياتنا الدنيا في طاعة الله لانتفت الحرية التي أرادها الله لنا، وطلبها منا، فإذا كان الله قد طلب منا جميعًا أن نكون أحرارًا في علاقتنا به، أيكون قد شرَّع لنا الرق وأباح لنا أن يستعبد الإنسانُ إنسانًا مثله فيقهره ويخضعه ويذله ويجعله بضاعة، وأن يسترق الإنسانُ إنسانةً مثله فيجعلها أَمةً يُخضعها ويستخدمها ويزني بها ويستولد منها؟! ليس هذا دين الله أبدًا، ولكنه دين الشيطان الذي زينه في عيون الناس وجعله كأنه الإسلام الذي أنزله الله على رسولنا، حتى أن بعض شيوخ المسلمين يتفاخرون به، ويتباهون أنهم بهذا الاسترقاق والقهر والاستعباد كانوا يضعون قدمًا في الأندلس وقدمًا في الصين!!»

****

حينما كتبت في فصل سابق عن أكذوبة الفتوحات التي أطلقوا عليها إسلامية، وكيف أنها حولت الإسلام عن مساره السلمي والدعوي وجعلته دين قتل وقتال، إنما كنت أكتب وأسبق الكلمات لأصل إلى سبب رئيسي لهذه الحروب والمعارك، وهذا الاحتلال للدول الأخرى، إذ كانت هذه الحروب هي المنجم التجاري الذي من خلاله كانت الدول القديمة تغنم كثيرًا، فمن خلال السبايا والجنود المأسورين الذين أصبحوا عبيدًا والإماء يتم توفير أيدٍ عاملة مجانية، تعمل لصالح الغالب، إذ ليس للمقهور طولٌ ولا قوة لكي يعترض، وكيف يعترض وهو قيد الأسر، توفير الأيدي العاملة هو ثروة من الثروات التي يجنيها المنتصر، وزنى مستباح تأباه الفطرة السليمة ويرفضه الإسلام النقي، ويضاف إلى خزائن الغالب فوق هذا الثروات الأخرى التي تمتلكها البلاد المهزومة، ورغم أنه لا توجد في القرآن آية واحدة تبيح للمسلمين غزو البلاد لنشر الإسلام، فإن القدماء غزوا، ومن أجل تديين هذا الغزو أخرجوا آية الجزية من سياقها، وطبقوها على أحوال ليست لها، وعلى أقوام لم يفعلوا شيئًا ضدهم، فعلوا كل هذا باسم الدين، غزوا وقتلوا وسرقوا أموال الشعوب باسم الدين، وظللنا من بعد ذلك قرونًا وقرونًا نفتخر بهذا الغزو ونعتبره دليلاً على الحضارة والتقدم والتفوق، تمامًا كما يفتخر الإنجليز بأنهم كانوا ذات اليوم أصحاب الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس لأنها احتلت بلادًا تمتد من المغرب إلى المشرق، ويبدو أن جبلة الإمبراطوريات واحدة في كل حين، وكل إمبراطورية ترفع شعارات الدين، تلك ترفع شعارات الصليب، والأخرى ترفع رايات التوحيد، والثالثة تزعم رغبتها في تمدين العالم، الكل يدعي وصلاً بليلى، ولكن ليلى لا تقر لهم بذاك!.

ومنذ سنوات قليلة رأينا أحد أئمة المتسلفين في مصر وهو يخطب في جمهوره ويطرح عليهم الحل الأمثل لمشكلات الاقتصاد المصري، ويا له من حل!! أتعلمون ما الذي اقترحه الرجل؟ اقترح أن نقوم بغزو بلاد العالم، حينئذ في توهمه سيأتي الجندي من جنودنا ومعه سبعة رؤوس من الأسرى، هؤلاء الأسرى سيصبحون عبيدًا، إذ سيكون منهم وفق تصوره الأطفال والرجال والنساء، وحينما يتم عرض هؤلاء في أسواق «النخاسة» .كما قال. ومنهم سيربح الواحد أموالاً طائلة، هذه تجارة البشر، وهي من أبشع أنواع التجارة، وليت الذين سمعوا الشيخ المتسلف استبشعوا ما قال، ولكنهم فرحوا وكبَّروا، فقد تعرضوا لتشويه وعي باسم الدين، وكم من الجرائم تُرتكب باسم الدين، ولكن من يرتكبها لا يتوب أبدًا، أرأيتم رجلاً يتوب عن الدين؟!.

والآن أطرح سؤالاً عن الرق وملك اليمين، هل هما من التشريعات الدينية الدائمة أم أنهما يرتبطان بزمن ولى وانتهى، ولم يكونا من تشريعات المستقبل ذات الديمومة، فعندنا في القانون تصدر تشريعات لتوفيق أوضاع الملاك، وعلى كل مالك أن يوفق أوضاع ملكياته وفقًا للقانون الجديد، فإذا كان القانون الجديد يمنع هذه النوعية من الأملاك لذلك يجب على المالك أن يوفق أوضاعه بالتخلص من هذا المال المملوك له وفقًا للقواعد التي يحددها له القانون، هذه مثل تلك، وسنرى كيف كان ذلك.

****

الذي استقر عليه عقلي وقلبي أن كلاهما كانت له ظروفه التاريخية التي كانت قائمة في زمن الرسالة، لم يكن موجودًا في بلاد العرب وحدها ولكن في كل العالم، وكانت هذه التجارة الأكثر ربحية في العالم مع تجارة البغاء، وكلاهما ممقوت ويتنافى مع كرامة الإنسان التي أسبغها الله علينا، وكلاهما لم يكن تشريعًا للمستقبل، ولكن القدماء من الصحابة والتابعين استمروا عليهما ووسعوا من نطاقهما إلى أبعد مدى على ظنٍ من أن الإسلام أباحهما بشكل مطلق، واستمر هذا الأمر قائمًا إلى الآن، يتم تدريسه في الجامعات الدينية، وتتبنى مفاهيمه الجماعات الإسلامية والسلفية والتكفيرية، حتى أنني طالعت فتوى صادرة من الأزهر كان السؤال فيها هو: «يقول البعض إن القرآن ليس فيه ما يبيح الرِّق، والسنة النبوية لم يكن فيها ما يبيح الرِّق، وأنَّه لو استرق محمد صلى الله عليه وسلم وأنشأ رِقًّا في حرب أو غير حرب لاتُّخذ عمله سنة باقية، وما جاز لأحد أن يُلغي الرِّق مِن بعده، فهل هذا الكلام صحيح؟.

وجاءت إجابة لجنة الفتوى بالأزهر على هذا السؤال كالآتي: «الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد: فإنكار وجود الرق جهلٌ واضح بالكتاب والسنة، ومنشأ هذا القول هو الفرار من التهم الباطلة التي يلصقها الكفارُ وأذنابهم بالإسلام، وليس الإسلامُ موضوعًا في قفصِ الاتهام حتى ندافع عنه بإنكار الثابت ثبوتًا قطعيًا، ولو تأملتَ كتاب العتق في كتب الفقه لعرفت مدى عناية الإسلام بالرقيق عنايةً يتمنى معها كثيرٌ من الأحرار في زماننا أن لو كانوا رقيقًا في عصور الإسلام الزاهرة، ولسنا بصددِ تقريرِ هذا المعنى الآن، وإنما نحب أن نبين أن دلائل مشروعية الرق كثيرةٌ كتابًا وسنة، واتفق على جوازه المسلمون عبر العصور».

ليس هذا فحسب، ولكن الأزهر وقف بقوة في مواجهة الحكومات من أجل استمرار تجارة الرقيق، ففي القرن التاسع عشر وبعد أن تولى الخديو إسماعيل حكم مصر عام ١٨٦٣، كان أن صمم على إبطال تجارة العبيد وإنهاء وجودها باعتبارها تخالف القيم الإنسانية العليا، فأصدر مرسومًا بإبطال تجارة العبيد وإيقاف أسواقها، ثم أصدر فرمانًا خديويًا إلى حكمدار السودان يأمره فيه بتعقب تجار الرقيق ومنع هؤلاء التجار بالقوة من ممارسة تجارتهم مهما كانت جنسياتهم.

ولكن هل أقر الأزهر بشيوخه قرار الخديو؟! لم يحدث هذا، بل العكس هو الذي حدث، إذ ثار مشايخ الأزهر ثورة عارمة على الخديو إسماعيل واتهموه بالخروج على الشريعة الإسلامية!! وأصدروا في ذلك العديد من الفتاوى التي تقنن الرق وتنسبه للإسلام، وعبثًا حاول الخديو التفاهم معهم وإقناعهم من خلال الحوار بأن تحريم تجارة الرقيق تتفق مع صحيح الإسلام وقيمه العليا إلا أنه فشل في إقناعهم.

هذا الرق الذي كان في العصور الأولى هو في عيون شيوخ الأزهر إلى يومنا هذا جنة وارفة، لدرجة أن الأزهر يرى أن الأحرار في زماننا يتمنون أن يكونوا أرقاء في عصور الإسلام الأولى! لم يقرأ الأزهر وشيوخه شعر العبد عنترة بن شداد الذي قال: «لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل»، الرق رقٌ ولو كان في قصر من ذهب، والحر حرٌ ولو كان في عشٍ من خشب، ولكن هذا هو الذي وصل إلينا، الرق مباح، وملك اليمين يجوز أن نستمتع بهن، ولتذهب حريات الناس إلى الجحيم، ولتختفِ من كتب التاريخ مقولة ابن الخطاب لعمرو بن العاص: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»، فأصحاب ملك اليمين يقولون عبر العصور إن الله أباح الرق ولم يلغ نظام ملك اليمين، أبعد ذلك نستغرب من داعش وأخواتها عندما يقاتلون عباد الله بدعوى نشر الإسلام وإعادة الخلافة أن يقوموا باستعباد الأسرى المسالمين من الرجال والنساء، فيصبحوا ويصبحن أرقاء وملك يمين، ثم يجيزوا لأنفسهم بيعهن ونكاحهن! هذه هي بضاعة المدرسَة الدينية القائمة بيننا التي نقلت لنا الإسلام المزيف الذي تم تحريف الكلم فيه عن مواضعه، وما داعش إلا أحد أتباع هذه المدرسة.

ليس من شك أن آيات ملك اليمين استغلّت فعلًا في استعباد البشر وجعلهم خدمًا وعبيدًا، أخرجوها من سياقها وجعلوها تشريعًا، وهي من الآيات المتشابهات التي تحتمل

تأويلات كثيرة، فقاموا باتباع المتشابه من القول، وهذه هي الجريمة الكبرى عندما يحرّف الكتاب وتدخل فيه الأهواء! كيف يقبل عقلٌ راجح وقلبٌ سليم أن الإسلام الذي جاء ليحرر البشر من العبودية ويجعلها لله رب العالمين وحده أباح الرق، ومع ذلك جعلوا من (تشريعات ملك اليمين) استعباذًا للبشر باسم الله، وهذا هو الزيغ، وهذا هو اتباع المتشابه بعينه، ولو ردّوه إلى الآيات المحكمات التي تنهى عن استغلال البشر لكان خيرًا لهم ولنا، ولكن للأسف لم يحدث هذا.

وقد بحث القدماء عن وسيلة تضمن استمرار بقاء الرق الذي قرر القرآن إنهاءه بالتدريج، فكانت الحروب والغزوات التي أطلقوا عليها فتوحات، ولا زالت كتب الأزهر وغيره تقول إن الرق باقٍ للأبد لأنه إذا قامت حرب بيننا وبين الغرب الكافر جاز لنا أن نسترق ونسبي رجالهم ونساءهم! هذا الكلام الباطل لا يستقيم مع الحقيقة القرآنية، لأن القرآن لم يجز أبدًا أن نذهب غزاة لدول أخرى، القرآن أجاز لنا فقط أن نحارب دفاعًا عن أنفسنا وبلادنا ضد أي دولة غازية، مصداقًا لقوله تعالى: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»، فإذا ما قاتلنا دفاعًا عن بلادنا فإن العدو في القتال ليس له إلّا شيئًا من اثنين، إمّا القتل ردًا على اعتدائه ودفعًا له، إذ أنه جاء إلينا يحمل السلاح بغير حق يبتغي قتلنا واحتلال بلادنا، وإما الأسر، والأسر غير التملّك والاستعباد، لأن الأسير له حكمان، هما إمّا المنّ وإطلاق السراح بلا مال، وإما الافتداء بالمال، وبذلك تكون كل الفتاوى التي خرجت من الأزهر والمدارس الدينية والتي تبيح الرق وملك اليمين استنادًا إلى الحرب مع الكفار هي فتاوى باطلة من أصلها، فلا يوجد من ناحية ما يسمى الفتح في الإسلام أي غزو بلاد أو مدن والاستيلاء عليها، فحروب الإسلام دفاعية، ومن ناحية أخرى فإن هذه الحروب لا تجيز وفقًا لمدرسة التراث نفسها إلا القتل أو الأسر، ولذلك فوفقًا لهم لا يجوز أن تكون الحروب والقتال هما سبب ملك اليمين والرق.

لم ير هؤلاء أن آيات ملك اليمين والرق جاءت بصيغة الماضي والمضارع، ولم تأت بصيغة المستقبل، بمعنى أنها لم تضع تشريعًا يُحل هذا الأمر في المستقبل، لذلك كما قلت جاءت صيغته القرآنية بفعل الماضي أو فعل المضارع، ولم يبح الله أن يستمر هذا النظام، فلم يقل مثلاً: كُتب عليكم أن تسترقوا الذين يحاربونكم...، ولم يقل مثلاً: لا جناح عليكم أن تبيعوا الأسرى وتسترقوهم، ولكن جاء الإسلام والرق البغيض أمرًا واقعًا، لم تحرمه من قبل اليهودية، ولم تحرمه المسيحية، ولم تحرمه أي عقيدة على وجه الأرض، فكان لابد

للإسلام أن يضع تشريعات تنظم التعاملات في مثل ذلك الواقع الدولي، وتخفف من آثاره السيئة، ويكفي المسلمين بعد ذلك ما وجدوه في المقاصد العامة للقرآن الكريم والتي تحرم استعباد أي إنسان.

****

أحب هنا أن أعود معكم إلى قصتين حتى أربط الأفكار ببعضها، أما القصة الأولى فحينما أصدر نظام الحكم بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ قانونًا يحدد الملكية الزراعية بحد أقصى للفرد مائتي فدان، وقتئذ كانت هناك طائفة كبار الملاك التي يمتلك الواحد منهم آلاف الأفدنة، ولكن القانون لم يجردهم من الملكيات الزائدة مباشرة، بل أعطاهم الفرصة لتوفيق أوضاعهم ببيع الملكيات الزائدة خلال فترات زمنية حددها لهم القانون.

الشيء نفسه حدث قبل ذلك بأكثر من ألف وأربعمائة عام، حينما جعل الله تملك العبيد خطأً كبيرًا، وهو الخطأ الذي نستطيع وصفه بالخطأ الممنوع منعًا باتًا، يدور في دائرة الخطأ والصواب لا دائرة الحرام والحلال، ولأن ملكيات العبيد كانت قائمة وقت تخطئة القرآن لها فكان لابد من التخلص من تلك الملكيات بالتدريج عن طريق الكفارات الدينية، وفك الرقبة، وتحبيذ إعطاء العبيد حرياتهم، ومن ذلك قول الله تعالى «وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» وقول الله تعالى «وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ»، وغير ذلك من الآيات، ولو ظل المسلمون على عهد «تحرير الرقبة، وفكها» لكان عهد العبودية والرقيق قد انتهى في نهاية عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ولكن الغزوات التي أطلقوا عليها فتوحات جلبت للمسلمين أفواجًا لا تُعد ولا تُحصى من الأسرى الذين أصبحوا عبيدًا، فحينما يتحول الإسلام من كونه دينًا نتدين به لله إلى دولة أو إمبراطورية حينئذ سيتم إخضاع الدين لمفاهيم الدولة، وقد كانت هذه هي أنجح حيلة قام بها الشيطان ليحول الدين من مساره الحقيقي، فقد جعله حُكمًا وسلطانًا، وجعل من الدولة دينًا وإسلامًا، فإذا بنا نُقيم دون وعي منا دولة دينية متطرفة بعيدة عن الصراط المستقيم، ألم يكن الشيطان قاعدًا لنا على هذا الصراط؟! لذلك لم يكن غريبًا أن يحدث ما حدث، ولكن ما الفارق بين فك رقبة، وتحرير رقبة؟ أما تحريرها فمعناه شراؤها ثم تحريرها، أي أنها من البداية لم تكن داخلة في ملك الشخص المحرر، ولكي يحررها يجب

أن يشتريها من مالكها ثم يحررها، أما فكها فالفك يعني أنها مقيدة، ولا تكون مقيدة إلا عند الذي طلب الله منها فكها، فهو الذي يملك قيدها، وهو صاحب الحق بفك القيد الذي وضعه على حريتها وإطلاق سراحها.

****

كان هذا عن القصة الأولى، أما القصة الثانية فهي أيضًا عن القانون، فقد كان القانون يعطي الحق للجميع بما فيهم الأجانب . أي غير المصريين . في تملك الأراضي في منطقة سيناء، ثم حدثت أمور كثيرة في الحياة ترتب عليها وجوب تغيير ما تم الاستقرار عليه قانونًا في السابق، فإذا بالدولة تصدر قانونًا تقول فيه إنه لا يجوز تملك الأراضي في سيناء إلا للمصريين، القانون هنا حدد من له الحق في تملك هذه الأراضي، ولكن الأجنبي الذي كان قد تملك من قبل فله الحق أن يمارس ملكيته وفقًا للقانون، مثله مثل غيره، ولكن نفس هذا الأجنبي لا يجوز له أن يشتري أي أرض في سيناء بعد هذا القانون ولو كانت نصف متر.

هذه قصة معروفة وواضحة تمامًا، ليس فيها غموض ولا تقعر ولا حذلقة، كما أنها ليست مرتبطة بالحرام أو الحلال، فملكية الأجنبي هنا تدور حول الصواب والخطأ، وليست حول الحلال والحرام، إنما يدور رأينا حول هل ملكيته هنا صحيحة أم باطلة؟ ولن تجد إنسانًا يسأل: هل هذا التملك حرام أم حلال، ولكن هذه القصة تشبه في بعض تفاصيلها الاسترقاق والاستعباد، ذلك أن القانون العالمي منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام كان يجيز تملك العبيد، صح عنده أن يبيع الإنسان إنسانًا وأن يقهره ويذله ويخضعه إذا كان هذا الاستعباد قد حصل بالقوة، وعن طريق السلاح.

كانت القبيلة ذات السلاح والقوة تغير على قبيلة أخرى فتقهرها بالسلاح وتأخذ من أسرتهم من الرجال والنساء عبيدًا وإماءً، وكانت الدولة تُجهز الجيوش وتغير على دولة أخرى فتقهرها وتأخذ منها من تأخذ أسرى ليكونوا عبيدًا تحت إمرتهم، وكانت عصابات تتبع كبار تُجار العبيد تتربص بالآمنين في قوافلهم، أو في مساكنهم فتأسرهم، فيصبحون عبيدًا تحت سطوة تاجر العبيد ينتقي منهم من يريد ليبيعه، وليبيعها في أسواق النخاسة، كان الاستعباد يتم قهرًا، وكان القانون العالمي يبيح ذلك في كل العالم.

ثم جاء القرآن ليمنع المسلمين من التعدي على الغير ومحاربتهم لأي سبب، اللهم إلا إذا كانوا يدافعون عن أنفسهم وهم في بلادهم، ليس هناك قوة ضد الغير في الإسلام، أبعد أن قال الله تعالى «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» يقول بعضهم إن الإسلام أباح غزو البلاد ومقاتلة الناس في بلادهم دون أن يكونوا معتدين؟! ثم يرتب على ذلك أثرًا بحق المسلمين في أسر من قاومهم وأخذه عبدًا مسترقًا!.

الإسلام منع الاعتداء، وقال إن الله لا يحب المعتدين، فكيف جعلوا الله يحب الاعتداء ويكافئ المعتدين؟! ومع ذلك فإن فكرة الأسر الذي يُرتب الاستعباد نفسها فكرة باطلة، كانت قائمة قبل أن يُنزل الله على سيدنا الرسول عليه السلام الآية الرابعة من سورة محمد وهي سورة مدنية نزلت في المدينة، فما قصة هذه الآية؟.

****

جاء وقتنا الآن لنعرض رؤية أكثر انضباطًا من تبريرات البعض لعدم تحريم الله للرق، ذلك أننا يجب أن نعلم أن هناك فارقًا بين التحريم والإبطال، فليس كل شيء محرمًا، إذ أن الله حدد المحرمات حصرًا في القرآن الكريم، ولكن معاملات الناس فيما بينهم تخضع لمعايير الصواب والخطأ، الصحة والبطلان، فلرب عقد انعقد بين اثنين من التجار، ليس فيه حرام، ولكنه انعقد باطلاً، إما لبطلان السبب، أو المحل، أو الغبن في الثمن، أو عدم توافر الإرادة التي صح بها العقد، أو ما إلى ذلك مما استقر في الأفهام القانونية عبر العصور فيما بين الناس، فعلى سبيل المثال نجد أن العقد يبطل إذا لم تتوافر للمتعاقدين أو لأحدهما أهلية التعاقد، والأهلية تتمثل في عدة أشياء منها الرضا، إذ كان العقد انعقد مع شخص عديم الأهلية أو غير مميز أو مجنون، هذا عقد باطل، ووصفه بالبطلان هو الصحيح، والعقد يبطل أيضًا إذا كان محل العقد، أي موضوعه، غير موجود، أو مستحيل أو غير مشروع، أو غير معين أو غير قابل للتعين، فالعقد الذي يشتري فيه أحد التجار كميات معينة من الحشيش المخدر هو عقد باطل لأن هذه التجارة غير مشروعة قانونًا، والعقد الذي يشتري فيه أحد التجار مالاً غير محدد أو غير معين أو غير قابل للتعيين، هو عقد باطل، نتحدث عن بطلانه، والبطلان والصحة هي دائرة أوسع نطاقًا من دائرة

الحرام والحلال، وإذا استرسلنا سنجد أمثلة كثيرة يترتب عليها البطلان مثل بيع ملك الغير، أو إيجار ملك الغير، وإذا خضنا في هذا المجال سنكتب بحثًا كاملاً عن بطلان العقود، والبطلان كما قلنا غير التحريم، كما أن صحة أحد العقود لا يعني أبدًا أنه حلال، فتلك من بلد وهذه من بلد أخرى.

ولكن ما حال ملكيات العبيد والإماء، أهي صحيحة أم باطلة؟ القراءة الصحيحة للسان القرآني تقطع وتؤكد أن الله أبطل عقود الرق عندما أبطل سببها، ولأن هذه العقود كانت قد انعقدت صحيحة وفقًا للقانون المجتمعي قبل الإسلام لذلك فإن الله لم يبطل ملكيات العبيد السابقة على إبطال القرآن في سورة محمد لها، لأنها نشأت في ظل واقع قانوني عالمي يجيزها، ولكن الإسلام أنشأ واقعًا قانونيًا آخرَ، منع فيه تملك العبيد، لذلك بطل سبب البيع لأن تلك التجارة أصبحت غير مشروعة.

ولكن ما هو دليل هذا الإبطال، وعدم المشروعية؟! ننظر أولاً إلى أقوال الفقهاء القدامى والجدد، ونقف عند ما قررته المجامع الفقهية في المملكة العربية السعودية حينما قالت: "لقد انتهى الرق تقريبًا في عصرنا هذا، ولم يعد هناك عبيد ولا إماء لأسباب معروفة، وهذا لا يعني إبطال أحكام الرق إذا وجدت أسبابه كالجهاد بين المسلمين والكفار، فإن نساء الكفار المحاربين يكن سبايا تنطبق عليهن أحكام الرق وملك اليمين، وإن أبطلته قوانين أهل الأرض». وقد وقَّع على هذه الفتوى كل من الشيوخ؛ عبد الله بن غديان وعبد الرزاق عفيفي وعبد العزيز بن عبد الله بن باز، وقال فقهاء آخرون: «يندر الآن وجود الرقيق بالمعنى الشرعي الذي يجوز معه ما ذكر من أحكام الاستمتاع ونحوها وذلك لتخلي عامة المسلمين عن فريضة الجهاد في سبيل الله منذ زمن بعيد مع ما يعانونه من ضعف وذل ومهانة أمام أعدائهم الكفار، حتى وقعت الكثير من الدول التي أكثر شعوبها من المسلمين البروتوكول الخاص بمنع الرق والعمل للقضاء عليه والمحرر في مقر الأمم المتحدة عام ١٩٥٣".

وبهذا حدد الفقهاء سبب الاسترقاق والاستعباد بالجهاد المتمثل عندهم في غزو بلاد العالم تحت مسمى الفتح، وهذا كله باطل نشأ في أحضان البطلان وفقًا لما سيرد تباعًا.

****

أ. خطأ قديم في أصول الفقه

هناك قصة معقدة سنسير معها من البداية حتى النهاية، وهي تحتاج بعض الصبر، فهي ليست قصة مشوقة ولكنني سأحاول تشويقها بكل ما أوتيت من تشويق، وسواء شوقتها أم لم أشوقها فلله الأمر من قبل ومن بعد إذ يجب أن نرويها لكم، وتبدأ القصة ذات يوم من زمن بعيد جدًا حينما وضع علماء أصول الفقه تصورًا عن الأحكام التكليفية، ومن بعدهم أخذنا ندرس في مدارج ومدرجات علوم الفقه «الأحكام التكليفية» نحفظها عن ظهر قلب، ونفتخر أن علماء الأصول أخرجوا من القرآن والحديث تلك الأحكام التكليفية ووضعوا لها عناوين براقة تسلب الألباب، ولكن ما هي الأحكام التكليفية التي حفظناها؟ الأحكام التكليفية ببساطة شديدة هي تلك الأحكام الشرعية التي من خلالها نستطيع أن نفهم ما هو الذي يجب على المسلم أن يفعله على وجه الإلزام، وما الذي يجب عليه أن يتركه على وجه الإلزام، هذه مساحة قصيرة بين الحلال والحرام، والحلال دائرته أوسع، والحرام دائرته أضيق، ولكن هناك من جعل الحلال ضيقًا، وهناك من جعل الحرام واسعًا، ومع ذلك فلا تظن أن المسلم يجب أن يسير في مساحة ضيقة وهو ينظر تحت قدميه حتى لا يقع في الحرام، ولكن طريق حياته أوسع مما نتصور، ففيه المستحب والمكروه، فقط! ألا يوجد فيه شيء آخر؟!.

لكي نعرف هذا يجب أن نفهم ما هي تلك العناوين التي أطلقها علماء الأصول على الأحكام التكليفية؟ وفي هذا المجال سيقتصر حديثنا عن المتفق عليه بين هؤلاء العلماء حتى لا ندخل في متاهات الاختلاف والخلاف، فالمستقر عليه أن علماء الأصول قالوا إن الأحكام التكليفية باختصار شديد هي:

أول تكليف هو الفرائض، وتلك جعلها أبو حنيفة قسمين، الأول هو الفرائض والآخر هو الواجبات، ولكن الشافعي يقول كلا، إنها الواجبات وهي تشمل الفرائض في طياتها، ولكن ما معناها؟ معناها واضح جدًا، فهي عندهم جميعًا أمور طلب الله منا أن نفعلها على وجه الجزم والإلزام، لا فكاك منها إلا لأسباب أوردها الله حصرًا، فإذا ما قام بها المسلم يثاب

ويؤجر، ولكنه إذا لم يقم بها أصبح آثمًا، وقد يستحق القتل عندهم إذا كان تركه للواجب أو الفريضة كان من باب الإنكار والجحود، حينئذ الويل والثبور له.

أما الأمر الثاني فهو المندوب، والمندوب هو الأمر المستحب، بمعنى أنه يستحب للمسلم أن يفعله، وهذا لا يكفر جاحده، ولكن يفسق تاركه عند البعض إذا تركه استخفافًا.

والأمر الثالث هو المكروه، ويجعلون منه المكروه تنزيهيًا أي يجب على المسلم أن ينزه نفسه عنه، وهذا أمره يختلف من جيل إلى جيل، ومن زمن إلى زمن، ثم نأتي إلى المكروه كراهية تحريمية، أي يقترب من درجة الحرام، وهذا يجب أن تبتعد عنه حتى لا تقع في الحرام، فهم يقولون إن ما يؤدي إلى الحرام فهو حرام.

والأمر الرابع سيكون الحرام ذات نفسه، وهو ما طلب الله من المسلمين تركه طلبًا جازمًا بدليل قطعي الثبوت قطعي الدلالة، مثل قتل النفس والزنا، وهذا لا يدخل فيه الظن أو الاحتمال، إذ يجب أن يكون يقينيًا.

هذه هي الأحكام التكليفية التي استقر عليها علماء أصول الفقه، ولا شك أننا نتفق عليها ونشكر علماء الأصول على هذا الجهد الكبير الذي بذلوه ليخرجوا لنا بهذه المنظومة التشريعية، ولكن يا علماء الأصول أين الخطأ والصواب في الأحكام التكليفية؟ ألسنا نتحدث عن شريعة تنظم العلاقات بين الناس؟ لماذا لم يكتب لنا علماء أصول الفقه في قائمة الأحكام التكليفية بندًا مهمًا عن الصواب أو الصحة؟ وليكن قبل المندوب أو المستحب، أو فليكن داخلاً في المندوب، فكل صواب هو مندوب.

ولماذا لم يكتب علماء الأصول عن الخطأ؟! وليكن قبل المكروه، أين الصواب والخطأ في الأحكام التكليفية يا علماء الأصول؟ هذه هي الدائرة الأكثر اتساعًا والتي تتغير من جيل إلى جيل ومن زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، هذه هي الدائرة التي لا نستطيع أن نتكلم عن ثوابها وإثمها، فالثواب والإثم فيهما مطمور في ضمير أصحابهما.

إذا أردنا أن نعرف لماذا لم يكتبوا عن الخطأ الذي يجب أن نتجنبه فقل إن السبب هو اللغة، فالخطأ وفقًا لتعريف فقهاء الشريعة في اصطلاحاتهم هو التصرف غير العمدي، الذي لم تتوافر لصاحبه النية والقصد، فالإمام النووي على سبيل المثال يقول في كتابه

روضة الطالبين إن الخطأ هو: إما أنه لا يقصد أصل الفعل كأن يكون قد انزلق فوقع على رجل فقتله.

أو أنه رمى صيدًا فأصاب شخصًا دون أن يقصد.

وعلى المعنى نفسه يسير باقي الأئمة مثل الأصبهاني وابن قدامة وابن حزم، مع اختلافات بسيطة، فإذا كان تعريفهم صحيحًا إلا أنه كان أيضًا قاصرًا، بل إنه لا يبلغ حد الكفاية في التعريف، فالخطأ هو كل تصرف خالف فيه الشخص النظام العام والآداب العامة، والخطأ كما أنه قد يكون غفلة وسهوًا فإنه أيضًا قد يكون عمدًا، فكل تصرف يخالف النظام العام الذي أقره الإسلام فهو خطأ، سواء كان هذا الخطأ يدخل في دائرة الحرام أو لا يدخل، المهم أن العمد هنا هو قوام الخطأ العمدي، فالله يقول «ناصية كاذبة خاطئة» أي أن هذا الإنسان صاحب هذه الناصية تعود على الكذب، وما الخطأ خطأ إلا لأن صاحبه يخطه كما يخط الكلمات بالقلم، والرجل يمد الخطو، أي يسير مسرعًا، والله حذرنا من أن نتبع خطوات الشيطان.

أما النظام العام فهي المبادئ الكلية التي أقرها الإسلام، وهي أصلاً من الفطرة التي يستقيم بها أمر الإنسان في الحياة الدنيا.

فالكرامة الإنسانية أعطاها الله سبحانه لكل بني آدم، بل لكل المخلوقات، فأي شكل من أشكال إهدار كرامة الإنسان أو الحيوان، أو الزرع هو خطأ سواء كان هذا الخطأ يدخل في نطاق الحرام أو في نطاق الخطأ الذي قد يترتب عليه البطلان، فمجرد العبس في وجه إنسان قد لا يكون حرامًا، ولكنه خطأ، لذلك عاتب الله نبينا حينما قال في سورة عبس «عبس وتولى أن جاءه الأعمى»، لأن هذا العبس حتى ولو كان في وجه أعمى لا يرى ولكنه يهدر كرامة الإنسان ولو كان هذا الإهدار طفيفًا. فالكرامة الإنسانية إذن من النظام العام لا ينبغي التعدي عليها بأي صورة.

والحرية أعطاها الله لكل بني البشر، فهي من النظام العام للإسلام، وأي مساس بهذه الحرية هو خطأ، سواء كان هذا الخطأ حرامًا أو كان مجرد مخالفة لقيمة من قيم الحرية، فولي الأمر الذي يجبر ابنته القاصر على الزواج يجيز الفقهاء تصرفه، ويقولون إنه حلال

حلال حلال، ولكن تصرفه خطأ لأنه أهدر حرية ابنته في الاختيار، فضلاً عن كونها قاصرًا فتكون ناقصة الأهلية، والزواج عقد يجب أن تكتمل به إرادة المتعاقدين.

والعدل من النظام العام، وأي مساس به قد يكون حرامًا، وقد يقف عند حد الخطأ المبطل للتصرف أو القرار أو الفعل.

هذه بعض أعمدة النظام العام في الإسلام، وهي أعمدة فطرية فطرنا الله عليها، كما أنها من القواسم المشتركة مع كل الشرائع، فإذا اقتصرنا فقط على تعريف الخطأ بأنه التصرف غير العمدي، وأن الحرام هو ما يخالف التكاليف الشرعية فنكون قد أهدرنا الخطأ الذي ليس حرامًا ولكنه ينقض قيمة من قيم النظام العام.

فعلى سبيل المثال يقول الله تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ» إذا تداينا أي قامت بيننا وبين آخرين علاقة مديونية فلنكتب هذا الدين في ورقة ولنوقع عليها ليكون هذا الأمر ثابتًا فلا تضيع الحقوق، هذا حسنٌ، هذا صواب، هذا أمر صحيح، فإذا لم نكتب فهذا خطأ ولكنه ليس حرامًا.

وعلى سبيل المثال أيضًا طلب الله من المسلمين في زمن النبي في سورة التوبة أن يأخذوا جزية من الذين أوتوا الكتاب، يقاتلوهم، ثم يأخذوا الجزية منهم، لم يطلب أخذها من كل من أوتي الكتاب، ولكن من فئة منهم حدد الله أوصافها حصرًا، وهو أمر توقيفي على المسلمين ضد فئة محاربة وحدها دون غيرها، ففهم المسلمون الأمر خطأً، والأمر موكول إلى نياتهم، وقاتلوا كل أهل الكتاب بلا تفرقة، ذهبوا إليهم في بلادهم، قاموا بغزوهم، وأخذوا الجزية منهم جميعًا، دون أن يفقهوا الفرق بين مجموع أهل الكتاب، وفريق آخر اسمه «من الذين أوتوا الكتاب»، أو الذين آتيناهم الكتاب، أو الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، خلطوا هذا بذاك، وأولئك بأولئك، لاشك أن هذا خطأ، يترتب عليه البطلان، فيكون كل غزو قام به المسلمون لبلاد العالمين يدخل في نطاق البطلان المطلق، ولكنه قد لا يكون حرامًا لأنه يحتمل أن تكون نياتهم قد وقعت في لبس أو عدم فهم، فالأمر كما قلت موكل لنياتهم.

ولكنَّ أخذ أموال بلادهم هي سرقة، لا يجوز أن يقع أحد في الخطأ فيها، فهو مال مملوك للغير، وهو محل صيانة، وهو مملوك لإنسان كرمه الله، فالله يقول «ولقد كرمنا بني آدم» كما أنه مأخوذ منهم عنوة دون إرادتهم.

وقيام المسلمين بهدم دور العبادة لغير المسلمين، أو هدم بيوت الناس الآمنين في بلادهم هو أمر باطل، فالله طلب منا أن نعمر الأرض، لا أن نخربها، فهو القائل، «هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها».

وزواج القاصر بولاية والدها قد يكون حلالاً ولكنه خطأ يبطل الزواج لانعدام أرادتها، والطلاق الفردي الذي يقع من الزوج بإرادته الفردية دون أن يلاقي هذا رغبة الطرف الآخر في العقد، قد يكون حلالاً عند الفقهاء، ولكنه خطأ لأن العقود لا تنعقد ولا يرد عليها التفاسخ إلا بإرادة الطرفين.

المهم أن نعلم أن مساحة الخطأ والصواب، والصحة والبطلان هي من أدق الأمور التكليفية والتي تختلف من زمان لزمان، ومن مكان لمكان وفقًا للأفهام والمصالح والغايات والثقافات، والسقف المعرفي، فهل يمكننا من خلال هذه القصة المعقدة أن نعرف سند بطلان الاستعباد؟

****

ب. بطلان سبب الاسترقاق

نعود إلى اللغة، وننظر إلى مصطلحات الفقهاء، فقد قالوا إن الرّق لغةً: مصدر رقّ العبد يرقّ، ضدّ عتق، ويقال: استرقّ فلان مملوكه وأرقّه، نقيض أعتقه. والرّقيق: المملوك ذكرًا كان أو أنثى، ويقال للأنثى أيضًا رقيقة، والجمع رقيق وأرقّاء. وإنّما سمّي العبيد رقيقًا; لأنّهم يرقّون لمالكهم، ويذلّون ويخضعون. والرّقّ في الاصطلاح الفقهيّ موافق لمعناه لغةً، فهو كون الإنسان مملوكًا لإنسانٍ آخر[١٤].

ودار الإفتاء المصرية تقول في فتواها الشهيرة «وأما كيف يسترق الإنسان وقد ولد من أبوين حرين؟ فإن هذا لا يصح ولا يجوز في شريعة الإسلام إلا إذا كان كافرًا أسر في جهاد في سبيل الله».

إذن سبب الاسترقاق عند جمهور الفقهاء هو الحرب التي قام بها المسلمون في سبيل الله، أي حروب الجهاد وفتح البلاد، فإذا ما كانت هذه الحروب لفتح البلاد غير مشروعة أصلاً، فيكون الأسر وما ينتج عنه من استرقاق باطلاً ولا يجوز.

وفي أحد فصول كتابنا هذا أوردنا أن الله لم يُحل لنا فتح بلاد العالم عن طريق الحروب لأي سبب من الأسباب، إذ لا يجوز لنا أن نخرج من ديارنا لنشر الإسلام عن طريق السيف، ليس هذا من الإسلام، ومن قام به يُسأل عنه أمام الله سبحانه وتعالى، ولكن الإسلام ليس مسئولاً عنه على الإطلاق، فتصرفات الناس تُنسب إليهم ولا تُنسب إلى الدين، مهما كان قدر هؤلاء الناس، ذلك أن الله طلب منا أن ندعو للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وطلب منا أن نجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وطلب منا فقط أن يقتصر دورنا على التبليغ، فقال للرسول ما معناه إن الأمم من الممكن أن تكذبكم، فماذا ستفعلون آنذاك، هل ستذهبون لهم بالسلاح؟، هل ستقاتلونهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا قالوها عصموا منكم دماءهم وأموالهم؟

---

١٤ الموسوعة الفقهية الكويتية، ص ٤١١.

لا والله، إن الله قال «وإن تُكَذِّبوا فقد كذَّبَ أممٌ من قبلِكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين».. البلاغ المبين فقط، وتأكيدًا لهذا قال الله سبحانه «فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر».. لا سيطرة لك على قلوب العباد فإنك لا تهدي من أحببت ولكن الله أيها العباد يهدي من يشاء، كل دورك أن تدعو إلى الله على بصيرة يا عبدالله كما قال رب العباد لرسولنا الكريم «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني».

هى الدعوة لله على بصيرة فقط وليس حمل السيف وقهر الناس الآمنين في بلادهم، ولكن ما الذي حدث بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم؟ قامت دولة الخلافة الراشدة، وأصبح الصحابة رضوان الله عليهم هم أصحاب الحكم، وقام الخليفة الأول أبو بكر الصديق ومن جاء بعده من الخلفاء بإنشاء جيوش الفتوحات، وفي ظل الخلافة تم فتح بلاد الشام والعراق والقوقاز ومصر وليبيا وتونس وبلاد فارس وهكذا دواليك، ثم تم أخذ الأسرى من الرجال والنساء، فأصبح هؤلاء الأسرى عبيدًا في بلاد المسلمين، أما أهل البلاد التي تم غزوها فقد تم فرض الجزية عليهم! وفقًا للقواعد التي وضعوها للجزية، وفي علوم القدماء قالوا إن الذي يسلم تسقط عنه الجزية! فكان فرض هذا المبلغ المالي يحمل شبهة إكراه تجبر المواطن المصري أو الشامي والعراقي على الدخول في الإسلام حتى يتجنب دفع الجزية، وهذا ما يخالف صريح القرآن الكريم الذي قال «لا إكراه في الدين» والذي اعتبر أن إلحاح الرسول عليه السلام على الكفار حتى يسلموا هو الإكراه بعينه «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين».

الله سبحانه طلب منا أن نتعامل مع أهل الكتاب بطريقة أخرى غير الطريقة التي فعلها القدماء، حيث قال لنا « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»، ثم طلب منا أن نجادلهم فقط للدعوة، فقال «وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»، أي أن الجدال نفسه يجب أن يكون بالتي هي أحسن، ويجب أن نقول لأهل الكتاب، خذ بالك يا صديقي، «وقولوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ» ثم ماذا؟ «ونحن له مسلمون».

إذن لا غزو في الإسلام، ولا يجوز محاربة البلاد الآمنة بدعوى فرض الإسلام على أهلها، ومن ثم لا يجوز استرقاق من وقف ضد المسلمين يحاربهم ويدفع عدوانهم.

كل ما في الإسلام هو الحرب الدفاعية فقط كما قال الله تعالى «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»، القتال في الإسلام هو قتال من أجل الدفاع فقط، ولكن من الممكن أن يقع بين أيدينا أسرى في هذه الحرب، فماذا نفعل معهم، هل من حقنا أن نسترقهم ونستعبدهم نساءً ورجالاً؟! لا والله لم يقل الله لنا ذلك ولم يبح لنا هذا، إذ أنه قال في كتابه الكريم عن هؤلاء الأسرى «فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ»، هؤلاء الكفار الذين جاءوا إليكم يقاتلونكم، شرَّع الله لكم أن تقاتلوهم، فإذا وقع بين أيديكم منهم أسرى فليس أمامكم إلا طريقتان فقط لا ثالث لهما، هما «إما منًّا» أي تمنوا عليهم بإطلاق السراح، «وإما فداءً»، أي تقبلوا فدية لإطلاق سراحهم، ويمتد معنى الفداء إلى تبادل الأسرى، وإلزام الأسير بأن يعمل لدينا نظير قيمة الفداء، فإذا ما أتم عمله يتم إطلاق سراحه، وهو أمر مقارب لما نطلق عليه «المصاريف» لذلك السجين الذي عليه غرامات فتقوم الحكومة بإلزامه بالعمل لديها مقابل تلك الغرامات.

لم يقل الله في تلك الآية وهو يحدد طرق التعامل مع الأسرى: فإما منًّا بعد وإما فداءً وإما استعبادًا، إذ لو قال ذلك لكان للاستعباد سبب مشروع أقره الله تعالى، ولكنه لم يقره بل ألغاه رغم أنه كان نظامًا اجتماعيًا وقانونيًا قائمًا قبل الإسلام، إلى أن حصر الله تعالى معاملة الأسير بالمن أو الفداء فقط، فمن أين جاء الفقهاء بسبب الاسترقاق هذا الذي قالوا فيه إن الله شرعه لنا عن طريق أسر الكفار في الحروب التي ندخلها في مواجهة أهل الكفر، والتي أطلقوا عليها الفتوحات، أو الجهاد، أو جهاد الطلب؟

ومع ذلك فإن فتاوى الفقهاء القدامى والجدد تتكلم عن الحروب ضد الكفار بصفة عامة، ويبدو أنهم وضعوا جميع الخلائق في خانة الكفر والكفار، فليس عندهم أهل كتاب، ولا أهل صابئة ولا غيرهم، الكل عندهم سواء، وقد كانت نظرتهم إقصائية متطرفة غاية ما يكون التطرف، وقد وصل التطرف إلى حد أنهم في التطبيق العملي أحلوا استرقاق المسلم

في بعض الحالات، وفي ذلك يقول الشنقيطي « فَإِنْ قِيلَ: إِذَا كَانَ الرَّقِيقُ مُسْلِمًا، فَمَا وَجْهُ مِلْكِهِ بِالرِّقِّ؟ مَعَ أَنَّ سَبَبَ الرِّقِّ الَّذِي هُوَ الْكُفْرُ وَمُحَارَبَةُ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، قَدْ زَالَ؟»

الشنقيطي وجمهور الفقهاء يقولون إن سبب الرق هو الكفر ومحاربة الله ورسوله!! ولو بحثت في كتاب الله عن آية تقرر هذه القاعدة فلن تجد مهما حاولت، فلا رق في الإسلام حقًا، ثم يسترسل الشنقيطي قائلاً في أضواء البيان: «فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْقَاعِدَةَ الْمَعْرُوفَةَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَكَافَّةِ الْعُقَلَاءِ: أَنَّ الْحَقَّ السَّابِقَ لَا يَرْفَعُهُ الْحَقُّ اللَّاحِقُ، وَالْأَحَقِّيَّةُ بِالْأَسْبَقِيَّةِ ظَاهِرَةٌ لَا خَفَاءَ بِهَا، فَالْمُسْلِمُونَ عِنْدَمَا غَنِمُوا الْكُفَّارَ بِالسَّبْيِ ثَبَتَ لَهُمْ حَقُّ الْمِلْكِيَّةِ بِتَشْرِيعِ خَالِقِ الْجَمِيعِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ، فَإِذَا اسْتَقَرَّ هَذَا الْحَقُّ وَثَبَتَ، ثُمَّ أَسْلَمَ الرَّقِيقُ بَعْدَ ذَلِكَ، كَانَ حَقُّهُ فِي الْخُرُوجِ مِنَ الرِّقِّ بِالْإِسْلَامِ مَسْبُوقًا بِحَقِّ الْمُجَاهِدِ الَّذِي سَبَقَتْ لَهُ الْمِلْكِيَّةُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَلَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ رَفْعُ الْحَقِّ السَّابِقِ، بِالْحَقِّ الْمُتَأَخِّرِ عَنْهُ، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ، نَعَمْ، يَحْسُنُ بِالْمَالِكِ، وَيَجْمُلُ بِهِ أَنْ يُعْتِقَهُ إِذَا أَسْلَمَ، وَقَدْ أَمَرَ الشَّارِعُ بِذَلِكَ وَرَغَّبَ فِيهِ، وَفَتَحَ لَهُ الْأَبْوَابَ الْكَثِيرَةَ.»

كلام الشنقيطي يعني أن الرق الذي حدث لشخص كافر حدث في كفره، فإذا أسلم بعد ذلك زال عنه الكفر ولكن لا يزول عنه الرق!! فالرق عنده سابق على الإسلام، ولذلك لا يترتب على إسلام الرقيق عتقه وإن كان يستحسن لمالكه أن يعتقه.

فإذا كان سبب الرق عندهم هو أن يقع الفرد الكافر أسيرًا بين يدي المسلمين في حرب جهادية سواء كانت حربًا جهادية مما يطلقون عليه جهاد الطلب، أو حربًا دفاعية مما يطلقون عليها جهاد الدفع، فإن الله لم يبح لنا من الأصل تلك الحرب الهجومية «جهاد الطلب» كما أوضحنا في فصول هذا الكتاب، كما أنه حدد لنا مسارات أسرى الحرب الدفاعية بالمن أو الفداء وليس الاسترقاق، فيكون الإسلام قد أبطل ابتداءً سبب الرق، إلا أنه أبقى حالات الرق التي كانت قائمة والتي تمت قبل الإسلام لأنها تمت وفقًا للنظام القانوني العرفي الذي كان سائدًا وقتئذ في العالم كله، وهذا من تمام قاعدة «عدم رجعية التشريعات» أي أنه بالنسبة للمال المملوك لا يجوز أن يتم تطبيقها بأثر رجعي لأنها ستحدث مفسدة كبيرة في الملكيات، وفي العديد من العقود التي انعقدت بالفعل.

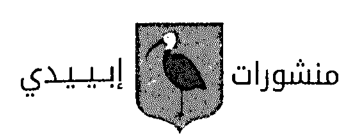
الآن يجوز لنا أن نقول بشكل صريح وواضح أن الإسلام أبطل تملك الرقيق، أبطله حينما منع المسلمين في غزو بلاد العالم بدعوى نشر الإسلام، وأبطله حينما منع ما يُسمى بجهاد الطلب وهو نوع من الجهاد أبتكره أوائل المسلمين بعد وفاة النبي، وأبطله حينما لم يجعل الأسر سببًا في الوقوع في الرق والاستعباد، إذ جعل المن أو الفداء فقط هما ما ينبغي أن يبادر المسلمون إليهما بخصوص الأسرى، وكذب من قال إن الإسلام جعل الكفر موجبًا للاسترقاق، وكذب من قال إن محاربة الله ورسوله سببٌ موجبٌ للاسترقاق، فلا توجد آية واحدة في القرآن الذي لم يغادر كبيرة ولا صغيرة في الدين توجب استرقاق الكافر المحارب، بل إن هذا الادعاء هو في ذاته أكبر تحريف للدين، هو من تحريف الكلم عن مواضعه، هو عبث باللسان العربي المبين وباللسان القرآني، هو تحريف كامل للدين، بل انني أكاد أجزم أن هذا الزعم الساقط هو أكبر جريمة ارتكبها الإنسان ضد الإسلام، إن من قال ذلك هو أكبر من حارب الله ورسوله.

****

هذا هو ختام الكتاب، وفي نهايته أقول لكم إنني لم أكتب هذا الكتاب إلا لأنني أحب الرسول عليه السلام، وكنت أحرص الناس على إظهار تركته الحقيقية، ألا يستحق رسولنا الحب؟ فأحبوه، ولم أحبه إلا لأنني أحب القرآن الكريم الذي قال لنا عن رحمته وخلقه، فأحبوه، ولم أحب القرآن إلا لأنني أحب الله الودود الرحيم الذي أنزله علينا، فأحبوه، ولم أحب الله سبحانه وتعالى إلا لأنه يستحق أن يُحب، سبحانه.

عبد الله... (signature)

الفهرس


منشورات
إبـيـيـدي

إخفاء تركة الرسول

"هذا كتاب ممتع، ودافع للتأمل والتفكير، مبني على آلية السؤال، والحوار العقلاني، والكشف عن المسكوت عنه فيما صنعته جماعات الإسلام السياسي من قتل وسفك للدماء، وتعزيز للتعصب، وإمحال للمعنى، وضرب للقيمة، وادعاء احتكار الإسلام. لقد استمتعت حقا بقراءة هذا الكتاب المهم والمغاير عن السائد والمطروق."

الناقد الأكاديمي دكتور يسري عبد الله

"هذا كتاب ليس له سابقة في الكثير من أفكاره وأطروحاته، وهو فريد، وكان أروع ما في الكتاب أن مؤلفه قدم لنا أفكارا في غاية العمق ولكن في صورة أدبية مشوقة وبديعة"

الكاتب الصحفي علاء عزمي

"هذا أفضل كتاب يواجه مشروع التطرف والإرهاب، وهو يضربه في عمق أفكاره، وإذا كانت الأجهزة الأمنية واجهت وتواجه تنظيمات الإرهاب إلا أن أحدا لم يقدم لنا عملا كبيرا يواجه أفكار هذه التنظيمات ويفككها ويوضح زيفها، إلى أن جاء هذا الكتاب ليقدم خدمة كبيرة لمشروع المواجهة، وليضع منهجا يقوم عليه تطوير الخطاب الديني"

عمرو فاروق

الكاتب والباحث في شأن

جماعات الإسلام السياسي



9 789776 892552

